التعليقات الأثرية
على
العقيدة الواسطية

(لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية)

تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
أحمد بن يحيى النجمي

المنهاج
منارة الإسلام

مصـــورات
أبي عبد الرحمـٰن السلفي الفلسطيني

التعليقات الأثرية
على
العقيدة الواسطية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: 1436 هـ - 2015 م

رقم الإيداع: 23875 / 2013 م

منارة الإسلام

القاهرة: 81 شارع الهدي المحمدي متفرع من شارع أحمد عرابي - عين شمس

محمول: 0422 012 0554 (002) - 6366 4114 011 (002)

E- mail: Manart-aslam@hotmail.com

دار المنهاج

القاهرة: 81 شارع الهدي المحمدي متفرع من شارع أحمد عرابي - عين شمس

محمول: 4081 8888 012 (002) - 4078 8888 012 (002) - 4113 8888 012(002)

E- mail: daralminhaj@yahoo.com - daralmenhaj@hotmail.com

التعليقات الأثرية

على

العقيدة الواسطية

(لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية)

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

أحمد بن يحيى النجمي

دار المنهاج

منارة الإسلام

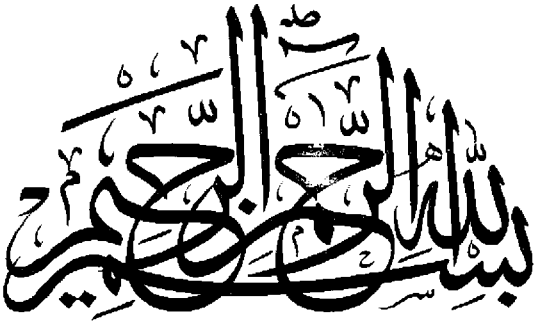

مقدمة الناشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله، نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونَعُوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سَيِّئات أعمالنا؛ مَنْ يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبدُ الله ورسولهُ، وصفيُّه وخليلُهُ، صلَّىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين، أمَّا بعد:

فأشرفُ العلوم علىٰ الإطلاق العلمُ بالله ﷻ؛ لأنَّ شرف العلم بشرف المعلوم، والعلمُ بما يجب له ﷻ من أسماء وصفات أشرفُ معلوم، وتحصيل هذا العلم الذي يسمىٰ بـ«العقيدة» مِن أوجب الواجبات علىٰ المُكلَّفين، ومن أهم المُهمَّات، وجميع العلوم فرعٌ عنه؛ إذ هو الأصل وما عداه فرعٌ عنه، بل لا يُقْبَلُ للمُكلف عملٌ إلا إذا صَحَّحَ المعتقدَ؛ إذ به يُخلص العبادة لله ﷻ وحده.

ومِن شريفِ وفاضل كُتب السُّنَّة والجماعة المُصَنَّفة في الاعتقاد «**الرسالة الواسطية**» لشيخ الإسلام ابن تيمية طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهَ، والَّتي ذكر فيها أنَّ سبب كتابتها: هو أن بعض قُضَاة (وَاسِط) من أهل الخير والدِّين شَكا ما الناس

فيه- ببلادهم في دولة التَّتَر- من غلبة الجهل والظلم ودُرُوس الدِّين والعلم؛ وسأله أن يكتب له «عقيدة» فقال له شيخُ الإسلام: «قد كَتَبَ الناسُ عقائدَ أئمة السُّنَّة»؛ فألحَّ عليه هذا القاضي في السؤال، وقال له: «ما أحبُّ إلا عقيدة تكتبُها أنتَ». فقال شيخ الإسلام: «فكتبتُ له هذه العقيدة، وأنا قاعدٌ بعد العَصر»(١).

وهذه الرِّسَالة -علىٰ وَجَازتها واخْتِصَارها- قد اعتنىٰ بها العلماءُ بعد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنَّها قد اشتملت علىٰ أصول الاعتقاد، وشرحٍ لأركان الإيمان السِّتَّة، وذِكر ما يَجب لله عَزَّوَجَلَّ من صفات الكمال، ومُخالفة المُبتدعين والضَّالِّين في باب الأسماء والصفات، وذِكْر الإيمان بالأُمور الغَيبيَّة، والإيمان بالكُتُب والرُّسَل، وبالقَدَر خيره وشَره.

وبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ من أصول أهل السُّنَّة والجماعة الأحكامَ المُتعلقة بالإمامة العُظْمىٰ.

وكذلك ما يَجب لولاة الأمر من حقِّ السَّمْع والطَّاعة؛ مُخالفة للخَوَارج وأَشْبَاههم مِمَّن خَالَفُوا أهل السُّنَّة والجماعة في ذلك.

وَذَكَرَ اعتقادَ السَّلف الصالح في صحابة رسول الله ﷺ، وأنَّ ذلك من الواجبات الشرعية الاعتقادية؛ لأنَّ فيه مخالفةً لأهل البدع من الرَّوَافض، ومَن شَابَهَهُم الذين لا يَتولون جميعَ أصحابِ رسول الله ﷺ.

وَذَكَرَ أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذَكَر أحكام أو أُصُول

---

(١) انظر «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٤)، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

الأخلاق عند أهل السُّنَّة والجماعة.

وبهذا الذي ذَكَرَه في هذه الرِّسَالة العَظِيمة المُختصرة يَتبيَّن أنَّ اعتقادَ أَهْل السُّنَّة والجَمَاعة يَشمل الأصولَ التَّالِية:

الأَصْلُ الأَوَّل: العقيدة العامَّة في الله جَلَّ وَعَلَا، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره.

الأصل الثاني: مسائل الإمامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلام فيما يتصل بذلك من الكلام في الصحابة رضوان الله عليهم.

الأصل الثالث: الكلام في أخلاق أهل السُّنَّة والجماعة.

وهذه هي الأمور الثلاثة التي فَصَّلَها شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة العظيمة المكانة بين طلاب العلم، والتي قرَّر فيها عقيدةَ السَّلف علىٰ قلة ألفاظها، وسهولة عبارتها، **وقد نالت هذه المنزلة لأسباب عديدة نذكر منها:**

١- **اعتمادها علىٰ ما جاء في كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ، وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها، وذلك في ألفاظها ومعانيها؛ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في مجلس نائب السلطنة الأفرم لمَّا سأله عن اعتقادِهِ، وكان الشيخ أحضر عقيدته «الواسطية»: «... تحرَّيتُ في هذه العقيدة اتباع الكتاب و السُّنَّة»[(١)]، وقال أيضًا: «وكلُّ لفظ ذكرتُه فأنا أذكر به آية، أو حديثًا، أو إجماعًا سلفيًّا»[(٢)].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٥).

(٢)«مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٨٩).

٢- **أنَّها ثمرةُ تَتبُّع شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لأقوال السلف واستقرائها** في باب أسماء الله وصفاته، واليوم الآخر، والإيمان، والقدر، والصحابة وغير ذلك من مسائل الأصول والاعتقاد؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما خَرَّجتُ إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم»(١).

٣- **أنَّ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بذل وُسعه وطاقته في تحرير طريقة الفرقة الناجية المنصورة أهل السُّنَّة والجماعة** في هذه العقيدة تحريرًا دقيقًا، حتىٰ قال: «قد أَمْهلتُ كلَّ مَن خالفني في شيء منها ثلاث سنين؛ فإن جاء بحرفٍ واحدٍ عن أحدٍ من القُرُون الثَّلاثة التي أثنىٰ عليها النبي ﷺ... يُخالف ما ذكرتُه فأنا أرجعُ عن ذلك»(٢).

٤- **أنَّه علىٰ صِغر حَجْم هذه العقيدة المباركة إلَّا أنَّها** قد اشتملت علىٰ غالب مسائل الاعتقاد، وأصول الإيمان، إضافة إلىٰ بيان المسلك العملي الخُلقي لأهل السُّنَّة والجماعة.

ولقد حَظِيت هذه العقيدةُ بالقبول عند أهل العلم قديمًا وحديثًا؛ فأثنىٰ عليها أهلُ العلم، وذَكروها بالجميل؛ فقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كلام له علىٰ هذه الرسالة: «وقع الاتفاق علىٰ أنَّ هذا معتقدٌ سلفيٌّ جيدٌ»(٣).

وقال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقع الاتفاق علىٰ أنَّ هذه عقيدةٌ سُنيَّةٌ سَلفيَّةٌ»(٤).

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٩٧).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٩).

(٣) انظر «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية»، لابن عبد الهادي (ص ٢١٢).

(٤) «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٩٦).

وقال عنها الشيخُ عبدُ الرحمن السَّعْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَمَعَتْ علىٰ اختصارها ووضوحها جميع ما يجب اعتقاده في أصول الإيمان وعقائده الصحيحة»[1].

ولهذا اعتنىٰ أهلُ العلم وطُلَّابه بهذه العقيدة حفظًا وتدريسًا، وتعلُّمًا، وتعليمًا.

وقد شُرِحت بشروح كثيرة متنوعة بَسْطًا واختصارًا.

ونظرًا لأهميَّة هذه العقيدة ولما لها مِن قبول لدىٰ طُلَّاب العلم- قام الشيخ أحمد بن يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ بشرحها شرحًا متوسطًا؛ كاشفًا ما فيها من دررٍ وَنَفَائس ومسائلَ فَرَائد، ومُقيمًا علىٰ ذلك الأدلة من الكتاب والسُّنَّة وأقوال سلف الأمة.

هذا، وقد قمنا -بفضل الله تعالىٰ- في (دار المنهاج) بالتعاون مع اللجنة العلمية لمؤلفات فضيلة الشيخ العلامة المحدث/ أحمد بن يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ بتحقيق هذه العقيدة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وشَرْحِها للشيخ أحمد بن يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ- تحقيقًا علميًّا وَفْق الخطوات العلمية المنهجية التالية:

١- مُرَاجَعةُ الكتاب مُرَاجعةً لُغويَّةً دقيقةً.

٢- إثبات الآيات القرآنية بالرسم العثماني، وعزوها إلىٰ مواضعها في المصحف الشريف.

٣- تخريج الأحاديث بمنهج موحَّد، وقد اعتمدنا في التخريجات علىٰ كتب الحديث ذات الترقيمات المعتمدة؛ كترقيم محمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد اكتفينا بتخريج الحديث إن كان في الصحيحين أو أحدهما بذكر رقمه، وإن

---

(١) «التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة»، للسعدي (ص ٦).

كان في غيرهما ذكرنا رقمه، أو رقم الجزء والصفحة، ثم أوردنا حُكم الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عليه غالبًا.

٤- تخريج الآثار من كتب التفاسير وكتب السُّنَّة.

٥- عزو النُّقولات إلىٰ مصادرها من كتب أهل العلم.

٦- أثبتنا الأحاديث التي أوردها الشيخ أثناء التعليق بالمعنىٰ من كتب السُّنَّة بألفاظها؛ لتتضح الفائدة من ذكرها.

٧- شرح الغريب من كتب الشروح المُعتمدة وكتب اللُّغة.

٨- أوردنا بعض التعليقات التي رأيناها لازمة لإيضاح المعنىٰ.

٩- وضعنا عناوين لفقرات الكتاب المشروح تيسيرًا علىٰ القارئ حتىٰ يصل إلىٰ بُغيته بِيُسر.

١٠- قمنا بعمل مقدمة للتحقيق بَيَّنَّا فيها المنهج المُتَّبع في تحقيق هذا الكتاب المبارك.

والله من وراء القصد، وهو المُوفِّق والهادي إلىٰ سواء السبيل.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين

اللجنة العلمية لمؤلفات العلامة أحمد النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ

قسم التحقيق والبحث العلمي بـ «دار المنهاج»

ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

اسمه ونسبه:

هو شيخ الإسلام، الإمام، المُحدِّث، الحافظ، النَّاقد، والمُفَسِّر الغَوَّاص في معاني القرآن، والمُؤرِّخ المُطَّلِع علىٰ أحداث التَّاريخ، المُبرَّز في العُلُوم النَّقليَّة والعقليَّة علىٰ كبار المُتخَصِّصين فيها، والآمر بالمعروف، النَّاهي عن المنكر، الزَّاهد، العابد، المجاهد، المُظفَّر في ميادين القتال، وفي ميادين الدِّفاع عن حِيَاض الإسلام بالحُجَّة والبرهان، سَيْف الله المَسلول علىٰ الفلاسفة والمُلْحدين وعلىٰ الغُلاة المبتدعين: تقيُّ الدِّين، أبو العبَّاس؛ أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحرَّاني.

فإذا أُطْلِق شيخ الإسلام فالمقصود به هو، طيَّب اللهُ ثراه.

وأمَّا عن لقب «تيمية»؛ فَقَدْ قال أبو عبد الله مُحمَّد بن أحمد بن عبد الهادي: «قيل: إنَّ جَدَّه مُحمَّد بن الخضر حجَّ علىٰ دَرْب تَيْماء، فرأىٰ هناك طفلةً، فلمَّا رجع، وَجَد امرأته قَدْ وَلَدَتْ له بنتًا، فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلُقِّب بذلك».

وقال ابن النَّجَّار: «ذُكر لنا أنَّ جدَّه مُحمَّدًا كانت أُمُّه تُسمَّىٰ تيمية، وكانت واعظةً، فنُسِب إليها، وعُرِف به».

مولده ونشأته:

وُلِدَ رَحِمَهُ اللَّهُ يوم الإثنين، عاشر، وقيل: ثاني عشر من ربيع الأوَّل سنة ٦٦١هـ في حرَّان، وسافر والداه به وبإخوته إلىٰ الشَّام عند جَوْر التَّتار، وقَدِموا دمشق في أثناء سنة سبعٍ وستين وستٍّ مئة، وَقَدْ وُلِدَ في بيتِ علمٍ ودينٍ.

والده وجده:

أمَّا والده: فهو الشَّيخ شهاب الدِّين أبو المحاسن، عبد الحليم وُلِدَ سنة سبعٍ وعشرين وست مئة بحرَّان، وتُوفِّي سنة اثنتين وثمانين وست مئة بدمشق.

قال الذَّهبيُّ: «قرأ المذهب (أي: الحنبلي) حتَّىٰ أتقنه علىٰ والده، ودَرَّس وأفتىٰ وصنَّف، وصار شيخَ البلد بعد أبيه».

وأمَّا جَدُّه، فهو: مجد الدِّين أبو البركات عبد السَّلام، الإمام المقرئ المُحدِّث المفسِّر، فقيه الوقت، وأحد الأعلام، وُلد سنة تسعين وخمس مئة تقريبًا بحرَّان، وتُوفِّي سنة ثلاث وخمسين وست مئة.

ومجد الدِّين من أعيان المذهب؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كان جَدُّنا عَجَبًا في سرد المُتُون، وحِفْظ مذاهب النَّاس وإيرادها بلا كُلْفةٍ».

شيوخه:

بَلَغ عددُ شُيُوخه أكثر من مئتي شيخٍ، مِن أبرزهم:

١- والده الشَّيخ عبد الحليم بن عبد السَّلام ابن تيمية.

٢- المُحدِّث أبو العبَّاس، أحمد بن عبد الدَّائم.

٣- ابن أبي اليسر.

٤- الشَّيخ شمس الدِّين عبد الرَّحمن المقدسي الحنبلي.

٥- ابن الظَّاهري الحافظ أبو العبَّاس الحلبي الحنفي.

تلاميذه:

أمَّا تلاميذه فلا يُحْصَون كثرةً، فمِنْ تلاميذه البارزين والمُبرَّزين:

١ - شمس الدِّين، أبو عبد الله، مُحمَّد بن أبي بكرٍ الزرعي، ابن قيِّم الجوزيَّة.

٢ - الحافظ أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عبد الهادي.

٣ - الحافظ أبو الحَجَّاج المزي.

٤ - الحافظ المُؤرِّخ أبو عبد الله محمد بن عثمان الذَّهبي.

٥ - أبو الفتح ابن سَيِّد النَّاس مُحمَّد بن محمد اليعمري المصري.

٦ - الحافظ علم الدِّين القاسم بن محمد البرزالي.

علمه:

سَمِعَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مسندَ الإمام أحمد بن حنبل مرَّاتٍ، وسمع الكُتُب السِّتَّة الكِبار، والأجزاءَ. ومن مسموعاته: «معجم الطَّبراني الكبير».

وقرأ ونَسَخَ وتَعَلَّم الخَطَّ والحساب في المَكْتب، وحَفِظَ القرآن، وأَقْبَل علىٰ الفقه، وقرأ العربيَّة علىٰ ابن عبد القويِّ، ثمَّ فهمها، وأخذ يتأمَّل كتاب سيبويه حتَّىٰ فَهِم في النَّحْو، وأقبل علىٰ التَّفْسير إقبالًا كليًّا حتَّىٰ حَاز فيه قَصب السَّبْق، وأَحْكَم أصولَ الفقه، وغير ذلك.

هذا كلُّه وهو بعدُ ابنُ بضع عشرة سنةً، فَانْبَهر أهلُ دمشق من فَرْط ذكائِهِ، وسَيَلان ذهنِهِ، وقُوَّة حافظته، وسرعة إدراكه.

واتَّفَق أنَّ بعض مشايخ العلماء بحلب قَدِم إلىٰ دمشق، وقال: «سمعت في البلاد بصبيٍّ يُقَال له: أحمد بن تيمية، وأنَّه سريع الحفظ، وَقَدْ جئتُ قاصدًا لَعَلِّي أَرَاه».

وقال الحافظ أبو عبد الله الذَّهبيُّ: «نشأ الشَّيْخ تقيُّ الدِّين رَحِمَهُ اللَّهُ في تَصوُّنٍ تامٍّ وعفافٍ وتَأَلُّهٍ وتَعَبُّدٍ واقتصادٍ في المَلْبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صِغَره، ويُناظر ويُفحم الكبار، ويأتي بما يَتحيَّر منه أعيانُ البلد في العلم، فأفتىٰ وله تسع عشرة سنةً، بل أقلُّ، وشَرَع في الجَمْع والتَّأْلِيف من ذلك الوقت، وأَكَبَّ علىٰ الاشتغال.

ومات والدُه وكان من كبار الحنابلة وأَئمَّتهم، فدَرَّس بعده بوظائفه، وله إحدىٰ وعشرون سنةً، وتَقدَّم في عِلْم التَّفْسير والأُصُول وجميع علوم الإسلام؛ أصولها وفروعها، ودِقِّها وجِلِّها، وله خبرةٌ تَامَّةٌ في الرِّجال،

وجرحهم وتعديلهم، ومعرفةٌ بفُنُونِ الحديثِ، والصَّحيح والسَّقيم، مع حفظه لمُتونه الَّذي انْفَرد به، فلا يَبلغ أحدٌ في العصر رُتْبَته، ولا يُقاربه، وهو عجيبٌ في استحضاره، واستخراج الحُجَج منه، وإليه المُنتهىٰ في عَزْوه إلىٰ الكُتُب السِّتَّة، بحيث يَصدق عليه أن يقال: كلُّ حديثٍ لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديثٍ، واشتهر أمرُه، وبَعُدَ صِيتُهُ في العالم».

وقال الحافظ المِزيُّ: «ما رأيتُ مثلَه، ولا رأىٰ هو مثلَ نفسِهِ، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ولا أتبع لهما منه».

وقال العَلَّامة ابن الزملكاني: «كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم، ظنَّ الرَّائي والسَّامع أنَّه لا يعرف غير ذلك الفنِّ، وحكم أنَّ أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطَّوَائف إذا جَلَسُوا معه، اسْتَفَادوا في مَذَاهبهم منه ما لم يكونوا قَدْ عرفوه قبل ذلك، ولا يُعرف أنَّه نَاظَرَ أحدًا فانقطع معه، ولا تَكلَّم في علمٍ من العُلُوم سواء أكان من عُلُوم الشَّرع أم غيرها إلَّا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليدُ الطُّولىٰ في حُسْن التَّصْنيف، وجَوْدة العبارة والتَّرْتيب والتَّقْسيم والتَّبْيين، واجتمعت فيه شُرُوط الاجتهاد علىٰ وجهها».

جهاده:

كان -رحمه الله تعالىٰ- قائمًا بأمر الجهاد، وله في ذلك مواقفُ كثيرةٌ، فمن ذلك:

ما ذكره عنه ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «ولمَّا كان يوم الجمعة سابع عشر شوال سنة (٦٩٧) عمل الشَّيخ تقي الدِّين ابن تيمية ميعادًا في الجهاد، وحَرَّض فيه، وبالغ في أجور المجاهدين، وكان ميعادًا حافلًا جليلًا».

وقال البزَّار: «وأخبر غيرُ واحدٍ أنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهادٍ يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم؛ إنْ رأىٰ من بعضهم هَلعًا أو رِقَّةً أو جبانةً شَجَّعه وثَبَّته وبَشَّره ووعده بالنَّصْر والظَّفَر والغنيمة، وبَيَّن له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزال الله عليهم السَّكِينة، وكان إذا ركب الخيلَ يَتحنَّك ويجول في العدوِّ كأعظم الشُّجْعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويُكبِّر تكبيرًا أَنْكَىٰ في العدوِّ من كثيرٍ من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوضَ رجلٍ لا يخاف الموت.

وحَدَّثوا أنَّهم رأوا منه في فتح عكَّة أمورًا من الشَّجاعة يعجز الواصف عن وَصْفها، قالوا: ولَقَدْ كان السَّبب في تَملُّك المسلمين إيَّاها بفعلِهِ ومشورتِهِ وحُسْن نَظَره».

وجاهد -رحمه الله تعالىٰ- بقلمه؛ فردَّ علىٰ اليهود والنَّصَارىٰ والفلاسفة، وعلىٰ طوائف أهل البدع.

قيامه بالأمر بالمعروف ونهيه عن المنكر:

له رسائل إلىٰ البحرين، وإلىٰ مُلُوك العرب، وإلىٰ ثُغُور الشَّام؛ إلىٰ

طرابلس وغيرها بمصالح تَتعلَّق بالأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر.

زهده في المناصب:

قال ابن رجبٍ: «عُرِض عليه قضاء القضاة قبل التِّسْعين، ومشيخة الشُّيُوخ، فلم يَقْبل شيئًا من ذلك».

وقال عمر بن علي بن موسىٰ البزار: «أخبرني مَنْ لا أتَّهمه أنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حين وُشِيَ به إلىٰ السُّلْطان المُعظَّم الملك النَّاصر مُحمَّد أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنَّني أُخبرت أنَّك قَدْ أطاعك النَّاس، وأنَّ في نفسك أَخْذَ المُلْك، فلم يكترث به، بل قال له بنَفْسٍ مُطمئنَّةٍ، وقلبٍ ثابتٍ، وصوتٍ عالٍ سمعه كثيرٌ مِمَّنْ حضر: أنا أفعل ذلك؟! واللهِ، إنَّ مُلكك ومُلك المُغْل[1] لا يُساوي عندي فَلْسين.

فَتَبسَّم السُّلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع اللهُ له في قلبه من الهيبة العظيمة: إنَّك واللهِ لَصَادقٌ، وإنَّ الَّذي وَشَىٰ بك إليَّ كاذبٌ».

حاله وعبادته:

قال ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية -قَدَّس الله روحه- يقول: إنَّ في الدُّنيا جَنَّةً مَنْ لم يدخلها لا يدخل جنَّة الآخرة. وقال لي

---

(١) أي: المغول.

مَرَّةً: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جَنَّتي وبستاني في صدري، إِنْ رُحْتُ فهي معي لا تُفارِقني، إنَّ حبسي خَلْوةٌ، وقَتْلي شهادةٌ، وإخراجي من بلدي سياحةٌ.

وكان يقول في مَحْبسه في القلعة: لو بَذَلتُ مِلء هذه القاعة ذهبًا، ما عدل عندي شُكْر هذه النِّعمة، أو قال: ما جزيتهم علىٰ ما تَسبَّبوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سُجُوده وهو محبوسٌ: اللَّهمَّ أَعنِّي علىٰ ذِكْرك وشُكْرك وحُسْن عِبَادتِك، ما شاء الله.

وقال لي مَرَّةً: «المحبوس: مَنْ حُبِس قلبه عن ربِّه تعالىٰ، والمأسور: مَنْ أَسَره هَواهُ».

ولمَّا دخل إلىٰ القلعة وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد:١٣].

وَعَلِمَ اللهُ ما رأيتُ أحدًا أطيب عيشًا منه قَطُّ، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرَّفاهية والنَّعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتَّهْديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أَطْيب النَّاس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأَسَرِّهم نَفْسًا، تَلُوح نَضْرةُ النَّعيم علىٰ وجهه، وكُنَّا إذا اشتدَّ بنا الخوف، وساءت مِنَّا الظُّنُون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلَّا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كلُّه، وينقلب انشراحًا وقوَّةً ويقينًا وطمأنينةً، فسبحان مَنْ أشهد عباده جَنَّته قبل لقائه! وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوْحها ونسيمها وطِيبِها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليه.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من أَوْرع النَّاس وأزهدهم وأكرمهم.

صبره على المحن:

سُجِن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ سبعَ مَرَّاتٍ لمُددٍ مُتفاوتةٍ، بلغت جُمْلتها خمسَ سنواتٍ، أسبابُها كلُّها واهياتٌ، فهي نتيجةُ حسدٍ، ووشايةٍ، وَسِعَاياتٍ.

ثناء العلماء عليه:

قال الإمام الذَّهبيُّ: «ابن تيمية: الشَّيخ الإمام العالم، المُفسِّر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المُحدِّث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التَّصانيف الباهرة، والذَّكاء المُفرط».

وقال فيه: «... كان قَوَّالًا بالحقِّ، نَهَّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ، ذا سطوةٍ وإقدامٍ، وعدم مُدَاراة الأَغْيار، ومَنْ خالطه وعرفه قَدْ ينسبني إلىٰ التَّقْصير في وَصْفه...».

وقال عنه: «... لا يُؤتَىٰ من سوءِ فهمٍ، بل له الذَّكَاء المفرط، ولا من قِلَّة علمٍ، فإنَّه بحرٌ زَخَّارٌ، بصيرٌ بالكتاب والسُّنَّة، عديم النَّظِير في ذلك، ولا هو بمتلاعبٍ بالدِّين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيءٍ إلىٰ مداهنةِ خُصُومه وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو ينفرد بمسائل بالتَّشهِّي... فهذا الرَّجل لا أرجو علىٰ ما قلته فيه دنيا، ولا مالًا، ولا جاهًا بوجهٍ أصلًا، مع خبرتي التَّامَّة به، ولكن لا يسعني في ديني ولا في عقلي أَنْ أكتم مَحَاسِنَه، وأدفن فضائله، وأبرز ذُنُوبًا له مغفورةً في سعة كرم الله تعالىٰ...».

وقال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ له بعد سماع كلامه: «ما كنت أظنُّ أنَّ الله تعالىٰ بقي يخلقُ مثلك».

وقال أيضًا: «لمَّا اجتمعت بابن تيمية، رأيتُ رجلًا العُلُوم كُلُّها بين عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويَدَعُ ما يريد».

وقال ابن الزَّمْلكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإمام العالم العَلَّامة الأوحد الحافظ، المجتهد الزَّاهد، العابد القدوة إمام الأَئِمَّة، قدوة الأُمَّة، عَلَّامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدِّين، بركة الإسلام، حُجَّة الأعلام، قامع المبتدعين، محيي السُّنَّة، ومَنْ عَظُمَتْ به لله علينا المِنَّة، وقامت به علىٰ أعدائه الحُجَّة، واستبانت ببركته وهَدْيه».

وكتب فيه قوله:

ماذا يقول الواصفون له ... وصفاتُه جلَّت عن الحصرِ
هو حُجَّةٌ لله قاهرة ... هُوَ بيننا أعجوبةُ الدَّهْرِ
هو آيةٌ للخلق ظاهرةٌ ... أنوارها أَرْبَتْ على الفجرِ

وقال أبو البقاء السبكي: «والله يا فلان، ما يبغض ابن تيمية إلَّا جاهلٌ أو صاحبُ هوىٰ، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوىٰ يَصدُّه هواه عن الحقِّ بعد معرفته به».

مؤلفاته:

مُؤلَّفات الشَّيخ كثيرةٌ يصعب إحصاؤها، وعلىٰ كثرتها فهي لم توجد في

بلدٍ مُعيَّنٍ في زمانه، إنَّما كانت مبثوثةً بين الأقطار، كما قال الحافظ البزَّار رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا مُؤلَّفاته ومُصنَّفاته، فإنَّها أكثر من أنْ أقدر علىٰ إحصائها أو يحضرني جملة أسمائها، بل هذا لا يقدر عليه غالبًا أحدٌ؛ لأنَّها كثيرةٌ جدًّا، كبارًا وصغارًا، أو هي منشورةٌ في البلدان، فَقلَّ بلدٌ نزلتُه إلَّا ورأيتُ فيه من تصانيفه».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا تصانيفه رَحِمَهُ اللَّهُ فهي أشهر من أن تُذكَر، وأَعْرف من أن تُنكَر، سَارَتْ سَيْر الشَّمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، قَدْ جاوزت حدَّ الكثرة، فلا يمكن أحدٌ حَصْرها، ولا يَتَّسع هذا المكان لعدِّ المعروف منها، ولا ذكرها».

وذكر ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ أجوبة الشَّيخ يشقُّ ضبطها وإحصاؤها، ويعسر حصرها واستقصاؤها، لكثرة مكتوبه، وسرعة كتابته، إضافةً إلىٰ أنَّه يكتب مِنْ حفظِهِ من غير نقلٍ، فلا يحتاج إلىٰ مكانٍ مُعيَّنٍ للكتابة، ويُسأل عن الشَّيء، فيقول: قَدْ كتبتُ في هذا، فلا يدري أين هو؟ فيلتفت إلىٰ أصحابه، ويقول: رُدُّوا خَطِّي وأظهروه ليُنقل، فمِنْ حرصهم عليه لا يَرُدُّونه، ومِنْ عَجْزهم لا ينقلونه، فيذهب ولا يعرف اسمه».

فمُؤلَّفاته رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرةٌ جدًّا بحيث عَجَز تلاميذه ومُحبُّوه عن إحصائها؛ قال تلميذه ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمَّا بعد: فإنَّ جماعةً من مُحبِّي السُّنَّة والعلم سألني أَنْ أذكر له ما أَلَّفه الشَّيخ الإمام العَلَّامة الحافظ أوحد زمانه، تقي الدِّين أبو العبَّاس أحمد ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فذكرتُ لهم أنِّي عجزت عَنْ حصرها وتعدادها لوجوهٍ أَبْديتها لبعضهم، وسأذكرها إِنْ شاء الله فيما بعدُ...».

ثمَّ قال: «فمِمَّا رأيته في التَّفسير»؛ فذكر اثنين وتسعين مُؤلَّفًا ما بين رسالةٍ وقاعدةٍ...

ومِمَّا صَنَّفه في الأُصُول مُبتدئًا أو مُجيبًا لمعترضٍ أو سائلٍ؛ فذكر عشرين مُؤلَّفًا ما بين كتابٍ ورسالةٍ وقاعدةٍ...

ثمَّ قال: «قواعد وفتاوىٰ»؛ فذكر خمسةً وأربعين ومئةً ما بين كتابٍ وقاعدةٍ ورسالةٍ.

ثمَّ «الكُتُب الفِقهيَّة»؛ وسرد خمسةً وخمسين مُؤلَّفًا ما بين كتابٍ ورسالةٍ وقاعدةٍ.

ثمَّ «وصايا وإجازات ورسائل تَتضمَّن عُلُومًا» بلغت اثنتين وعشرين.

وذكر الحافظ ابن عبد الهادي كثيرًا من مُؤلَّفات شيخ الإسلام مع ذِكْر نماذج لبعض المُؤلَّفات، والتَّنْويه بمكانتها في كتابه: «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية».

ومن أبرز كتبه ما يلي:

١ - «الاستقامة».

٢ - «اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم».

٣ - «بيان تلبيس الجهميَّة».

٤ - «الجواب الصَّحيح لمَنْ بدَّل دين المسيح».

٥ - «درء تعارض العقل والنَّقْل».

٦ - «الصفدية».

٧ - «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القَدريَّة».

٨ - «النبوات».

وله من الكُتُب والرَّسائل الكثير جدًّا مِمَّا طبع بعضه مستقلًّا، وبعضه في مجاميعَ كبيرةٍ؛ كـ«مجموع الفتاوىٰ»، ومجاميع صغيرة، والكثير منه لا يزال مخطوطًا؛ سواء كان موجودًا، أو في عداد المفقود.

وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:

لمَّا أُخرج ما عنده من الكُتُب والأوراق، أَقْبَلَ الشيخُ بعد إخراجها علىٰ العبادة والتِّلَاوة والتَّذكُّر والتَّهجُّد حتَّىٰ أتاه اليقين.

وختم القرآن مُدَّةَ إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدىٰ وثمانين ختمةً، انتهىٰ في آخر ختمةٍ إلىٰ آخر سورة القمر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

وفي ليلة الإثنين لعشرين من ذي القعدة من سنة (٧٢٨هـ) تُوفِّي شيخ الإسلام بقلعة دمشق الَّتي كان محبوسًا فيها، وأُذِنَ للنَّاس بالدُّخول فيها، ثُمَّ غُسِّل فيها، وَقَدِ اجْتَمَع النَّاس بالقلعة والطَّريق إلىٰ جامع دمشق، وصُلِّي عليه بالقلعة، ثُمَّ وُضِعَتْ جنازته في الجامع، والجند يحفظونها من النَّاس من شِدَّة الزِّحام، ثُمَّ صُلِّي عليه بعد صلاة الظُّهْر، ثُمَّ حملت الجنازة، واشتدَّ الزِّحام، فقَدْ أَغْلَق النَّاس حوانيتهم، ولَمْ يَتخلَّف عن الحضور إلَّا القليل من النَّاس، أو مَنْ أعجزه الزِّحامُ، وصار النَّعْش علىٰ الرُّؤوس، تارةً يَتقدَّم، وتارةً يَتأخَّر، وتارةً يقف حتَّىٰ يمرَّ النَّاس، وخرج النَّاس من الجامع من أبوابه كلِّها، وهي شديدة الزِّحام.

قال أهل التَّاريخ: لم يُسْمع في جنازةٍ بمثل هذا الجَمْع إلَّا جنازة الإمام أحمد بن حنبل.

وقال ابن رجب: «وصُلِّي عليه صلاةُ الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة حتَّىٰ في بلاد اليمن والصِّين، وأُخْبِر المسافرون أنَّه نُودِي بأقصىٰ الصِّين للصَّلاة عليه يوم الجُمُعة: الصَّلاة علىٰ ترجمان القرآن».

ومِمَّا قاله الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في رثائه:

يَـا مَـوْت خُـذْ مَـنْ أردتَ أو فَـدَعْ ... محـوتَ رسـمَ العلـومِ والـوَرَع
أخـذتَ شـيخَ الإسـلام وَانْفَـصمَتْ ... عُـرَى التُّقـى واشْـتَفى أولـو البِـدَع
غَيَّبْـتَ بحـرًا مُفـسِّرًا جـبلًا ... حبـرًا تقيًّـا مجانـب الـشَّيَع
أسـكنه اللهُ في الجنـانِ وَلَا ... زال عَلِيًّـا في أجمـلِ الخلَـع
مَـضَى ابـنُ تيميـة وموعـده ... مَـعَ خَـصْمه يـومَ نفخـةِ الفَـزَع

مصادر ترجمته:

«العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية»، لابن عبد الهادي.

«الشهادة الزكية في ثناء الأئمة علىٰ ابن تيمية»، لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي.

«المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد»، لابن مفلح.

«الذيل علىٰ طبقات الحنابلة»، لابن رجب.

«شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، لابن العماد.

«الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية»، للحافظ عمر بن علي البزار.

«الوابل الصيب من الكلم الطيب»، لابن قيم الجوزية.

«الرد الوافر»، لابن ناصر الدين الدمشقي.

ترجمة فضيلة الشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

❑ اسمه ونسبه:

هُوَ شَيْخُنا العَلَّامة، السلفي، الفَقِيه، المُسْند، المُحَدِّث، حاملُ لِوَاء السُّنَّة ونَاصِرُها، وقَاهِر البِدْعةِ ومُبْطلها، العَالِم الرَّبَّانيُّ الحَبْر، صَاحِبُ الأَخْلاقِ العَلِيَّة، والمَنَاقبِ الرَّضيَّة، ذُو التَّصانِيفِ النَّافعة، والمُصنَّفاتِ الجَلِيلة الرَّائعة، كَانَ مَنَارًا عَظِيمًا مِنْ مَنارَاتِ العِلْم، مُتَّفقًا علىٰ عِلْمِهِ وإمامتِهِ وجلالتِهِ وزُهْدِهِ ووَرَعِهِ وعبادتِهِ وصيانتِهِ، مُفْتيًا لِمِنْطقة جَازَان في عصرِهِ:

«**أَحْمد بْن يَحْيىٰ بْن مُحمَّد بْن شُبَير النَّجْمي**»:

❑ ولادته ونشأته:

وُلِدَ الشيخُ أحمدُ بن يَحْيَىٰ النجمي في ٢٢/ ١٠/ ١٣٤٦هـ بقَرْية النجامية، وكَانَ وحيدًا لأَبَويْنِ صَالِحَين لم يُرْزقَا سِوَاه؛ ولِذَلِكَ نَذَرا أَلَّا يُكلِّفانه شيئًا من أُمُور الدُّنيا، بَلْ نَذَرا به لله ﷻ في تَعْليمِهِ، وتَرْبيتِهِ تَرْبيةً سَلِيمةً صَحِيحةً.

□ نشأته العلمية:

مَنَّ اللهُ ﷻ على منطقة جازان بقُدُومِ شيخٍ كبيرٍ، وعالمٍ جليلٍ قادمٍ من بلاد نجد؛ إنَّه الشَّيخ العَلَّامة/ عبد الله بْن مُحمَّد القرعاوي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكَانَ قُدُومُه لمنطقة جازان عام ١٣٥٨هـ بأَمْرٍ من مُفْتي الدِّيار السَّعوديَّة آنَذَاك، سماحة الشَّيخ العَلَّامة/ مُحمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وقَدِ اسْتَقرَّ المقامُ بالشَّيخ القرعاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في صامطة داعيًا، ومُرْشدًا، ومُعلِّمًا، ثمَّ أَنْشَأ بَعْد ذَلِكَ المدرسةَ السَّلفيَّة بصامطة، وذَلِكَ في عام ١٣٥٩هـ.

وكان المُتَرجم له الشَّيخُ أحمدُ بن يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ يَتردَّد علىٰ الشَّيخ القرعاوي رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا بصُحْبة عَمَّيه (الشَّيخ حسين بن محمد النَّجمي، والشَّيخ حسن بن محمد النَّجمي رحمهما الله)، وكَانُوا يَأْخُذون عنه جميعًا العلمَ الشَّرعيَّ، وفي شهر صفر من عام ١٣٦٠هـ سَارَع الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مع أبناءِ قَريتِهِ النجامية بِالالْتِحَاقِ بالمَدْرسَة السَّلفيَّة بصامطة، وانْتَظمُوا في حَلْقة الشَّيخ عبد الله القرعاوي رَحِمَهُ اللَّهُ، وَاسْتَمعُوا لدُرُوسِهِ، وتَزوَّدُوا من علمِهِ.

فأَخَذ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ عن الشَّيخ القَرعاويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ الأُصُولَ الثَّلاثةَ، والتَّجْويدَ، والتَّفْسيرَ وأُصُولَه، وتَابَع معه في عُلُوم القرآنِ، والتَّاريخ الإسلاميِّ، واللُّغة العربيَّة، وغيرها.

كما قرأ الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الشيخ القرعاوي رَحِمَهُ اللَّهُ كتابَ «التَّوْحيد»، و«العقيدة الطَّحاويَّة» بشَرْح الشَّيخ القرعاوي، وقَرَأ عليه «بُلُوغ المرام» و«البَيْقونيَّة»، و«نُخْبة الفِكَر»، وشرحها «نزهة النَّظر»، و«الدُّرر البهيَّة» مع شَرْحها «الدَّراري المضيَّة» في الفقه.

□ أعماله:

عُيِّنَ من قِبَلِ شَيْخِهِ مُدرِّسًا في مدرسة النجامية التَّابعة لمَدَارِسِ الشَّيخ القرعاويِّ رَحِمَهُ اللَّهُ احْتِسَابًا، وذَلِكَ في ١/ ٢/ ١٣٦٧هـ.

وفي عام ١٣٧٢هـ، عُيِّنَ بأمرِ شَيْخه عبد الله القرعاوي إمامًا، وواعظًا، وخطيبًا في قَرْية (أبو سبيلة) بالحرث حتَّىٰ نهاية عام ١٣٧٣هـ.

وَفِي بِدَايَة عام ١٣٧٤هـ، تمَّ افتتاحُ المعهدِ العِلْميِّ في صامطة؛ فعُيِّنَ فِيهِ الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مُعلِّمًا، وكَانَ ذَلِكَ في ١/ ١/ ١٣٧٤هـ.

وبَقِيَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُدرِّسًا بالمَعْهدِ العلميِّ في صامطة حتَّىٰ ١١/ ٣/ ١٣٨٤هـ، حيث اسْتقَالَ من التَّدْريسِ علىٰ أملِ أَنْ يُواصِل تدريسه في الجَامِعَةِ الإِسْلاميَّة بالمدينَةِ النَّبويَّةِ، وبعدها عَمِل في سِلْك الدعوة إلىٰ الله ثلاث سنوات.

ولمَّا تَعِبَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ من التَّنقُّل بَيْن المُدُنِ والقُرَىٰ- رَغِبَ أن يَعُودَ إلىٰ حَقْل التَّعْليمِ في المَعَاهِدِ العِلْميَّة؛ فنُقِلَتْ خِدْماتُهُ إلىٰ المعهدِ العلميِّ مَرَّةً أُخْرىٰ بجازان، فعُيِّنَ فيه في ١/ ١/ ١٣٨٧هـ، ثمَّ انْتقَل بَعْد ذَلِكَ إِلَىٰ مَعْهدِ صامطة العلميِّ إلىٰ أَنْ أُحِيلَ للتَّقاعُدِ في ١/ ٧/ ١٤١٠هـ؛ لبُلُوغِه السِّنَّ النِّظاميَّة.

ثُمَّ عادَ رَحِمَهُ اللَّهُ واستقرَّ به المقامُ في مَسْقط رأسِهِ بقَرْيتِهِ النجاميَّة إمامًا وخطيبًا بجَامِعِها، ومُعلِّمًا ومُفتيًا فيها.

□ شيوخه الذين تلقى على أيديهم العلم، وهم بالترتيب الزمني:

١- الشَّيخ عبده بن عقيل النَّجمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- الشَّيخ يحيىٰ فقيه عبسي رَحِمَهُ اللَّهُ من أَهْلِ اليَمَن.

٣- الشَّيخ الإمام العَلَّامة الدَّاعية المُجدِّد في جَنُوب المملكة: عبد الله بن مُحمَّد القرعاوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤- الشَّيخ عثمان بن عثمان حملي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥- الشَّيخ إبراهيم بن مُحمَّد العمودي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- الشَّيخ علي بن الشَّيخ عثمان زياد الصُّومالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧- الشَّيخ حافظ بن أحمد حَكَمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٨- الشَّيخ الإمام العَلَّامة مُفْتي البلاد السَّعوديَّة السَّابق مُحمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٩- الشَّيخ الإمام العَلَّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

□ تلاميذه:

وقَدْ تَخرَّج عَلَى يَدَي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ آلافُ الطُّلاب والحَمْدُ لله، نذكر منهم:

١ـ العَلَّامة المُحدِّث الدُّكتور ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله.

٢ـ العَلَّامة الفقيه زيد بن محمد بن هادي المدخلي حفظه الله.

٣ ـ العَلَّامة الدُّكتور علي بن ناصر فقيهي حفظه الله.

٤- الشَّيخ الدُّكتور مُحمَّد بن هادي المَدْخلي حفظه الله.

وهُنَاك الكَثِيرُ والكَثِيرُ من طُلَّاب العِلْمِ الَّذين تَخرَّجوا علىٰ يدي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من شَتَّىٰ البُلْدان من المَمْلكةِ العَربيَّة السَّعوديَّة وَخَارِجها.

□ مؤلفاته:

لفضيلة الشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ مؤلفات كُثُر، نذكر منها:

١- إتمام المِنَّة بشرح أصول السُنَّة للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- فتح الربِّ الغَني بتوضيح شرح السُّنَّة للمُزني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣- فتح الرَّحيم الودود في التعليق علىٰ كتاب السُّنَّة من سُنن الإمام أبي داود رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤- إرشاد السَّاري إلىٰ شرح السُّنَّة للإمام البربهاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥- بُلوغ الأَمَاني بشرح عقيدة ابن أبي زَيْد القَيْرواني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- الفوائد الجِيَاد مِن لمعة الاعتقاد.

٧- التعليقات الأثرية علىٰ العقيدة الواسطية وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

٨- التعليقات البهية علىٰ الرَّسائل العقدية.

٩- الشرح المُوجز المُمهَّد لتوحيد الخالق المُمجَّد الذي ألَّفه شيخ الإسلام مُحمَّد رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٠- الأمالي النَّجمية علىٰ مسائل الجاهلية.

١١- فتح الربِّ الغفور ذي الرَّحمة في شرح الواجبات المُتحتمات المَعْرِفة علىٰ كل مُسلمٍ ومُسلمة.

١٢- الفوائد المنثورة بالتعليق علىٰ أعلام السُّنَّة المَنْشورة للحَكَمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٣- أوضح الإشارة في الردِّ علىٰ مَنْ أباح المَمنوع من الزيارة.

١٤- تنزيه الشريعة عن إباحة الأغاني الخليعة.

١٥- رسالة الإرشاد إلىٰ بيان الحقِّ في حكم الجهاد.

١٦- المَوْرِدِ العَذْب الزُّلال فيما انْتُقِد علىٰ بعض المناهج الدَّعوية من العقائد والأعمال.

١٧- ردُّ الجواب علىٰ مَنْ طلب مِنِّي عدم طبع الكتاب.

١٨- فتح الربِّ الودود في الفتاوىٰ والرسائل والردود (٤ مجلدات).

١٩- الفتاوىٰ الجَليَّة عن المناهج الدَّعوية (مجلدان).

□ صفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:

تميَّز شيخُنا أحمد بن يحيى النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ بصفات كثيرة جليلة، نذكر منها:

۞ أوَّلاً: حُسْنُ تَعَامل الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مع طُلابه، وتشجيعه لهم:

كان شَيْخُنا أحمدُ النَّجْمي رَحِمَهُ اللَّهُ رُبَّما يَسأل سؤالًا؛ فيقول لأحدِ طُلَّابه: «أَخْبِر السَّائل بالجواب»- إذا عَلِمَ أنَّ الطَّالبَ يُتْقِنُ الجوابَ.

وقال الشَّيخُ مُحمَّد بن مُحمَّد صغير عكُّور:

«سألني سائلٌ سؤالًا؛ فقلتُ له: أذهبُ أسألُ الشَّيخَ أحمدَ النَّجميَّ، ثمَّ أُبْلِغك الجوابَ! فلمَّا ذهبتُ إلىٰ الشَّيخ، وقلتُ له: سألني سائلٌ سؤالًا؛ فقلت له: أسألُكَ، ثمَّ أُعْطِيه الجوابَ. فقال لي الشَّيخُ: لماذا ما أفتيتَهُ؟ فقلتُ: يا شيخُ، كيف أُفْتِي وأَنْتَ هنا (أو كلامًا نحوه)، فقال الشَّيخُ: إلىٰ مَتَىٰ تَبقون عالَةً علىٰ النَّاس؟!».

وقال الشيخ عبد الله بن محمد النجمي:

كان الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ رُبَّما يَأتي المُسْتفتِي؛ فيَسأل شيخنَا عن مسألةٍ؛ فيسألُ شَيْخُنا بعضَ الطُّلَّابِ، فيقول لهم: «ما رأيُكم في هذه المسألة؟» حتَّىٰ إنَّه في مرة من المَرَّاتِ قلتُ له: يا شيخَنا، الفَتْوىٰ لكم! فقال شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِن باب المُذَاكرة!».

رُبَّما يُفتي شَيْخُنا في مسألةٍ من المسائل، فيَعْرِض عليه بعضُ الطَّلَبة وِجْهة رأيه في المسألة بأُسْلُوبٍ مُؤدَّبٍ، مُؤيِّدًا ذلك بالأدلَّة؛ فيُغيِّر شَيْخُنا فَتْواه في المسألة.

ممَّا يُلَاحظ أنَّ شَيْخنا رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا قَدَّمَ لرسالةٍ أو بحثٍ لأحدِ طُلَّابه، شَجَّعَه بما يكون حافزًا له علىٰ مُوَاصلةِ الجدِّ والبحثِ.

أَلْقَىٰ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ محاضرةً، وحَصَل وَهْمٌ في بعضِ المسائلِ في المُحَاضرةِ، فأَمَر شَيْخُنا بالشَّريط الَّذي سُجِّلَتْ فيه المحاضرةُ، وصَوَّبَ ما حَصَل من وَهْمٍ فيها، وأعادَ تَسْجِيلَها؛ فرحمةُ الله عليه رحمة الأبرار.

نَقَل شَيْخُنا في بعضِ كُتُبِهِ فوائدَ من بعضِ طُلَّابِهِ، وهذا في غاية التَّواضُعِ.

وقَالَ الشَّيخُ زيد بن مُحمَّد المدخلي -حفظه الله- كلمةً مختصرةً في شَيْخنا رَحِمَهُ اللهُ، ولكنَّها عظيمةٌ في مَدْلولها:

«الشَّيخ أحمد مُرَبٍّ، وحقًّا إنَّه لمُرَبٍّ بأخلاقِهِ، مُرَبٍّ في تَعامُلِهِ مع طُلَّابِهِ وزُمَلائِهِ، ومُجْتمعِهِ».

❁ ثانيًا: عبادة الشَّيخ وزُهده:

عُرِفَ شَيْخُنا العَلَّامةُ رَحِمَهُ اللهُ واشْتُهِرَ بحِرْصِهِ علىٰ العبادة، ومنها قيامُ اللَّيل، فلا يتركُهُ في حِلِّه وترحالِهِ، وفي سفرِهِ وإقامتِهِ؛ فكان لا يدعُ قيامَ اللَّيل عليه رحمةُ الله، وكان رَحِمَهُ اللهُ لا ينام في اللَّيل إلَّا أربع ساعاتٍ فقط؛ كما أخبرَ بذلك بعضُ طُلَّابِهِ.

❁ ثالثًا: تواضع الشيخ رَحِمَهُ اللهُ:

قال الشيخ عبد الله بن محمد النجمي:

لقَدْ قَدَّمَ شَيْخُنا أحمد بن يحيىٰ النَّجْمي أَرْوَعَ الأَمْثلة في التَّواضُع، فَمَا رَأَتْ عَيْناي مِثْلَه في التَّواضُع.

وإِلَيْك بَعْض مَواقِفِ شَيْخنا الَّتي تدلُّ على تَواضُعِه رَحِمَهُ اللهُ:

كَثِيرًا ما كُنَّا نَرَىٰ شَيْخنا يَقُومُ مِنْ مَجْلِسِهِ ليَغْسلَ الأَكْواسَ لضُيُوفِهِ، أو يُقَرِّبَ ثلاجاتِ الشَّاي والقَهْوة إِلَيْهم.

حَصَل لي قَبْل سَنَواتٍ كسرٌ في التَّرْقُوةِ، فَما إِنْ وَصَلْتُ من المستشفىٰ، ودخلتُ غُرْفةَ النَّوم في بَيْتي إلَّا وشَيْخنا أَحْمد النَّجمي دَاخلٌ عليَّ، وقَدْ وَصَله الخبرُ، وجَاءَ مُسْرعًا؛ ليَطْمئنَّ عليَّ رَحِمَهُ اللهُ.

تَتَبَّعتُ مَنْ زَارَنِي في ذَلِك المرَضِ؛ فرأيتُ أكثرَ مَنْ زَارَنِي هُو شَيْخنا أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

كُنْتُ إذَا غِبْتُ عن شَيْخنا النَّجميِّ يومًا لظُرُوفٍ أو لشُغْلٍ مَا؛ اتَّصلَ بِي مباشرةً، وسَألَ عنِّي، وقال: «مَا رَأيْنَاكَ بالأَمْسِ، عَسَىٰ ما خلاف!»، ثمَّ أُبْدِي له سببَ غِيَابِي.

كَانَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ في سنةٍ قديمةٍ يَذْهبُ بسَيَّارتِهِ إلىٰ قريةٍ مجاورةٍ؛ ليَأْخُذَ أَحَدَ طَلَبة العِلْم الفُقَراء المُغْتربين ليأكلَ معه طعامَ الإفْطارِ شِبْهَ يوميٍّ.

أُثْنِيَ عَلَىٰ شَيْخنا أحمد النَّجمي رَحِمَهُ اللَّهُ في إِحْدَىٰ المُحَاضراتِ ثناءً كبيرًا، فعَقَّبَ شَيْخُنا علىٰ ذَلِكَ الثَّناء، وَانْتقَدَه، وقالَ: «إنَّما أنَا طُوَيْلبُ عِلْمٍ صغيرٌ».اهـ.

❁ رابعًا: حرص الشيخ على العلم رَحِمَهُ اللَّهُ:

كان الشيخُ أحمد بن يحيىٰ النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ عجيبًا في حرصه علىٰ العلم، تعلُّمًا وتعليمًا، وإليكَ بعضَ المواقف التي ذكرها الشيخ عبد الله بن محمد النجمي تؤيد ذلك:

قالَ الشَّيخُ زيد بن مُحمَّد المدخلي حفظه الله تعالى: «ما عرفتُ الشَّيخَ أحمدَ رَحِمَهُ اللَّهُ إلَّا وَهُو يُعلِّم، ويَنْشر، ويَدْعو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».اهـ.

قَبْلَ سنواتٍ حَصَل حادثُ سَيَّارةٍ لشَيْخنا رَحِمَهُ اللَّهُ، فتَعِبَ علىٰ إِثْرِهِ، فكَتَب أبناءُ الشَّيخ لوحةً علىٰ بابِ بَيْتِهِ يُحدِّد فيها مَوَاعيدُ الاسْتِفْتاءِ، والزِّيارة؛

حِرْصًا مِنْهم علىٰ راحةِ الشَّيخ، فطَلَب مِنْهم إِبْعَادَ اللَّوحةِ، وإِزَالَتها، وبالفِعْل حَصَل ذَلِكَ؛ فلله دَرُّه من شيخٍ نَذَر حَياتَه لله عَزَّوَجَلَّ!

ممَّا يتميز به شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ: صَبْرُهُ علىٰ التَّدْريس، فقَلَّ أن تجدَ له نظيرًا في هَذَا البَابِ، فرُبَّما كانَ للشَّيخ في اليومِ الواحدِ سبعةُ دُروس؛ إضافة إلىٰ المُستفتين الذين يأتون للشيخ في اليوم الواحد مِنْ دَاخِل المِنْطقَةِ وخَارِجها، والزُّوَّار الَّذين يَأْتُونَ لزيارة الشَّيخ، وكأنَّه لا يَرْتاحُ، ولَا يَطمئنُّ إلَّا مع الدُّرُوس (التَّدْريس)، بَلْ يَكُونُ علىٰ فِرَاشِ المَرَضِ في البَيْتِ أو في المُسْتَشفىٰ؛ وَهُو يُقْرأ عليه، ويُجِيبُ السَّائلين؛ بَلْ ذَكَر لنا الشَّيخُ الدُّكتور/ مُحمَّد بن هادي المدخلي -حفظه الله- وكانَ مِمَّنْ يحبُّه شَيْخنا، ويُجلُّه «أنَّه قَرأَ علىٰ الشَّيخ، والجبسُ عَلَىٰ قَدَمِ الشَّيخ، وأثرُ الدَّمِ باقٍ في قَدمِهِ من حادثِ سَيَّارةٍ».اهـ.

❁ خامسًا: كرم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وبذله، وعطاؤه:

قال الشيخ عبد الله بن محمد النجمي:

أمَّا عَنْ كَرَم شَيْخنا، فَسَائِلْ عَنْه كلَّ مَنْ عَرَف شَيْخنا، أَوْ زَارَه، فستَجِد عَجَبًا:

كَانَ شَيْخُنا إِذَا زَارَه أحدٌ مِنْ مُحبِّيه من طَلَبة العِلْمِ أو المَشَائِخ لا يَتردَّد في دَعْوتِهِ للإفطارِ، أو الغداءِ، أو العشاءِ، وكَانَ كثيرًا ما يَتَّصلُ بي، ويَطْلبُ منِّي أَنْ أتَّصل بالمندي؛ لِكَيْ يعدُّوا ذبيحةً، أو نصفَ ذبيحةٍ علىٰ حِسَابِ شَيْخنا؛ بل رُبَّما يَكُونُ شَيْخُنا صائمًا، ومَعَ ذَلِكَ يُكْرِمُ ضُيُوفَه وطُلَّابَه.

مِمَّا عَرفتُهُ من شَيْخنا مِنْ خِلَالِ مُلَازمتِي له: كُنَّا نَذْهَبُ إِلَىٰ أَحَدِ المسارحة يَوْم السَّبت لدرسٍ في «صحيح مسلم»، وعِنْد العَوْدة يَطْلُبُ الشَّيخُ

منِّي صرفًا لخمس مئةِ ريالٍ، ثمَّ يَصْرفها دائمًا لطَلَبَة العِلْمِ المُحْتاجِين، ويَتعَاهد بها الفُقَراءَ والمَسَاكِينَ.

۞ سادسًا: تعفف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الشيخ عبد الله بن محمد النجمي:

كَانَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ صاحبَ تَعفُّفٍ عجيبٍ، وأَذْكُر أنَّه في مَرَّةٍ مِنَ المَرَّاتِ مَرَرْتُ أنا وإيَّاه بمَخْبزٍ، وقال شَيْخُنا: أُرِيدُ بريالٍ خبزًا، فذَهَب، وأخذتُهُ من المَخْبزِ، وقَالَ لي عاملُ المَخْبزِ: لَا تَأْخُذْ من الشَّيخِ الرِّيالَ، وقُلْ لَهُ: الأمرُ سهلٌ، فقَالَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ: قُلْ لهم: إمَّا أن يَأْخُذُوا الرِّيالَ، وإمَّا أَنْ أُعِيدَ الخبزَ، فأَخَذُوا الرِّيالَ.

بَعْدَ عِيدِ فِطْر عام ١٤٢٨هـ، جاءَ أحدُ التجَّار لِزِيَارةِ شَيْخِنا رَحِمَهُ اللَّهُ، ثمَّ لمَّا أرادَ الخُرُوجَ من بَيْتِ شَيْخِنا، طَلَب التَّاجرُ منِّي أَنْ أَخرجَ مَعَه خارجَ المَجْلسِ، فخرجتُ مَعَه، وقالَ لِي: «عِنْدِي خمسةُ آلافِ ريالٍ أُرِيدُكَ أَنْ تُعْطي الشَّيخَ مُسَاعدةً منِّي؛ لأنَّ الشَّيخَ يأتي إليه أُنَاسٌ كثيرٌ!»، فقلتُ له: أنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَسْتلمَها مِنْك، ولَكِنْ أَعْرض الأمرَ علَىٰ شَيْخِنا فكَلَّمتُهُ، فقالَ: «إِنْ كَانَ يُرِيدُها لي فأنا -والحَمْدُ لله- بخيرٍ»، ولَمْ يَقْبَلها رَحِمَهُ اللَّهُ.

۞ سابعًا: حرص الشيخ على اتِّباع السُّنَّة:

قال الشيخ عبد الله بن محمد النجمي:

كَانَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ في غَايَة الحِرْصِ عَلَىٰ اتِّباعِ السُّنَّة؛ ففِي يَوْم مِنَ الأَيَّام، وَفِي صَلَاةِ الظُّهرِ، دَخَل شَيْخُنا الجامعَ القديمَ، وكَانَ لابسًا حِذَاءَه، وتَقدَّمَ المحرابَ؛ وَهُوَ لابسٌ الحِذَاءَ، فقالَ بعضُ النَّاسِ: يَا شيخ، نَسِيتَ الحذاءَ!

فقَالَ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ: « عَمْدًا فعلتُ هَذَا»، فرحمةُ اللهِ عَلَىٰ شَيْخِنا رحمةَ الأَبْرارِ، ما أشدَّ حِرْصَه علىٰ اتِّباعِ السُّنَّة.

كان شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ حريصًا عَلَىٰ تَشْييعِ الجنَائِزِ، وعَلَىٰ التَّعزية، ووالله، لقَدْ رأيتُ مِنْ شَيْخِنا مِنْ ذَلِكَ عجبًا رَحِمَهُ اللَّهُ، ولَقَدْ سافرتُ مَعَ شَيْخِنا إلىٰ مَكَّة؛ لتَشْييعِ جِنَازةِ الشَّيخ الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، وتَعْزية أَهْلِهِ، وكَانَ شَيْخنا رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا ذَهَب إلىٰ التَّعزيةِ لا يُطِيلُ الجُلُوسَ.

قَالَ الشَّيخُ الدُّكتور مُحمَّد بن هادي حفظه الله:

«كُنْتُ آتِي إِلَىٰ شَيْخِنا أحمد النجمي في الضُّحىٰ؛ فكنتُ دائمًا أَدْخُلُ عليه في بيتِهِ القَدِيمِ في صامطة في وَقْتِ الضُّحىٰ، وهُوَ يُصلِّي الضُّحَىٰ».

مَا عرفتُ شَيْخَنا إلَّا وَهُو يخضبُ لِحْيتَه بالحنَّاء؛ عملًا بالسُّنَّة، وما رأيتُ لحيتَه بيضاءَ إلَّا بَعْد أن دخلَ المُسْتَشفىٰ، ودَخَل في غَيْبوبةٍ.

كثيرًا ما كَانَ يَقْرأ شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ في فَجْر الجُمُعةِ بـ(السَّجْدة والإنسانِ).

۞ ثامنًا: دفاع الشيخ المربر عن السُّنَّة، ووقوفه الصامد في وجه أهل البدع:

قال الشيخ عبد الله بن محمد النجمي:

يَتَّضحُ ذلك جليًّا من خِلَالِ كُتُبِ شَيْخنا، ورُدُودِه، ومُحاضَراتِهِ، ودُرُوسِهِ؛ فكلُّها بيانٌ للعَقِيدةِ الصَّحيحة، وتحذيرٌ ممَّا يُضادُّها، وبيانٌ للسُّنَّة، وتحذيرٌ مِنَ البِدَعِ وأَهْلِها بشَتَّىٰ طَوَائِفهم، ومَنَاهِجهم، فهذِهِ كُتُبُهُ شاهدةٌ، ومُحاضَراتُهُ ناطقةٌ، فقَدْ عُرِفَ شَيْخُنا بشَجَاعتِهِ في بيانِ الحقِّ؛ فكانَ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يخافُ في اللهِ لَوْمةَ لائمٍ، ويُبيِّن الحقَّ، ويردُّ علىٰ أَهْلِ الباطلِ بَاطِلَهم؛ رَضِيَ مَنْ رَضِيَ، وغَضِبَ مَنْ غَضِبَ.

□ **وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ:**

لقَدْ تُوفِّي رَحِمَهُ اللَّهُ بمَدِينَةِ المَلِك فَهْد الطِّبيَّة بالرِّياض في يَوْم الأَرْبعاء ٢٠/ ٧/ ١٤٢٩هـ في تَمامِ السَّاعة العاشرةِ والنِّصْفِ صباحًا تقريبًا، وذلك بَعْد مُعانَاةٍ طويلةٍ مَعَ المَرَض، وقَدْ أُجْرِيَتْ له عَمليَّاتٌ جراحيَّةٌ في رأسِهِ وبطنِهِ، وَاسْتمرَّتْ مُعاناتُهُ ثمانيةَ أشهرٍ، جَعَل اللهُ ذلك كَفَّارةً لسَيِّئاتِهِ، ورِفْعةً لدَرجاتِهِ في جَنَّاتِ الفِرْدوسِ نُزُلًا.

نُقِلَ جُثْمانُ وَالِدِنا رَحِمَهُ اللَّهُ بطَائرةٍ خاصَّةٍ إلىٰ منطقة جازان بأَمْرٍ من نائب خَادِمِ الحَرَمَين الشَّريفين الأمير/ سلطان بن عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ اللَّهُ، وصُلِّي عليه، ووُوري جُثْمانه عصرَ يوم الخميس الموافق ٢١/ ٧/ ١٤٢٩هـ في مَسْقط رأسِهِ بقرية النجاميَّة.

وقَدْ شَيَّعَ جنازتَه خَلْقٌ كثيرٌ من أبنائِهِ، وأقربائِهِ، ومعارِفِهِ، وطُلَّابِهِ؛ الَّذين جَاؤُوا مِنْ كلِّ مكانٍ؛ من دَاخِلِ بِلَادِنا السَّعوديَّة وَخَارِجها، وكَانَ مَشْهدُ التَّشْييع مَهيبًا؛ حَضَره عددٌ كبيرٌ من المُشيِّعين؛ لم تَشْهد المنطقةُ مثلَه من قَبْل، فكانَ خبرُ وفاتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فاجعةً، وأَسىٰ، وحُزْنًا في نُفُوسِ جميعِ مُحبِّيهِ؛ مَنْ عَرَفه أو نَهَل مِنْ عِلْمِهِ الصَّافي.

نَسْأل اللهَ أن يَتغمَّدَه بواسعِ رَحْمتِهِ، وأَنْ يُسْكنَه فسيحَ جَنَّاتِهِ، اللَّهمَّ آمين.

وقَدْ رَثَاه مجموعةٌ من الشُّعراء والأُدبَاء شعرًا ونثرًا؛ من الدَّاخل أو الخَارِجِ.

□ الخاتمة:

وفي ختام هذه الترجمة أودُّ أن أُشير إلىٰ أنها شيءٌ يسيرٌ ممَّا دَوَّنَه بعضُ أبناءِ الشَّيخ أحمد بن يحيىٰ النَّجمي رَحِمَهُ اللَّهُ وتلاميذه، وَمُحبِّيه من طُلَّاب العِلْمِ من داخلِ المملكة العربيَّة السَّعوديَّة وخارجها، وفاءً بحقِّ شيخنا أحمد النَّجمي رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ ما قَدَّمه للإسلام والمسلمين.

وقد أردنا بهذه الترجمة المُختصرة التَّعْريفَ بهذا العَالِم الجليلِ لمَنْ لا يعرفُهُ من خلال فقرات هذه الترجمة، نَفَع اللهُ بها الجميعَ دنيا وأخرىٰ.

وجَزَىٰ اللهُ خيرًا كلَّ مَنْ شَارَك في جَمْعِ وإعدادِ فَقَراتِ هذه السِّيرة المختصرةِ، وجَعَلها في مَوَازينِ أَعْمالِهم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وسلم

التعليقات الأثرية
على
العقيدة الواسطية

(لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية)

مقدمة

الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ؛ لِيُظهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا، وَأَشهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِقرَارًا بِهِ وَتَوحِيدًا، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحبِهِ، وَسَلَّمَ تَسلِيمًا مَزِيدًا.

أَمَّا بَعدُ:

فَهَذَا اعتِقَادُ الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ المَنصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ؛ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالبَعثِ بَعدَ المَوتِ، وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ.

التعليق

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام علىٰ نَبيِّه الكريم نَبيِّنا مُحمَّدٍ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين:

فهذه العقيدة كانت إجابةً علىٰ سؤالٍ وَرَدَ علىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

من مدينة (واسط) وهذا سببُ تَسْمِيتها بـ «العقيدة الواسطيَّة» حسب ما علمنا، كَتَبَ هذه العقيدة ما بين صلاة العصر والمغرب، ولذلك فإنَّ بعضَ المُدرِّسين يقول للطُّلَّاب حينما كانت هذه العقيدة مُقرَّرةً عليهم في السَّنة كاملةً، وبعضهم يرسب فيها؛ فيقول لهم بعض المُدرِّسين: هذه العقيدة كَتَبها مُؤلِّفها فيما بين العصر والمغرب، وأنتم تجلسون فيها سنةً كاملةً، والبعض منكم لا ينجح!

قوله: «فهذا اعتقاد الفرقة النَّاجية المنصورة إلىٰ قيام السَّاعة؛ أهلِ السُّنَّة والجماعة»:

أقول: هذا مأخوذٌ من قول النَّبيِّ ﷺ: «**لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي قائمةً بأمر الله، لا يَضرُّهم مَنْ خَذَلهم أو خالفهم، حتَّىٰ يأتيَ أمرُ الله وهم ظاهرون علىٰ النَّاس**»(١).

قوله: «وهو الإيمان بالله»:

أقول: إنَّ الإيمان بالله، منه الإيمان بوجوده أوَّلًا، وأنَّه ﷻ هو الخالق لهذا الكون، والمُتصرِّف فيه، والأدلَّةُ علىٰ ذلك كثيرةٌ؛ فقَدْ عَرَض القرآن منها أدلَّةً كثيرةً بأساليبَ مُتعدِّدةٍ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية:١٦-١٩].

وكقوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه، واللفظ له.

وكقوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

وكقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١].

وثانيًا: الإيمان بِوَحْدانيَّته في الأُلُوهيَّة، وأنَّه هو المُتصرِّف في هذا الكون، وأنَّ العبادَ كلَّهم عاجزون عن أن يجلبوا لأنفسهم نفعًا، أو أن يَدْفَعوا عنها ضرًّا، كما يقول ﷻ بعد أن ذكر عظمته وقُوَّته وقدرته على تصريف هذا الكون: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٣، ١٤].

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

وثالثًا: الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسُّنَّة إيمانًا بها، وبما دلَّت عليه في اللُّغة العربيَّة من غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تحريفٍ، وهذا كلامٌ مجملٌ، وإلَّا فشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ سيتكلَّم عن هذا الموضوع كلامًا وافيًا فيما بعد[1].

---

(١) كما سيأتي في هذا الكتاب.

قوله: «وملائكته»؛ أي: الإيمان بأجناسهم، فمِنْهم حَمَلة العرش، ومنهم جبريل المُوكَّل بالوحي، وميكائيل المُوكَّل بالأرزاق والنَّبات، وإسرافيل المُوكَّل بالنَّفْخ في الصُّور، ومَلَك الموت المُوكَّل بقبض الأرواح، ومنهم خَزَنة النَّار ... إلىٰ غير ذلك من أنواع الملائكة.

وأعدادهم لا يُحْصِيها إلَّا الله الَّذي خَلَقهم، وقَدْ جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليلةَ أُسْري به قال: «**ثمَّ رفع لي البيت المعمور، فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور يدخله كلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَكٍ، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم**»(١).

قوله: «وكُتُبه»: الكتب: هي الكتب المُنزَّلة علىٰ الأنبياء؛ كَصُحُف إبراهيم، وتوراة موسىٰ، وزَبُور داود، وإنجيل عيسىٰ، عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ والقرآن هو آخرُ كتابٍ أنزل من عند الله، وهو المهيمن عليها، فنؤمن بالكتب الأولىٰ إجمالًا، ونؤمن بكتابنا القرآن إيمانًا مفصَّلًا بكلِّ ما جاء فيه.

قوله: «وَرُسُله»: الرُّسل عَدَدهُمْ كثيرٌ، يُقَال: إنَّهم ثلاث مئة وبضعة عشر، وأشرفهم أُولو العَزْم، وهم: نوحٌ، وإبراهيم الخليل، وموسىٰ الكليم، وعيسىٰ، ومُحمَّدٌ، صلوات الله وسلامه عليهم؛ فنؤمن بالرُّسل المُتقدِّمين إجمالًا، ونؤمن برسولنا مُحمَّدٍ ﷺ إيمانًا مفصَّلًا في كلِّ ما جاء به.

قوله: «والبعث بعد الموت»؛ أي: نؤمن بيوم القيامة، وبأنَّ الله ﷻ سَيُعِيدُ هذه الأجساد، ويجزي كلًّا منهم بما عمل.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، واللفظ له.

قوله: «والإيمان بالقَدَر خيرِهِ وشَرِّه»؛ أي: بأنَّ كلَّ المقادير من الله ﷻ، الخير من الله فضلًا، والشَّرُّ منه عدلًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠].

الإيمان بصفات الله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ، وَلَا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ، وَلَا تَمثِيلٍ.

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، فَلَا يَنفُونَ عَنهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلحِدُونَ فِي أَسمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ، وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ.

التعليق

قوله: «ومن الإيمان بالله: الإيمانُ بما وصف به نفسه في كتابه العزيز، وبما وَصَفهُ به رسولُهُ مُحمَّدٌ ﷺ؛ من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ»:

هذا قَدْ تقدَّم الكلام عليه في قولنا:

وثالثًا: الإيمان بأسمائه وصفاته الواردة في الكتاب والسُّنَّة إيمانًا بها، وبما دلَّت عليه في اللُّغة العربيَّة من غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تأويلٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تحريفٍ.

التَّحريف: هو تغيير الشَّيء عمَّا يُرَاد به، مأخوذٌ من الانحراف، وهو الالتفاف، **وهوينقسم إلى قسمين:**

١- تحريفُ اللَّفظ.

٢- تحريفُ المعنىٰ.

فمثال تَحْريف اللَّفظ أَنْ يُقَال بدل «استوىٰ»: «استولىٰ».

والتَّأويل: هو تأويلها باللَّازم، وهو التحريف للمعنىٰ، وهو كثيرٌ عند الأشاعرة؛ كتأويلهم المَحبَّة بالإكرام، والبغض بإرادة الانتقام، وما أشبه ذلك.

والتَّعطيل: معناه نفي صفات الكمال عن الله ﷻ ادِّعاءً للمشابهة لها.

والتَّكْييف: هو أن تذكر الكيفيَّة في صفة الله ﷻ، علمًا بأنَّ السَّلف - رحمهم الله- يؤمنون بالصِّفة علىٰ معناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة، ولكنَّهم يُفوِّضون كَيْفيَّتها إلىٰ الله سبحانه، فمثلًا صفة الاستواء: «لمَّا سئل مالك بن أنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قولِهِ تَعَالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، فكيف استوىٰ؟

فقال مالكٌ: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ»؛ أي: أنَّ الاستواء في اللُّغة العربيَّة معناه معلومٌ، وهو العُلوُّ والاستقرار، لكن الكيفيَّة مجهولةٌ، لا يعلمها العباد، بل يَعْتَبرون السُّؤال عنها بدعةً، ولهذا قال مالكٌ: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ، وما أراك إلَّا رجل سوءٍ، أخرجوه، فأُمر به فأُخْرِج»[1].

فالسَّلف الصَّالح -رحمهم الله- يؤمنون بالصِّفة على ما يقتضيه المعنى في اللُّغة العربيَّة، ويُفوِّضون الكيفيَّة، فالكيفيَّة لا بدَّ أنَّها واقعةٌ، ولكن لا يعلمها إلَّا الله، وفي هذا المعنى ألَّف أحدُ المشايخ رسالةً، وهو الشَّيخ رضا نعسان، صِهْر الشَّيخ الألباني على ابنته، وكانت هذه رسالة ماجستير له في جامعة أمِّ القرى، وقدَّم لها الشَّيْخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

كذلك يُنزِّهون الله عن التَّمثيل؛ لأنَّ التَّمثيل مُقْتضٍ للتَّشبيه، فمَنْ قال: استوى مثل استوائي؛ فهو مُشبِّهٌ، ومعلومٌ أنَّ الأشاعرة يُؤولون الصِّفات باللَّازم منها، فمثلًا يقولون في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، أي: يكرمهم، علمًا بأنَّ المحبَّة صفةٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

والإكرام هو: فعل الله عَزَّوَجَلَّ بعباده المؤمنين؛ إذ إنَّه يكرمهم بالثَّواب والجنَّة، فيكون الإكرام مِنْ لازم المحبَّة، ففسَّروا المحبَّة به، فهذا تفسيرٌ باطلٌ، والَّذي حَمَلهم على هذا التَّأويل، هو الَّذي حَمَل الجهميَّة والمعتزلة على التَّعطيل؛ حيث زعموا أنَّهم يُنزِّهون الله عَزَّوَجَلَّ عن مشابهة المخلوقين،

(١) «مجموع الفتاوى»، لابن تيمية، (٤/ ٤)، و«الاعتصام»، للشاطبي، (١/ ٢٢٩).

والحقيقة: أنَّ الاتِّفاق في اسم الصِّفة لا يقتضي الاتِّفاق في حقيقتها.

فمثلاً: إذا قلنا بأنَّ الله حيٌّ، والمخلوق يُسمَّىٰ حيًّا أيضًا، فهل الاتِّفاق في اسم «الحيّ» مُقْتضٍ للاتِّفاق في حقيقة الحياة بين الخالق والمخلوق؟

الجواب: لا، فحياة الله ﷻ غير حياة المخلوقين؛ إذ إنَّ حياة الله ﷻ لم يسبقها عدمٌ، ولم يَتْبعها فناءٌ، ولا تحتاج إلىٰ مَنْ يقوم بها، أي: لا تحتاج إلىٰ مُؤثِّرٍ يُؤثِّر فيها، أمَّا حياة المخلوق فقد سُبِقَتْ بالعدم، وأُتْبِعَتْ بالفناء، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، وهي في ذلك بحاجةٍ إلىٰ مُوجِدها، وبحاجةٍ إلىٰ حِفْظ وُجُودها، فالله أَوْجَدَ الخَلْق، فهو الَّذي يحفظ وُجُودَهم بما شاء.

فَتَبيَّن من هنا أنَّ اسم «الحيّ» في قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، واسم «الحيّ» في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، غير اسم «الحيّ» الَّذي يُوصَف به المخلوق؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم:١٩].

قوله: «بل يؤمنون بأنَّ الله سبحانه ليس كمثله شيءٌ، وهو السَّميع البصير، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه»:

في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، جَمَع اللهُ فيها بين النَّفي والإثبات، فالنَّفي في قوله: ﴿لَيْسَ

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، والإثبات في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فنفىٰ المماثلة بينه وبين خَلْقه نفيًا عامًّا في كلِّ شيءٍ، فلا مُمَاثلةَ، ولا مُشَابهةَ بينه تعالىٰ وبين خَلْقه.

فمَنْ زعم أنَّ مَنْ أثبت شيئًا من الصِّفات فقد شَبَّه الله بخَلْقه، فزَعْمُهُ هذا باطلٌ، ومَنْ زعم أنَّ أهل السُّنَّة والجماعة مُشبِّهةٌ، فزعمه أيضًا باطلٌ؛ لأنَّ أهل السُّنَّة إذا أثبتوا صفات الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّما يُثْبِتونها علىٰ الوجه اللَّائق بجلاله تعالىٰ، مُتصوِّرين هذه الآية الَّتي جمعت بين النَّفي والإثبات، فنفت المماثلة بينه وبين خَلْقه، فكلُّ ما يدور في الخيال، ويَتصوَّره العقل فالله بخلافه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وأثبت له السَّمع والبصر في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فدلَّ هذا علىٰ وجوب النَّفي والإثبات في عقيدة المُكلَّفين، فينفون عن الله النَّقائص، وتشبيهُهُ بخَلْقه منقصةٌ في حقِّه، وذلك لا يجوز، وإثبات السَّمع والبصر في حقِّه إثبات كَمَالاتٍ.

قوله: «ولا يُلْحدون في أسماء الله، وآياته، ولا يُكيِّفون، ولا يُمثِّلون صفاته بصفات خَلْقه»:

الإلحاد هو: الميل، ولهذا سُمِّي اللَّحد لَحْدًا؛ لأنَّه يُمَال به عن سَمْت القبر، فمَنْ حرَّف كلام الله، وحاول تحريف صفاته أو شَبَّهها بصفاتِ خَلْقه؛ فقد أَلْحَد في أسماء الله وصفاته.

قوله: «لأنَّه سبحانه لا سَمِيَّ له، ولا كفء له، ولا ندَّ له»:

هذه الثَّلاث مَنفيَّةٌ عن الله ﷻ:

١- أنَّ الله لا سَمِيَّ له؛ قال الله تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، فهذا استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنىٰ أنَّه لا يُعلَم له سَمِيٌّ.

٢- أنَّ الله لا كُفء له؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، فنفىٰ المكافأة بينه وبين خَلْقه مهما كانوا.

٣- أنَّ اللهَ لا ندَّ له، والنِّدُّ: هو المساوي، أو المُشَابه، فالله ﷻ لا ندَّ له، لا في ذاته، ولا في صفاته، وإذا كان الإيمان بالله إيمانًا بالغيب، فإنَّ افتراضات العقول وقياسات الأذهان مَنفيَّةٌ عنه ﷻ؛ إذْ لا تتصوَّره العقول، ولا تقيسه الأذهان، فمَنْ أراد أن يستعمل شيئًا من ذلك في حقِّ الله تعالىٰ؛ فقد ضلَّ، فلا سبيل إلىٰ معرفة أسماء الله وصفاته إلَّا من طريق كتابه الَّذي أنزله، ومن طريق رسوله الَّذي أرسله، أمَّا غير ذلك فلا يمكن لأحدٍ أن يقول شيئًا في حقِّ الله ﷻ، ومَنْ فَعَل ذلك فقد ضلَّ.

الله أعلم بنفسه وبخلقه

وَلا يُقَاسُ بِخَلقِهِ ﷻ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ، وَأَصدَقُ قِيلًا، وَأَحسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ بِخِلَافِ الَّذين يَقُولُونَ عَلَيهِ مَا لا يَعلَمُونَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

التعليق

قوله: «فإنَّه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خَلْقه»:

لأنَّه لا يستطيع أحدٌ أن يعرف كُنْه ذاته ﷻ إلَّا ما أخبرنا به عن نفسه، فمَنْ يقول علىٰ الله في وَصْفه بصفاتٍ له لم يَقُلْها، لا هو ولا رسولُه؛ فإنَّه يُعتَبر قَدِ افْتَرَىٰ علىٰ الله، وأَوْبَق نفسه.

قوله: «وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا»؛ أي: أنَّ قِيلَه أصدق القِيل وأعدله، وحديثه أحسن الحديث وأعذبه؛ قال الله ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:١١٥].

وقد وَصَف الرَّسول ﷺ كلام ربِّه أنَّه صدقٌ لا كذبَ فيه، وعدلٌ لا جَوْرَ فيه، وقال ﷺ: «**مَنْ نزل منزلًا، فقال: أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خلق ثلاث مَرَّاتٍ لم يَضرَّه شيءٌ حتَّىٰ يرتحل من منزله ذلك**»(١).

وقوله: «ثمَّ رُسلُهُ صادقون مُصدَّقون بخلاف الَّذين يقولون عليه ما لا يعلمون»:

الرُّسُل صادقون بأنفسهم، مُصدَّقون، يعني أنَّ الله ﷻ يوحي إليهم من طريق أمينه جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فما أوحاه الله إليهم وثبت، فالواجب أَخْذه، علمًا بأنَّ أسماء الله ﷻ لا بدَّ أن تكون حسنىٰ؛ فما وُصِفَ الله به، لكنَّه عَرِيَ عن كونه مُتَّصفًا بالحسنىٰ، فإنَّه لا يُوصَف به جَلَّ وَعَلَا؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

وما لم يكن كذلك فلا يُؤخَذ منه اسمٌ لله ﷻ؛ فمثلًا قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:١٩]، فعبَّر عن نفسه بشيءٍ، لكن لا يُقَال: إنَّ «شيء» من أسمائه الحسنىٰ، ومثل قوله: «**لا شخص أغير من الله**»(٢)، فلا يُسمَّىٰ الله بشخصٍ؛ لأنَّ ذلك لا يكون فيه المدح الَّذي أمر الله ﷻ أن يُسمَّىٰ بما يشتمل علىٰ المدح.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥، ١٦]، وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقوله:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

فهذه الصِّفات لا يُؤخَذ منها اسمٌ؛ لأنَّها حينما أُطْلِقَتْ على الله، كان المقصود بها المقابلة، فلا يُقَال في حقِّ الله: كائد، ولا ماكر، ولا مخادع؛ لأنَّ تلك الصِّفات تكون صفاتِ نقصٍ إذا عريت عن كونها مقابلةً لمكرهم بِمَكْرِهِ، وكيدهم بكيده، وخداعهم بخداعه، وإنَّما يُجْعَل له اسمٌ أشعر بمدحٍ، وكمالٍ، وجلالٍ.

إذًا، فرُسُل الله عَزَّوَجَلَّ إنَّما يُثْبِتون له الأسماء المُتضمِّنة للكمال والحسن؛ امتثالًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

فاللهُ غالبٌ علىٰ أمره، وقاهرٌ لعباده، ومُتَّصفٌ بصفات الكمال جميعًا؛ ولهذا قال جلَّ من قائل: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]، فأخبر بأنَّ رُسُله يصفونه بالكمالات، وَحَمِدَ نفسه علىٰ ذلك بعد أن نَزَّهها بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ والتَّنزيه نفي النَّقْص والعيب، والحمدُ هو إثباتُ الكمالات لله تعالىٰ، ولهذا قيل: النَّفي المُجْمل، والإثبات المُفصَّل؛ قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذا نفيٌ مجملٌ، أمَّا الإثبات فهو مُفصَّلٌ، فقد أثبت لنفسه السَّمع، والبصر، واليدين، والوجه، والرِّجل، وهكذا في سائر الصِّفات.

الله تعالى جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات

فَسَبَّحَ نَفسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ المُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَىٰ المُرسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقصِ وَالعَيبِ.

وَهُوَ سُبحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّىٰ بِهِ نَفسَهُ بَينَ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ، فَلَا عُدُولَ لِأَهلِ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المُرسَلُونَ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المُستَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذين أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِمْ مِنَ النَّبيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

التعليق

قوله: «فسبَّح نفسه عمَّا وصفه به المخالفون للرُّسُل»؛ أي: نزَّهها عمَّا يصفه به المخالفون للرُّسُل من أوصافٍ لا تليق بجلاله؛ كقولهم: الملائكة بنات الله، وما أشبه ذلك من الأقوال الَّتي تُثير غضب الله، وتجلب مَقْتَه لهم، وقد قال ﷻ: ﴿تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٠-٩٥].

وقوله: «وسلَّم علىٰ المرسلين؛ لسلامة ما قالوه من النَّقص والعيب»:

لأنَّهم لا يصفونه إلَّا بما وَصَفَ به نفسه؛ لأنَّهم هم المُبلِّغون عنه، فلا يقولون عليه غير ما أَوْحَاه إليهم.

وقوله: «وهو سبحانه قَدْ جمع فيما وَصَفَ، وسمَّىٰ به نفسه بين النَّفْي والإثبات»:

ففي الإثبات قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٧٥]، وفي النَّفي قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ:١١]، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص:٣، ٤]، وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠].

وقوله: «فلا عدول لأهل السُّنَّة والجماعة عمَّا جاء به المرسلون؛ فإنَّه الصِّراط المستقيم؛ صراط الَّذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين»:

أهل السُّنَّة والجماعة هم أتباع نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ لا يقولون إلَّا بما قاله الرُّسُل، ولا يُثْبِتون له سبحانه إلَّا ما أثبته لنفسه، ويَنْفُون عنه كلَّ النَّقائص الَّتي لا تليق بجلاله.

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم

١- الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى:

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُملَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ فِي سُورَةِ الإِخلَاصِ الَّتِي تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص].

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ فِي أَعظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾؛ أي: **لا يكرثه، ولا يثقله** ﴿حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]. **ولهذا كان: «مَنْ قرأ هذه الآية في ليلةٍ لم يزل عليه من الله حافظٌ، ولا يَقْربه شيطانٌ حتَّىٰ يصبح»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: والله لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله ﷺ. قال: إنِّي محتاج، وعليَّ عيال ولي حاجة شديدة. قال: فخلَّيت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟»، قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، =

التعليق

قال المؤلف: «وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُملَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ فِي سُورَةِ الإِخلَاصِ الَّتِي تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]»:

ففي قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إثبات الأَحَديَّة لله بأنَّه واحدٌ

= وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله. قال: «**أما إنَّه قد كذبك، وسيعود**»، فعرفت أنَّه سيعود، لقول رسول الله ﷺ: إنَّه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله ﷺ. قال: دعني فإنِّي محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك**»، قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: «**أما إنَّه قد كذبك وسيعود**»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلىٰ رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنَّك تزعم لا تعود، ثم تعود قال: دعني أعلِّمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلىٰ فراشك، فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، حتىٰ تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتىٰ تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة»، قلت: يا رسول الله، زعم أنَّه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «ما هي»، قلت: قال لي: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح -وكانوا أحرص شيء علىٰ الخير- فقال النبي ﷺ: «**أما إنَّه قد صَدَقك وهو كذوبٌ، تعلم مَنْ تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟**»، قال: لا. قال: «**ذاك شيطانٌ**».

في أسمائه، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في ذاته؛ فهو أحدٌ بمعنىٰ أنَّه مُتَوحِّدٌ، لا يشبهه أحدٌ من المخلوقين، ولا يُشْبِه أحدًا من المخلوقين.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فسِّر «الصَّمد» بتفسيرين:

التَّفسير الأوَّل: الصَّمد هو السَّيِّد الَّذي كَمُل في سؤدده، وشرفه، وعظمته، الَّذي اجتمعت فيه صفات الكمال،أ ولذلك فإنَّ الخلائق جميعًا تَصْمد إليه؛ أي: تقصده في حاجاتها، ومهمَّاتها، وخلاصة هذا بأنَّه المقصود في الحوائج.

التَّفسير الثَّاني: الصَّمد في اللُّغة العربيَّة الَّذي ليس بأجوف؛ أي: ليس له جوفٌ، وكلاهما جائزٌ؛ أي: ليس بأجوف أو ليس له جوفٌ، ونحن نقول: إذا لم يكن له تجويفٌ، نقول له: مُصَمَّد، فالله سبحانه مُنزَّهٌ عن التَّجويف.

فهاتان الصِّفتان: الأحديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، ووصفه بأنَّه صمدٌ؛ صفتا إثبات لله تعالىٰ، وهو كونه أحدًا في كماله وصفاته، ولذلك كان مقصودًا في الحوائج، منفردًا بقضائها.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ هذه صفتا نفيٍ عن الله تعالىٰ، فهو سبحانه منفردٌ بالخَلْق والإيجاد.

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ الولادةُ صفةُ نقصٍ في حقِّ الله، ولذلك فهي مَنفيَّةٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كذلك كونه وُجِدَ من شيءٍ، هذا منفيٌّ عن الله، بل إنَّ نسبة ذلك إلىٰ الله أمرٌ عظيمٌ، وذنبٌ كبيرٌ يوجب غضب الله تعالىٰ،

قال تعالىٰ: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٠-٩٣].

وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾؛ أي: ليس له مكافئٌ؛ لا في ذاته، ولا في صفاته.

والمكافئ: هو النِّدُّ أو المساوي، فالله تعالىٰ ليس له مماثلٌ، ولا نظيرٌ، جلَّت قدرتُهُ، وتَقدَّست أسماؤه، وتَعَالَتْ صفاتُهُ.

فقد جمع في هذه السُّورة النَّفي والإثبات، ولمَّا كانت هذه السُّورة خالصةً في صفات الله عَزَّوَجَلَّ، كانت أفضل سور القرآن، فقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال عن سورة الإخلاص: «**والَّذي نفسي بيده، إنَّها لَتعْدِلُ ثُلُث القرآن**»[1]، وكذلك آية الكرسي، فهي أعظمُ آيةٍ في كتاب الله، والَّتي ضمَّت عشر جملٍ:

١- قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هذه جملةٌ.

٢- قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ هذه جملةٌ.

٣- قوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ هذه جملةٌ.

٤- قوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هذه جملةٌ.

٥- قوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ هذه جملةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦- قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هذه جملةٌ.

٧- قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ هذه جملةٌ.

٨- قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هذه جملةٌ.

٩- قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ هذه جملةٌ.

١٠- قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ هذه جملةٌ.

فالجملة الأولى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تحتوي على نفي وإثباتٍ، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ﴾ نفي الأُلوهيَّة عن غيره، ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إثباتها له سبحانه.

والجملة الثَّانية: قول الله تعالىٰ: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَصَفه بالحياة والقَيُّوميَّة، ومعنىٰ القَيُّوميَّة: أنَّه قائمٌ بنفسه، مستغنٍ عن غيره.

والجملة الثَّالثة: قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ السِّنَة: هي الغفلة والنِّسيان والنُّعَاس، ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ أي: كذلك لا يأخذه النَّوم؛ لأنَّ النَّوم أخو الموت، واللهُ ﷻ حيٌّ قَيُّومٌ، مَنفيَّةٌ عنه جميع النَّقائص، ومنها السِّنَة والنَّوم.

والجملة الرَّابعة: قوله تعالىٰ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا إثباتٌ لِمِلْكيَّته لما في السَّماوات وما في الأرض؛ فكلُّها مملوكةٌ لله، السَّماوات ومَنْ فيها، والأرض ومَنْ فيها، وما بينهما كلُّها مِلْكٌ له.

والجملة الخامسة: قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

﴿مَنْ﴾ هنا اسمُ استفهام، والاستفهام هنا إنكاريٌّ؛ أي: لا أحدَ يشفع عنده إلَّا بإذنه، ونعلم أنَّ الشَّفاعة لا تُطلَب من الشَّافع، فلا يجوز أن تقول

مثلًا: يا رسول الله، اشفع لي، ولكن تُطلَب من الله ﷻ، فتقول: اللَّهمَّ شَفِّع فيَّ عبدَك ورسولك مُحمَّدًا ﷺ.

والجملة السَّادسة: قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هذا فيه إثبات علم الغيب الماضي، والمستقبل، وليس هناك أحدٌ يعلم الغيب غير الله، قال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦، ٢٧]؛ أي: أنَّه يُطْلِع رُسُله علىٰ بعض الغيب ليُعلم به صدقهم في الرِّسالة.

والجملة السَّابعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ هذا فيه نفي العلم عن الإنسان إلَّا بما عَلَّمه الله: ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

وقال في سورة العلق: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥].

وقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

ثمَّ قال تعالىٰ في الجملة الثَّامنة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، هذه الجملة دليلٌ علىٰ العظمة.

فإذا كان الكرسيُّ يسع السَّماوات والأرض، فما بالك بالعرش.

والكرسيُّ يُقَال: إنَّه موضع القدمين، وهو دون العرش، وقد جاء في الحديث: «**ما السَّماوات السَّبْع مع الكرسيِّ إلَّا كحلقةٍ مُلْقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ،**

وفضلُ العرش علىٰ الكرسيِّ كفضلِ الفَلَاةِ علىٰ الحلقة»[١]. وفي روايةٍ عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما السَّماوات السَّبْع في الكرسيِّ إلَّا كدراهم سبعةٍ أُلْقِيتْ في تُرسٍ»[٢]. وقال: أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسيُّ في العرش إلَّا كحلقةٍ من حديدٍ أُلْقِيَتْ بين ظهري فلاةٍ من الأرض»[٣].

والجملة التَّاسعة: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾؛ أي: لا يكرثه[٤]، ولا يثقله حفظهما، أي: حفظ السَّماوات والأرض ومَنْ فيهما، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر:٤١].

والجملة العاشرة: قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه إثبات العُلوِّ لله جَلَّ وَعَلَا؛ عُلوِّ الذَّات، وعُلوِّ القَدْر، وعُلوِّ القَهْر، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٧٦) (٣٦١)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان»: «ضعيف جدًّا» (١/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٩٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٧) (٣١)، وضعَّفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «السلسلة الضعيفة» (٦١١٨).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٥٨٧) (٣١)، وضعَّفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «السلسلة الضعيفة» (٦١١٨).

(٤) كرث الأمر، ويكرثه كرثًا وأكرثه: ساءه، واشتد عليه، وبلغ منه المشقة؛ قال الأصمعي: «ولا يقال: كرثه، وإنما يقال: أكرثه». «لسان العرب» لابن منظور، (٢/ ١٨٠).

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]. ووصف نفسه بالعظمة؛ عظمةِ الذَّات، وعظمة الكبرياء لله، جلَّ جلالُهُ، وتَقدَّست أسماؤه، وتعالت صفاته؛ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، ولا تَخْفَىٰ عليه أسئلة السَّائلين في كلِّ وقتٍ، وبكلِّ لسانٍ.

٢- الجمع بين علوه وقربه، وأزليته وأبديته

وَقَوْلُهُ سُبحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣].

وَقَوْلُهُ سُبحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢]، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١].

التعليق

قَوْلُهُ سُبحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]. أخبر الله ﷻ عن نفسه بأنَّه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ وهذا يُفسِّر الحديث الصَّحيح: «**اللَّهمَّ أنت الأوَّل فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخر فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظَّاهر فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ**»(١). فَقَدْ فسَّر هذا الحديثُ هذه الآية بأنَّ أَوَّليَّة الله ﷻ أوَّليَّةٌ مطلقةٌ، فهو الأوَّل الَّذي ليس قبله شيءٌ، وآخريَّته آخريَّةٌ مطلقةٌ، فهو الآخر الَّذي ليس بعده شيءٌ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهذا قاطعٌ لكلِّ كلامٍ، ومانعٌ لكلِّ تقديرٍ، أَوَّليَّةٌ مطلقةٌ، وآخريَّةٌ مطلقةٌ، سيفنىٰ هذا الكون، يفنيه الله ﷻ، ويَبْقىٰ وجهه ﷻ قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧]. فحين يُفْنِي الله هذا الكون ومَنْ فيه، يكون هو الباقي، لا يجري عليه فناءٌ، وليس لأَوَّليَّته ابتداءٌ، وبعد ذلك يَطْوي السَّماوات بيمينه، والأرضين بيده الأخرىٰ، ثمَّ يقول: «**أنا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارون، أين المُتكبِّرون**»(١).

والله سبحانه يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]، ثمَّ بعد ذلك يحيي الله الموتىٰ، ويحشرهم علىٰ أرض الموقف، ويفصل بينهم، فيجازي كلًّا بعمله، فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السَّعير.

أمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الظَّاهر أي: الَّذي ليس فوقه شيءٌ، ظاهرٌ بآياته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، فإنِ اتَّجَهْتَ ببَصَرك إلىٰ السَّماء تُقلِّبه فيها، سترىٰ العجب العجاب! مَنِ الَّذي حفظ هذه السَّماء مَبنيَّةً فوق الأرض بدون عَمَدٍ؟ ومَنِ الَّذي أجرىٰ فيها الكواكب، والشَّمس والقمر؟ ومَنِ الَّذي سخَّر السَّحاب بين السَّماء والأرض وأنزل منه المطر؟ ومَنِ الَّذي حوَّل النُّطْفَة الَّتي خُلِقَ منها الإنسان إلىٰ هذا الخَلْق العظيم؟!

قَلِّب ببصرك، وفكِّر بعقلك، فسترىٰ آلاف الأدلَّة، بل عشرات الآلاف من الأدلَّة، بل الملايين علىٰ أنَّ الصَّانع لهذا الكون هو العليم الحكيم الَّذي عَلِمَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

كلَّ شيءٍ، وخَلَق كلَّ شيءٍ، فأحسن خَلْقه، وأعطىٰ كلَّ شيءٍ قَدْره[١].

ثمَّ هو الباطن الَّذي يطَّلع علىٰ البواطن، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [البقرة:٢٨٤]، فدلَّ ذلك علىٰ أنَّه جَلَّ وَعَلَا كما وَصَف نفسه بالظَّاهر الَّذي ليس فوقه شيءٌ، وصف نفسه بالباطن الَّذي ليس دونه شيءٌ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾:

هذه الآية تدلُّ علىٰ أنَّ الله حيٌّ، وأنَّه لا يموت كما تموت المخلوقات، فكلُّ مخلوقٍ يموت، واللهُ حيٌّ لا يموت كما تقدَّم لنا في تفسير آية سورة الحديد، والأمر بالتَّوكُّل علىٰ الحيِّ الَّذي لا يموت، وفيه أنَّ مَنْ يموت لا يجوز التَّوكُّل عليه؛ لأنَّه سَيُضيِّع مَنْ تَوكَّل عليه، والله ﷻ هو الحيُّ الَّذي لا يموت، فَالتَّوكُّل عليه هو الحقُّ.

أَيَا مَنْ أردتَ النَّصيحة، وأردتَ الحقَّ، تَوكَّلْ علىٰ الحيِّ الَّذي لا يموت، وفوِّض إليه أمرك، واجعل إليه إذعانك، وتوجَّه إليه بقلبك، يكفيك عن غيره.

ثمَّ إنَّ التَّوكُّل عليه تَوكُّلٌ علىٰ الحكيم الخبير الَّذي له الحكمة في

---

(١) انظر -أخي الكريم- كتاب شيخنا أحمد النجمي رَحِمَهُ اللهُ؛ حيث تكلم عن مثل ذلك في قصيدة حوار مع ملحد من كتابه: «صيحة حق في صماخ الباطل»، وهو عبارة عن عدة قصائد نظمها الشيخ قديمًا، فرَحِمَهُ الله رحمةَ الأبْرار.

مَجْريات الأمور، وهو الخبير بكلِّ شيءٍ من بواطن الأمور، وظواهرها، فهذان الاسمان يَتضمَّنان صفتان من صفاته، وهما الحكمة.

ومعنىٰ الحكمة: وَضْع الأشياء في مواضعها، والخبير الَّذي يعطي كلَّ مخلوقٍ ما يكون بحاجةٍ إليه، انظر كيف خَلَق الله للعبد قَدَمًا، وجَعَل في القدم أصابع وهو في بطن أمِّه، خلق له ذلك؛ لأنَّه يعلم أنَّه سيمشي علىٰ الأرض، وخَلَق له اليد وفيها الأصابع؛ لأنَّه يعلم أنَّه سيتحرَّك بهذه اليد، فيقبض بها، ويأكل بها، ويشرب بها، ويكتب بها، فمَنْ ليست له أصابع كيف يكتب؟ جعل الله له في بطن أمِّه ذلك؛ لأنَّه علم أنَّه سيحتاج إلىٰ هذه الأشياء متىٰ استقلَّ بنفسه، أليس الَّذي فعل ذلك خبيرًا؟! بلىٰ.

أليس الَّذي فتح الفم للعبد، وجعل فيه الأسنان والأضراس خبيرًا بأنَّه سيأكل؟ وجعل المعدة الَّتي تستقبل ما جاء إليها، ثمَّ تهضمه، ثمَّ تُوزِّعه علىٰ أصعدةٍ ثلاثةٍ: الفضلات: وتخرج من طريق الدُّبُر غائطًا، ومن طريق المثانة بولًا، أمَّا الغذاء: فإنَّها تُحوِّله إلىٰ الكبد ليُحوِّله إلىٰ الدَّم، ومِنْ هناك تكرَّر في القلب، ثمَّ يرسل إلىٰ الخلايا بالجسم[1].

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم:٢]؛ أي: عليمٌ بكلِّ ما في السَّماوات وما في الأرض، لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أمر عباده فيهما، فهو يعلم بكلِّ ما يصدر عنهم من حسنٍ، أو قبيحٍ، أو طاعةٍ، أو معصية.

---

(١) انظر قصيدة «حوار مع ملحد» في كتاب شيخنا: «صيحة حق في صماخ باطل»، والذي سبق الإشارة إليه قريبًا.

وفي ذلك أيضًا إثبات الحكمة لله ﷻ؛ فهو حكيمٌ في خَلْقه، وحكيمٌ في أمره وشرعه، يضع كلَّ شيءٍ في موضعه، ومَنْ تَفكَّر في نفسه، ورأىٰ حكمةَ الله، وعرف شواهدها في نفسه، عظَّم ربَّه؛ لعظمتها في نفسه، فسبحانه ما أعظمه وأجلَّه!

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١] اقتران اسم الحكيم بالخبير أو بالعليم يدلُّ علىٰ أنَّ حكمته تعالىٰ عن علمٍ وخبرةٍ، تضع الأشياء في مواضعها، فلا تكاد ترىٰ شيئًا من حكمة الله في غير موضعها اللَّائق بها.

٣-إحاطة علمه بجميع مخلوقاته

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ:٢].

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر:١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿لِّتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨].

التعليق

وأقول: قد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ علمه قد أحاط بالأشياء جميعًا: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ لنتفكَّر كيف خلق الله الأرض هشَّةً نستطيع أن نحفر فيها، ونُغيِّب ما نحتاج إلىٰ تغييبه فيها

من الموتىٰ والفضلات؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات:٢٥، ٢٦]، أي: الأرض تكفت ما غُيِّب فيها، فنحفر القبور للموتىٰ، ونُغيِّبهم فيها، ويحفر للفضلات، ونُغيِّبها فيها، فلو كانت الأرض صلبةً، هل نستطيع ذلك؟ وهل سنعيش عليها؟

الجواب: لا، جعلها هشَّةً، وجعل فيها الماء، وأوجد فيها الجبال، وأوجد فيها الشِّعاب، فتكفت الأحياء في البُيُوت الَّتي تُجعَل لهم، وتكفت الأموات في القبور الَّتي تُجعَل لهم، هذا معنىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الزَّرع، والأشجار، والثِّمار: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، السَّماء: هو العُلُوُّ ينزل منها المطر من السَّحاب، وتنزل منها الملائكة، والأرزاق بمقاديرها، كلُّ ذلك بعلم الله ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ أي: ما يصعد إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الغيب أمرٌ لله يختصُّ به، فلا يستطيع أحدٌ أن يَطَّلع عليه إلَّا أَنْ يُطْلِعَه الله سبحانه عليه، ومفاتيح الغيب قَدْ فَسَّرها النَّبيُّ ﷺ في حديث ابن عمر عند البخاريِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مفاتيح الغيب خمسٌ، لا يعلمها إلَّا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلَّا الله، ولا يعلم ما في غدٍ إلَّا الله، ولا يعلم متىٰ يأتي المطر أحدٌ إلَّا الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت إلَّا الله، ولا يعلم متىٰ تقوم السَّاعة إلَّا الله**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، أي: كلُّ أنثىٰ لا تحمل ولا تضع إلَّا بعلمه ﷻ، قَدْ عَلِمَ النُّطَف الَّتي تَتحوَّل إلىٰ أَجنَّةٍ، وعَلِمَ النُّطَف الَّتي تكمل في بُطُون الأُمَّهات، وتخرج سويَّةً أو ناقصةً، كلُّ ذلك قَدْ عَلِمَه ﷻ.

قوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾؛ أي: لكي تعلموا أنَّ الله علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، وفي ذلك شمولُ قُدْرتِهِ، وأنَّها لا يتعاصىٰ عليها شيءٌ، وشمولُ عِلْمِهِ، وإحاطته بكلِّ مَنْ في السَّماوات والأرض؛ من ملائكةٍ، وإنسٍ، وجنٍّ، وحيوانٍ، وغير ذلك.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ في هذا إخبارٌ بأنَّ الرِّزْق بيد الله، وأنَّه لا أحدَ يستطيع أن يرزق أحدًا إلَّا بعونٍ وقُوَّةٍ من الله، بل إنَّ الإنسان لا يستطيع أن يرزق نفسه، فكيف يرزق غيره، وأنَّه قد علم حاجة كلِّ عبدٍ إلىٰ الرِّزْق، فرزقه ما تَبْقَىٰ به حياتُهُ، ويعيش به حتَّىٰ يأتيه الموت.

٤- إثبات السمع والبصر لله تعالى

وَقَولُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

التعليق

في هاتين الآيتين إثبات السَّمع والبصر لله ﷻ، فالآية الأولىٰ في سورة الشُّورىٰ أوَّلها قوله ﷻ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ﴾ [الشورىٰ:١١]؛ أي: يخلقكم، ويُجدِّد خَلْقكم، ويجعلكم خلائف بعد خلائف، ومعنىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مبتدئهما علىٰ غير مثالٍ سبق؛ إذْ إنَّ: «فَطَرَ» بمعنىٰ ابتدأ الخلق، لهذا قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كنت لا أدري ما معنىٰ: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتَّىٰ احتكم إليَّ أَعْرابيَّان في بئرٍ، فقال أحدهما: أنا فَطَرتُها؛ أي: أنا ابتدأتُها»(١).

ومعنىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: صَيَّر، وخَلَق لكم من أنفسكم أزواجًا، والمراد به: الإناث ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ﴾؛ إذ إنَّ الأنثىٰ زوجٌ للذَّكر: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ﴾ أي: يخلقكم ويُجدِّدكم خَلفًا بعد سَلَفٍ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ هذا نفيٌ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢١٢) (١٥٥٩)، «والأسماء والصفات» (١/ ٧٨) (٤٠).

والمراد به: تنزيه الله سبحانه أن يكون له مِثْلٌ أو ندٌّ أو نظيرٌ مِنْ خَلْقه، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الَّذي يسمع الأصوات جميعًا، أصوات الجنِّ والإنس، لا تختلف عليه، ولا تختلط بخلاف سَمْع الإنسان، فإنَّ سَمْع الإنسان محدودٌ، لو تكلَّمَ عشرةٌ بكلامٍ مختلفٍ في وقتٍ واحدٍ لَمَا فهمت من كلامهم شيئًا بخلاف سَمْع الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه إثبات البصر لله ﷻ، وليس الاتِّفاق في الاسم موجبًا للاتِّفاق في الحقيقة، فحقيقة بصر الإنسان غير بصر الله، وحقيقة بصر الباري غير بصر الإنسان، ولهذا فإنَّ النَّفْي الحاصل في قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ دالٌّ علىٰ عدم المشابهة بين صفات الباري، وصفات العبد المخلوق.

وكذلك في الآية الثَّانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، هذا فيه وعدٌ ووعيدٌ، حيث إنَّ أوَّل الآية قول الله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: يسمع كلامكم، ويرىٰ أعمالكم، وتَصرُّفاتكم، فَمَنْ طبَّق ما أُمِرَ به فله الثَّواب الموعود، ومَنْ خالف ذلك فإنَّ الله يعلم مخالفته، وسيجزيه بذلك بحسب ما يستحقُّ، وقَدْ تَبيَّن بهذا أنَّ إثبات السَّمع والبصر لله لا يقتضي المشابهة بين سَمْع الإنسان وبصره، وبين سمع الله وبصره، فبصرُ الإنسانِ محدودٌ تَمْنعُهُ الحُجُب، ويمنعه البُعْدُ، أمَّا بصر الله ﷻ فإنَّه يرىٰ به ما في جوف الأرض، وما في لجج البحار، لا يمنع بَصَرَه مانعٌ، ولا يحجبه حاجبٌ؛ فمَنْ زعم أنَّ إثبات الصِّفات لله ﷻ مقتضٍ للمشابهة بينه وبين خَلْقه؛ فإنَّ زَعْمَه هذا باطلٌ لما سَبرنَاهُ وبيَّنَّاه.

٥- إثبات المشيئة والإرادة لله ﷻ

وَقَولُهُ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف:٣٩].

وَقَولُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وَقَولُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة:١].

وَقَولُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

التعليق

وأقول: لَقَدْ قسَّم أهل السُّنَّة والجماعة الإرادة إلى قسمين:

١- إرادةٌ كونيَّةٌ.

٢- إرادةٌ شرعيَّةٌ.

فالإرادة الكونيَّة شملت الكفر والإيمان، والفسق والبرَّ، والطَّاعة

والمعصية، وهي ما كتبه الله ﷻ على العباد أنَّهم سيعملونه، وقدَّره لهم وعليهم، كما يقول ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وكما يقول ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن:١١].

وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

وقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]. كلُّ هذه الآيات دلائل على أنَّ ما في الكون قد كُتِبَ وسُطِرَ قبل خَلْق السَّماوات والأرض، وقَدْ جاء في الحديث الصَّحيح: «**أوَّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجَرَى في تلك السَّاعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة**»(١).

أمَّا الإرادة الشَّرعيَّة؛ فهي ما جاء في الشَّرائع من الأوامر والنَّواهي؛ فالمؤمن اجتمعت فيه الإرادة الكونيَّة، والإرادة الشَّرعيَّة، طلب الله منه الإيمان شرعًا، وقدَّره له كونًا، فقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣١٧) (٢٢٧٥٧)، وبنحوه أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصَحَّحه الألباني رحمه الله في «المشكاة» (٩٤).

هذه الآية جاءت بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فأخبرهم جَلَّوَعَلَا أنَّه حَرَمهم الإيمان بأسبابِ أعمالٍ عملوها، فَقلَّب أفئدتهم وأبصارهم، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: لو أعطيناهم كلَّ آيةٍ، وقَدْ كتب الله عليهم الشَّقاء ما كانوا ليؤمنوا، ومن هنا فلربَّما حصل أنَّ الإنسان قد يُوسْوِس له الشَّيطان بوساوس يريد بها أن ينسب العبدُ الظُّلمَ إلىٰ ربِّه، كيف كتب الله لهؤلاء الإيمان؟ وكتب الله علىٰ هؤلاء الكفر؟ وكيف عاقب الكُفَّار مع أنَّه هو الَّذي كتب عليهم الكفر، وما كانوا ليخرجوا عن إرادته؟ فإرادتُهُ مسيطرةٌ علىٰ إرادتهم، ومشيئتُهُ مهيمنةٌ علىٰ مشيئتهم.

وهنا في هذا المأزق لا ينجو من كيدِ الشَّيْطان إلَّا مَنْ بَصَّرهم الله بالعلم، وَوفَّقَهم له.

ويجب أوَّلاً: أن نتذكَّر أنَّ العباد كلَّهم خَلْق الله، يفعل فيهم ما يشاء، ويحكم فيهم بما يريد، وقَدْ قالَ جماعةٌ من الصَّحابة: «لو عذَّب الله أهل سماواته، وأهل أرضه جميعًا؛ لعذَّبهم وهو غير ظالمٍ لهم»[1].

---

(١) أخرج ابن ماجة (٧٧) عن ابن الديلمي قال: وقع في نفسي شيءٌ من هذا القدر خشيت أن يفسد عليَّ ديني وأمري فأتيت أبيَّ بن كعب، فقلت: أبا المنذر، إنَّه قد وقع في قلبي شيء من هذا القدر فخشيت علىٰ ديني وأمري فحدثني من ذلك بشيء لعلَّ الله أن ينفعني به. فقال: لو أنَّ الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم. ولو كان لك مثل جبل أحد ذهبًا -أو: مثل جبل أحد- تنفقه في سبيل الله ما قبل منك =

وثانيًا: يجب أن نَتذكَّر أنَّ الله ﷻ أخبرنا في آياتٍ كثيرةٍ بأنَّه لا يظلم أحدًا، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨]. إلىٰ غير ذلك من الآيات الَّتي نفىٰ الله فيها الظُّلْم عن نفسه.

وقد جاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلْمَ علىٰ نفسي وجعلتُهُ بينكم مُحرَّمًا، فلا تظالموا**»(١).

وثالثًا: يجب أن نعلم أنَّ لله تعالىٰ في عباده الحكمة البالغة، وأنَّ له عليهم الحُجَّة الدَّامغة، فالله ﷻ له حِكمٌ في هذا الكون، وفي هذا الخلق، لا نعلمها، وأنَّ الله ﷻ له الحُجَّة علىٰ عباده، فلا يُعذِّب أحدًا منهم إلَّا بحُجَّةٍ، فينبغي للعبد أن يسأل الله دائمًا وأبدًا أن يُثبِّته علىٰ الحقِّ، وأنْ يُلهمه رُشده، وألَّا

حتىٰ تؤمن بالقدر، فتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك. وأنَّك إنْ متَّ علىٰ غير هذا دخلت النَّار، ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود فتسأله. فأتيت عبد الله فسألته فذكر مثل ما قال أبيُّ، وقال لي: ولا عليك أن تأتي حذيفة. فأتيت حذيفة فسألته فقال مثل ما قالا، وقال: ائت زيد بن ثابت فاسأله. فأتيت زيد بن ثابت فسألته، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنَّ الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لَعَذَّبهم، وهو غير ظَالِمٍ لهم، ولو رَحِمَهم لكانت رَحْمَته خيرًا لهم مِن أعمالِهم، ولو كان لك مِثْل أُحُد ذهبًا -أو مِثل جَبَل أُحُد ذهبًا- تُنفقه في سبيل الله ما قبله منك حتىٰ تؤمن بالقدر كله فتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن لِيُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنَّك إن متَّ علىٰ غير هذا دخلت النَّارَ**»، وصحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح ابن ماجة» (٦٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

يجعل للشَّيطان عليه سبيلًا، وقَدْ علَّمنا رسول الله ﷺ أن نقول: «**اللَّهمَّ فاطر السَّماوات والأرض، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه، أشهد أن لا إله إلَّا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشَّيطان وشركه، وأن أقترف علىٰ نفسي إثمًا أو أجرَّه إلىٰ مسلمٍ**»(١).

وقال ﷺ مُعلِّمًا بعض أصحابه: «**اللَّهمَّ أَلْهِمْني رُشْدِي، وأَعِذْني مِن شَرِّ نَفْسِي**»(٢).

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فيُؤخَذ منها إثبات المشيئة لله ﷻ؛ ولذلك فإنَّه ينبغي لمَنْ رأىٰ نعمةً وَهَبَه الله إيَّاها أعجبته، فالمشروع له أن يقول: ما شاء الله، ثمَّ يحمد الله علىٰ تلك النِّعمة كما حصل لصاحب الجنَّة، مع مُحاورة المؤمن، وأنَّ الله في النِّهاية أغار ماءَ جنَّته، ويَبسَت، وذهبت الأشجارُ الَّتي فيها، فأصبحت صَعِيدًا زلقًا(٣).

---

(١) أخرج أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢) عن أبي هريرة، أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، مُرني بكلمات أقولهنَّ إذا أصبحتُ، وإذا أمسيتُ، قال: «**قل: اللهُمَّ فَاطِرَ السماوات والأرض، عَالم الغَيب والشَّهَادة، رب كُلِّ شيء ومَليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، قال: قلها إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك**»، وصَحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح الترمذي» (٢٧٠١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) من حديث عمران بن حصين، وضَعَّفه الألباني رحمه الله في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٠).

(٣) قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ [الكهف:٤٠].

٦- إثبات محبة الله ومودته لأوليائه على ما يليق بجلاله

وَقَولُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، وَقَولُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ﴾ [آل عمران:٣١]، وَقَولُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، وَقَولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤].

التعليق

هذه الأدلَّة حَشَدها المُؤلِّف ليُبيِّنَ بها مَحبَّة الله لأوليائه، فهو أخبر بأنَّه يحبُّ المحسنين؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسانُ يأتي لمَعْنَيين:

١- **إحسانُ الشَّيء بمعنىٰ إتقانه، ومن ذلك قوله ﷺ: «أن تعبد الله كأنَّك**

تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك»[1]؛ أي: بأنْ تتقن عبادتك، وتخلص فيها لربِّك حتَّىٰ كأنَّك ترىٰ الله أمامك، أو تَتيقَّن بأنَّ الله يراك.

٢- الإحسان بمعنىٰ آخر: وهو إسداء المعروف إلىٰ العباد؛ سواءٌ كان ذلك الإحسان بالمال، أي: بإعطائهم المال الَّذي يَسْتَعِينون به علىٰ قضاء حاجاتهم، أو بالمعاملة الحسنة، أو الإحسان إليهم بالتَّعليم، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، ودلالة الخَلْق علىٰ الحقِّ، كلُّ ذلك إحسانٌ، وأفضلُهُ الإحسان إليهم بتعليمهم لما يجب عليهم في الدِّين، فالله يحبُّ هؤلاء، ومَحبَّته جَلَّوَعَلَا تليق بجلاله؛ لأنَّه لا يحبُّ إلَّا مَنْ يكون أهلًا للمحبَّة.

أمَّا العباد فقد يغترُّ الإنسان بشخصٍ ما، ويحبُّه وهو لا يعرف حقيقته، ثمَّ تنكشف الأمور له بعد ذلك، فيَتحوَّل مُحِبُّه إلىٰ مُبْغضٍ، وتَتحوَّل المَحبَّة إلىٰ بغضاء.

قوله: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ القسط هو العدل، والله يحبُّ من عباده أن يَتمثَّلوا بالعدل، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

وقد أخبر الله في هذه الآية بأنَّه يحبُّ أهل العدل الَّذين يقولون قَوْلة الحقِّ علىٰ القريب والبعيد سواء.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٨) بتمامه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، المتقون هم الَّذين يَتَّقون الله في أقوالهم، وأفعالهم، ومعاملاتهم.

وأخبر أنَّه يحبُّ التَّوَّابين، ويحبُّ المُتطهِّرين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ يخبر الله تعالىٰ أنَّه يحبُّ التَّوَّابين، وهم جمع تائبٍ: وهو الَّذي يتوب من الذُّنُوب، ويحبُّ المُتطهِّرين: المتابعين والمحافظين علىٰ الطَّهارة الشَّرعيَّة من الأنجاس والأحداث.

وأخبر أنَّ من أسباب مَحبَّته تعالىٰ لعبده: متابعة العبد للنَّبيِّ ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ﴾ يخبر الله أنَّ متابعة رسوله ﷺ موجبةٌ لمَحبَّته سبحانه، فمَنْ أمَّرَ السُّنَّةَ علىٰ نفسه، أجرىٰ الله علىٰ لسانه الحكمة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ هذا تهديدٌ للمؤمنين.

وكلُّ هذه الآيات فيها إثبات المَحبَّة لله عَزَّوَجَلَّ محبةً تليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فلا يجوز أن نُكيِّف، أو نؤول، أو نُحرِّف (نؤول)[1]، أو نُعطِّل؛ بل الواجب علينا أن نُمِرَّ هذه الصِّفات الَّتي أثبتها الله لنفسه، ونثبت معناها لله علىٰ الوجه اللَّائق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) التحريف هنا بمعنىٰ: التأويل المذموم.

٧- إثبات اتصافه ﷻ بالرحمة والمغفرة

وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس:١٠٧].

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

التعليق

في هذه الآيات إثبات اتِّصافه ﷻ بالرَّحمة والمغفرة لعباده المؤمنين، فقد وصف نفسه بأنَّه رحمنٌ رحيمٌ، ووَصَف رحمته بأنَّها وسعت كلَّ شيءٍ، قال تعالىٰ حاكيًا عن الملائكة بأنَّهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، فعلينا أن نؤمن بأنَّ رحمة الله صفةٌ من صفاته تليق بجلاله، وأنَّ الله كَتبَها (أي: هذه الرَّحمة) للمُتَّقين المُتَّبعين لنَبيِّه، والعبد يَتَّصف بالرَّحمة، وقد جاء في الحديث: «**إنَّما يرحم الله من عباده الرُّحَماء**»(١).

وجاء في الحديث: «**الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن؛ ارحموا مَنْ في الأرض، يرحمكم مَنْ في السَّماء**»(٢).

فهذه النُّصُوص دالَّةٌ علىٰ أنَّ الإنسان يَتَّصف بالرَّحمة، ويُوصَف بأنَّه رحيمٌ، وليس الاتِّفاق في الاسم اتِّفاقًا في الحقيقة، بل إنَّ الاسم غير الحقيقة، فرحمة العبد حقيقتها تليق به؛ لأنَّه عبدٌ ضعيفٌ مسكينٌ، ورحمة الله حقيقتها تليق بجلاله، ولا يَجُوز أَنْ نُؤوِّل، ولا أَنْ نُكيِّف، ولا أن نُمثِّل، ولا أن نُحرِّف (نُؤوِّل)، ولا أن نُعطِّل صفات الله عَزَّوَجَلَّ.

والواجب علىٰ العبد: أن يضع الأمور في مواضعها، وليعلم أنَّ صفات الله لائقةٌ بجلاله، فكما أنَّ له ذاتًا لا تُشْبِه الذَّوات، فكذلك له صفاتٌ لا تُشْبِه صفات المخلوقين، والله تعالىٰ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٨) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصَحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٩٢٥).

٨- ذكر رضا الله، وغضبه، وسخطه، وكراهيته في القرآن الكريم؛ وأنَّه متصفٌ بذلك

وَقَولُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء:٩٣].

وَقَولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد:٢٨].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف:٥٥].

وَقَولُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦].

وَقَولُه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣].

التعليق

أقول في هذه الآية: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: صفة الرِّضا لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه يَرْضَىٰ عن عباده المؤمنين الَّذين يَتَّبعون مراضيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعملون بمرضاته؛ لذلك هو يَرْضَىٰ عنهم، وهم يَرْضون عنه؛ لما يؤتيهم من الثَّواب، والنَّعيم المقيم.

ورضا الله ﷻ صفةٌ له تليق بجلاله، كما أنَّ سائر الصِّفات الَّتي وصف الله بها نفسه فهي صفاتٌ تليق بجلال الله ﷻ سواءً كانت صفةَ رضًا، أو غضب، أو سخط، أو كراهية، أو غير ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾، فقد وصف الله نفسه بالغضب علىٰ مَنْ قَتَل مؤمنًا مُتعمِّدًا بدون ما يُوجِب ذلك.

ولا يُجَوِّزُ قَتْلَ المؤمن إلاَّ في ثلاثةِ أمورٍ:

١- رِدَّةٌ بعد إيمانٍ.

٢- أو زنًا بعد إحصانٍ.

٣- أو أن يقتل مسلمًا، فيُقتَل به[(١)].

فمَنِ ارتدَّ بعد إيمانه، عُرِضَتْ عليه التَّوبة ثلاثة أيَّامٍ؛ فإنْ رجع إلىٰ الإسلام، وإلَّا قُتِلَ كافرًا مرتدًّا، ومَنْ ثبت عليه الزِّنا بعد الإحصان، رُجِمَ حتَّىٰ يموت، ومَنْ قَتَل مسلمًا مُتعمِّدًا قُتِل به (حُكْم الله ورسولِهِ)، فمَنْ قَتَل مؤمنًا بغير سببٍ من هذه الأسباب الثَّلاثة، فقد استحقَّ غضب الله، ومَنِ الَّذي يَقْدر علىٰ غضب الله؟! لا أحد؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾؛ أي: سقط في النَّار، والعياذ بالله، ونسأل الله العفو والعافية.

---

(١) أخرج البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم، شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ إلا بإحدىٰ ثلاث؛ النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة».

أمَّا الآية الَّتي بعدها، وهي قول الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾؛ أي: عملوا بمساخطه، وتركوا رضوانه، وكرهوه، ففي هذه الآية صفة السُّخْط والرِّضا، وأنَّ مَنِ اتَّبعَ مساخطه، وَابْتعَد عن مراضيه، وكرهها، وكَرِهَ مَنْ يدعو إليها؛ فإنَّه قد استحقَّ سخط الله جَلَّوَعَلَا عليه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

معنىٰ: ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا، ومعنىٰ: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أي: أوقع الله عليهم نِقْمَته، وهم فرعون وقومه، حيث عادوا الله ورسوله، فأهلكهم اللهُ بالغرقِ في البحر، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٥، ٥٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾: في هذه الآية صفة الكراهية لله عَزَّوَجَلَّ؛ وقوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ أي: كسَّلهم عن الخروج لمصلحة أهل الإيمان، ولمصلحة الدِّين والرَّسول.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عَظُمَ مقتًا، والمقتُ هو أشدُّ اللَّومِ، فالله يمقت أهل معصيته، ويَذمُّهم، ويلومهم.

٩- ذكر مجيء الله سبحانه لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله

وَقَولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة:٢١٠].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢١، ٢٢].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان:٢٥].

التعليق

في هذه الآيات إثبات الإتيان لله عَزَّوَجَلَّ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: أنَّ الله يأتي لفصل القضاء بعد أن يقف النَّاس في موقف القيامة زمنًا طويلًا ينتظرون ما يحكم الله

فيهم؛ فيأتي تعالىٰ لفصل القضاء، إتيانًا يليق بجلاله ﷻ، فيأمر الله بفصل القضاء، فيقضي بين العباد، ويُنزِّل كلَّ عبدٍ منزلته الَّتي يَسْتحقُّها، أهلُ النَّار في النَّار يُعذَّبون، وأهلُ الجنَّة في الجنَّة يُنعَّمون، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾.

فانقضاء الأمر بإعطاء كلِّ ما يستحقُّ، وتنزيل كلٍّ في منزلته.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل السَّعَادة، ونعوذ به -جَلَّت قدرته، وعَزَّ سلطانه، وتَعالَتْ صفاتُهُ، وتَقدَّست أسماؤه- من مُوجِبَاتِ غضبِهِ، ومن عذاب النَّار، ونسأله ﷻ أن يجعلنا من الفائزين برضاه وجَنَّته.

والمقصود: أنَّ في هذه الآية إثبات المجيء والإتيان لله ﷻ، وأنَّه يأتي لفصل القضاء علىٰ ما يليق بجلاله سبحانه، **وذلك ثابتٌ في آياتٍ كثيرةٍ**، منها:

قول الله تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾.

وقول الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾؛ أي: أنَّ الله يأتي لفصل القضاء، والملائكة صفوفٌ، والنَّاس واقفون علىٰ أرض المحشر، قُلوبُهُم واجفةٌ، وأبصارُهُم خاشعةٌ، وأَفْئدتُهُم خائفةٌ، يكون ذلك بعد شفاعة نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ في فصل القضاء؛ عندما يأتي النَّاسُ آدمَ فيعتذر، وإلىٰ نوحٍ فيعتذر، وإلىٰ إبراهيم فيعتذر، وإلىٰ موسىٰ فيعتذر، وإلىٰ عيسىٰ فيعتذر، فيُحِيلُهُمْ علىٰ النَّبيِّ ﷺ؛ فيقول: «**أنا لها**» فيشفع

إلىٰ ربِّه، ويطلب منه أن يأتي لفصل القضاء، وأن يكون البدء بأُمَّتِهِ، فيُشفِّعه الله فيهم، ويفصل بين عباده[1]، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ كما في الآية الأولىٰ.

قوله: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: دكُّ الأرض: تسويتها وإزالة ما عليها من جبالٍ وَوِهَادٍ وغيرها حتَّىٰ تكون مستويةً، وتمتدُّ الأرض لتسع الخلائق، فسبحانك لا نُحْصِي ثناءً عليك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

---

(١) أخرج البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حدثنا محمد ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة مَاجَ الناس بعضُهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلىٰ ربك. فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم؛ فإنَّه خليل الرحمن. فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسىٰ؛ فإنه كليم الله. فيأتون موسىٰ فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسىٰ؛ فإنَّه روح الله، وكلمته، فيأتون عيسىٰ، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ. فيأتوني، فأقول: أنا لها. فأستأذن علىٰ ربي، فيؤذن لي، ويلهمني محامدَ أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامدِ، وأخِرُّ له ساجدًا، فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تُعْطَ، واشفع تشفع. فأقول: يا رب، أُمَّتي أُمَّتي. فيقول: انطلق فأُخْرِج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان. فأنطلق فأفعل، ثم أعود، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع. فأقول: يا رب، أمتي أمتي. فيقول: انطلق فأُخرِج منها من كان في قلبه مثقال ذرة -أو خردلة- من إيمان فأخرجه. فأنطلق، فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي أمتي. فيقول: انطلق فأُخرِج من كان في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجه من النار. فأنطلق فأفعل...».

قال الإمامُ ابْنُ كثيرٍ رحمه الله تعالىٰ: «يخبر تعالىٰ عن هَوْل القيامة، وما يكون فيها من الأمور العظيمة، فمنها: انشقاق السَّمَاء، وتَفطُّرها، وانفراجها بالغمام، وهو ظلُّ النُّور العظيم الَّذي يبهر الأبصار، ونزول الملائكة من السَّماوات يومئذٍ، فيُحِيطُون في مقام المحشر، ثمَّ يجيء الرَّبُّ -تبارك وتعالىٰ- لفصل القضاء». اهـ[1].

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٥).

١٠- إثبات الوجه لله تعالى

وَقولُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨].

التعليق

في هاتين الآيتين إثبات الوجه لله ﷻ إثباتًا يليق بجلاله من غير تعطيل ولا تحريفٍ (أي: تأويل)، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ (أي: تشبيه)، فمَنْ يؤولون الوجه بالذَّات مخطئون، ومن يُعطِّلون هذه الصفة أو يُحرِّفونها مخطئون، وَكَذَلِكَ يُمثِّلونها أو يُكيِّفونها فهؤلاء أيضًا مخطئون، والحقُّ إثْباتُها، أي: إثبات صفة الوجه علىٰ الوجه اللَّائق به ﷻ، فكما أنَّا نُثبت له ذاتًا لا تُشْبِه الذَّوات، فإنَّا نُثْبِتُ له صفاتٍ لا تُشْبِه الصِّفات.

وقد سبق أَنْ مَثَّلنا بالحياة؛ أي: أنَّ الله يُوصَف بالحيِّ، والعبد يُوصَف بأنَّه حيٌّ؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم:١٩]، فإذا وصفنا الله بأنَّه حيٌّ؛ فإنَّ حياته لا تُشْبِه حياة المخلوقين، إِذْ إنَّ حياة المخلوقين مَسْبُوقةٌ بعدمٍ، ومَتْبُوعةٌ بفناءٍ، وبقاؤها يَتوقَّف علىٰ إبقاء المُوجِد لها؛ سواءٌ بسببٍ؛ كالأكل والشُّرْب والنَّوم في حقِّ البشر، أو بغير

سببٍ؛ كالملائكة الَّذين خلقهم الله، فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ومع ذلك يبقون أحياءً حتَّىٰ يُنفَخَ في الصُّور النَّفْخة الأولىٰ الَّتي يموت منها النَّاس، فيموتون، والمُهِمُّ أنَّ حياة الملائكة سُبِقَتْ بِعَدمٍ، وأُتْبِعَتْ بفناءٍ، ثمَّ بعد ذلك يُحْيِيهم الله عَزَّوَجَلَّ حين يُحْيِي بني آدم، وغيرهم من المخلوقات، وأنَّ هناك فرقًا بين الحيِّ الَّذي لا يموت، والحيِّ الَّذي يموت، وكلٌّ منهما يُقَال له: حيٌّ.

إذًا؛ فلا مُشَابهة بين صفة الخالق والمخلوق، فإذا أَثْبَتَ اللهُ لنفسِهِ وَجْهًا لا يجري عليه الهلاك، فنحن نُثْبِتُ له ذلك؛ إيمانًا بكتاب رَبِّنا، وسُنَّة نَبيِّنا ﷺ.

١١- إثبات اليدين لله ﷻ في القرآن الكريم

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤].

التعليق

في هاتين الآيتين وغيرهما إثبات اليدين لله ﷻ إثباتًا يليق بجلاله من دون تحريفٍ ولا تمثيل (أي: تجسيم)، ولا تعطيل، ولا تكييف، بل يجب علينا أن نُثْبِتَ الصِّفات الذَّاتيَّة الواردة في كتاب الله أو في سُنَّة رسوله ﷺ على الوجه اللَّائق بالله تعالىٰ، وقَدْ أخبرنا الله ﷻ بأنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١].

وبأنَّه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

فإذا أثبتنا لله ﷻ صفةً من الصِّفات الواردة في الكتاب والسُّنَّة، فإنَّا نُثْبِتُها بمعناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة، ولكنَّنا نَكِلُ كَيْفيَّتها إلىٰ الله ﷻ، فلا

يجوز أن نخوض في الكيفيَّة، بل إنَّ الكيفيَّة عند أهل السُّنَّة والجماعة لا يجوز الخَوْض فيها، ولكن يُفوَّض عِلْمُها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ إنَّ اليد، والوجه، والكفَّ، والأصابع، والرِّجل والقَدَم والسَّاق، كلُّ هذه صفاتٌ ذاتيَّةٌ(١).

وهناك صفاتٌ فعليَّةٌ(٢)؛ كالاستواء، والنُّزول، والخلق، والإتيان والمجيء.

وهناك صفاتٌ فعليَّةٌ ذاتيَّةٌ؛ كالرِّضا، والغضب، والمحبَّة، والسُّخط، والكلام، وما إلىٰ ذلك.

فلا يجوز أن يُشبَّه اللهُ بصفات خَلْقه، ولا أن نُعطِّلها عن معناها، وقد تَقدَّم لنا قول مالكٍ: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ»(٣).

(١) وهي التي لا تنفك عن الذات أزلًا وأبدًا، ولا تتعلق بالمشيئة.

(٢) وهي تتعلق بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، وكلها صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

(٣) «مجموع الفتاوىٰ»، لابن تيمية، (٤/ ٤)، و«الاعتصام»، للشاطبي، (١/ ٢٢٩).

١٢- إثبات العينين لله تعالى

وَقَولُهُ: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور:٤٨]، ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩].

التعليق

في هذه الآيات إثبات أنَّ لله عينين، وهذه من الصِّفات الذَّاتيَّة الَّتي يجب إمْرارُها كما جاءت، والإيمان بها علىٰ الوجه اللَّائق به ﷻ.

وكما سبق أَنْ قلنا: إنَّ كيفيَّة صفات الله ﷻ يجب تَفْويضُها إلىٰ الله ﷻ؛ فنحن نؤمن أنَّ لله عينين، ولكن نقول: نؤمن بصفات الله علىٰ الوجه اللَّائق بالله سبحانه من غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ (تشبيهٍ)، ولا تحريفٍ (تأويل)، ولا تعطيل، وقد قال النَّبيُّ ﷺ عندما ذكر الدَّجَّال بأنَّه أعور: «**إنَّ ربَّكم ليس بأعور، وإنَّ الدَّجَّال أعور، عينُهُ اليمنىٰ كأنَّها عنبةٌ طافيةٌ**»(١).

---

(١) أخرج البخاري (٣٤٣٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: ذكر النبي ﷺ، يومًا بين ظهري الناس المسيح الدجال، فقال: «**إنَّ الله ليس بأعور، ألا إنَّ المسيح الدجال أعور العين اليمنىٰ، كأنَّ عينه عنبة طافية**».

والعَوَرُ: هو خراب إحدىٰ العينين، أو ذهاب نورها.

أمَّا كونه جاء في هذه الآيات بالجمع والإفراد: «فإنَّ لغة العرب جاءت بإفراد المضاف، وتثنيته، وجمعه، بحسب أحوال المضاف إليه، فإنْ أضافوا الواحد المُتَّصل إلىٰ مفردٍ، أفردوه، وإنْ أضافوا إلىٰ جمعٍ ظاهرٍ أو مُضْمرٍ، فالأحسنُ جَمْعُهُ مشاكلةً للَّفظ؛ كقوله سبحانه: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾.

وكقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١].

وإنْ أضافوه إلىٰ اسمٍ مُثنًّىٰ، فالأفصحُ في لُغَتِهِمْ جمعه؛ كقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، وإنَّما هما قلبان.

فلا يلتبس علىٰ السَّامع قول المُتكلِّم: نراك بأعيننا، ونأخذ بأيدينا، ولا يَفْهمُ منه بَشَرٌ علىٰ وجه الأرض عيونًا كثيرةً علىٰ وجهٍ واحدٍ، والله أعلم». انتهىٰ ما أفاد به الشَّيخ صالح فوزان الفوزان علىٰ «شرحه للعقيدة الواسطيَّة» (ص٥٩)، طبعة مكتبة المعارف.

١٣- إثبات السمع والبصر لله تعالى

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:١٤]، ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

التعليق

أقول: في هذه الآيات إثبات السَّمْع والبصر لله تعالىٰ علىٰ الوجه اللَّائق بجلال الله، وإذا كانت امرأة أوس بن الصَّامت قد دخلت علىٰ رسول الله ﷺ، وهو في بيت عائشة، واشتكت إليه حَالَها، وحالَ زَوْجِها، وتقول عائشة: «الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي وَسِعَ سَمعُهُ الأَصوَاتَ، لَقَد جَاءَتْ خَولَةُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشكُو زَوجَهَا، فَكَانَ يَخْفَىٰ عَلَيَّ كَلَامُهَا، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[1].

---

(١) أخرجه النسائي في «الصغرىٰ» (٣٤٦٠)، والبيهقي في «الصغرىٰ» (٣/ ١٣٨)(٢٧٣١)، وصَحَّحه الألباني رحمه الله في «ظلال الجنة» (٦٢٥).

ولا عجب؛ فالأمرُ أعظمُ من ذلك، فإذا كان الله يعلم وسواس النُّفُوس، وخطرات القلوب، فمِنْ بابِ أَوْلَىٰ أن يسمعَ خفيَّ القولِ وظَاهِرَه.

وإنَّ مِنَ الشُّبَه الَّتي يُلْقِيها أصحاب البدع؛ من جَهميَّةٍ، ومعتزلةٍ، وغيرهم؛ يزعمون بأنَّ في إثبات السَّمْع والبصر لله مشابهةً أو تشبيهًا له بالمخلوقين.

أمَّا الأشعريَّة فقد اعترفوا بسبعِ صفاتٍ(١)، وأوَّلوا الباقي.

وأمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه علىٰ الوجه اللَّائق بجلال الله، ويُفوِّضون الكيفيَّة لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ إلهًا لا يسمع ولا يبصر، ولا يَتَّصف بصفات الكمال، فإنَّه لا يصلح للأُلوهيَّة، وإذا كان المخلوق لا يسمع، فإنَّ ذلك يكون نقصًا فيه، وعيبًا في حقِّه، وكذلك مَنْ لا يبصر.

وإنَّ الواجبَ علىٰ المسلمين أن يثبتوا لله ما أثبته لنفسه علىٰ وجه الكمال اللَّائق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران:١١٨]، أي: أخبر الله بأنَّه سمع كلامهم.

وكذلك سائر الآيات يخبر الله عَزَّوَجَلَّ فيها بأنَّه يرىٰ ويسمع ما يقوله النَّاس، وما يعملونه، وما يَتقلَّبون فيه من أعمالٍ، وبالله التَّوفيق.

---

(١) وهي صفات الذات الفعلية التي يسميها المتكلمون صفات المعاني، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام. انظر «متن السنوسية».

١٤- إثبات المكر والكيد على ما يليق بجلاله

وقَولُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]، وَقَولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]، وَقَولُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠]، وَقَولُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥، ١٦].

التعليق

قال الشَّيخ صالح الفوزان حفظه الله: «قوله: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: الله سبحانه ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: المحال في اللُّغة: الشِّدَّة، أي: شديد الكيد. قال الزَّجَّاج: يُقَال: مَاحَلتُه محالًا إذا قاويته حتَّىٰ يَتبيَّن أيُّكما أشدُّ. وقال ابن الأعرابي: المِحَال: المكر، فهو سبحانه شديد المكر، وشديد الكيد، والمكر من الله: إيصال المكروه إلىٰ مَنْ يَسْتحقُّه من حيث لا يشعر».اهـ.

قلت: ومكر الله: استدراجه أيضًا.

وأقول: إنَّ هذه الصِّفات لا يجوز أن تُطلَق علىٰ الله إلَّا علىٰ سبيل المقابلة؛ فإذا سلك أعداء الله، وأعداء أوليائه طريقة المكر، والخداع، والكيد لدعوة الله،

ولأوليائه؛ فإنَّ الله ﷻ يجازيهم بأشدَّ من مكرهم، وأعمق من كيدهم.

وَلْنَتفكَّر كيف جعل الله ﷻ النَّار الَّتي تعب النَّمرودُ ومملكته في إيقادها.

فَأَوَّلًا: بَنَوْا لها سورًا عظيمًا حتَّىٰ لا تصل إليهم.

ثانيًا: ملؤوا هذا السُّور بالحطب.

ثالثًا: أضرموا فيه النِّيران.

رابعًا: رَمَوْا إبراهيم عليه السلام فيها من أجل أنَّه كسَّر أصنامهم، فعلوا به ذلك؛ انتصارًا لأصنامهم، فقال الله ﷻ لتلك النَّار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

وفي نهاية المطاف خرج إبراهيم عليه السلام مرفوع الرَّأس؛ لم تحرق النَّار إلَّا الحبل الَّذي أوثق به، وفي قدرة الله عجائبُ.

ولمَّا كان فرعونُ عدوَّ الله، وكان يُقتِّل أبناء بني إسرائيل؛ لأنَّه قال له كَهَنته: يُولَد غلامٌ من بني إسرائيل يكون زوالُ ملكك علىٰ يديه، فأراد الله ﷻ أن يُنْفِق علىٰ هذا الغلام، وأَنْ يتربَّىٰ في بيته، وعلىٰ فراشه، فأوحىٰ الله إلىٰ أُمِّه أن تُلْقِيه في التَّابوت، ثمَّ تلقيه في البحر، وأنفذ اللهُ مراده فيه، وأَنْفَقَ عليه؛ حتَّىٰ أعطىٰ أُمَّه الأجرة علىٰ رضاعته له، وشبَّ موسىٰ في بيت فرعون، وعلىٰ فراشه، وجاء بالرِّسالة بعد أن قتل من القِبْطِ رجلًا، وفرَّ منهم إلىٰ بلاد مَدْين، ثمَّ رجع مُؤيَّدًا بآيات الله، ومع ذلك لم يؤمن فرعون، ولم يُفِقْ إلىٰ رشده، فدعاه موسىٰ، ومكث زمنًا طويلًا، وكلَّما جاءته آيةٌ من الآيات الَّتي

أرسلها الله عليهم؛ كالطُّوفان، والضَّفادع، والجراد، والقُمَّل، والرِّجز، فزعوا إلىٰ موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٣٤].

وأخيرًا أَمَرَ الله عزوجل موسىٰ عليه السلام أن يسير ببني إسرائيل، فسار بهم حتَّىٰ بلغ البحر، فحجزهم البحر حتَّىٰ أقبل فرعون بِحَدِّه وحديده، وهناك خاف بنو إسرائيل من فرعون وقومه؛ لكثرتهم وقُوَّتهم، فأمر الله موسىٰ عليه السلام أن يضرب البحر، فضرب البحر، فانفتحت فيه اثنتا عشرة طريقًا يبسًا، وسلك كلُّ سِبْطٍ منهم في طريقهم الخاصِّ، وجاء فرعون يَقْدم قومه، فأدخله الله البحر راغمًا، ولعلَّهم قد عرفوا أنَّ هذه آيةٌ من الله لإهلاكهم، ولكنَّهم لم يستطيعوا الإحجام؛ لأنَّ فرعون إمامهم قَدْ دخل مُرغمًا حيث كان المُهر الَّذي هو عليه يسير بِقوَّةٍ، فدخلوا، فلمَّا خرج بنو إسرائيل كلُّهم، ودخل الأقباط فيه كلُّهم، أمر الله البحر فَالْتَأَمَ عليهم.

وهكذا اليهود، لمَّا كادوا لعيسىٰ عليه السلام، رَفَعه الله إليه، وألقىٰ شَبَهه علىٰ أحد الحَواريِّين، فقتلوه، وظنُّوا أنَّهم قتلوا عيسىٰ عليه السلام، وما كانت إلَّا فتنةً لهم، أمَّا عيسىٰ عليه السلام، فهو في السَّماء حيٌّ إلىٰ الآن، وهكذا يكيد الله لأعدائه؛ جزاءً لهم علىٰ كيدهم لأوليائه، فيمكر بهم جزاءً لهم علىٰ مَكْرِهم بأوليائه.

ولمَّا اجتمعت قريشٌ؛ ليروا في النَّبيِّ ﷺ رأيهم حسب زعمهم، عند ذلك حبَّذَ إبليس الَّذي حضر الجلسة علىٰ صورة شيخٍ من أهل نجد ما قاله أبو جهلٍ؛ وهو أن يختاروا اثني عشر شابًّا، كلُّ واحدٍ منهم يُعطَىٰ سيفًا صارمًا،

فإذا خرج النَّبيُّ ﷺ ضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فَيتفرَّق دَمَهُ في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتالهم، ويرضون بالعَقْل، وهي الدِّية.

ففعلوا، وخرج النَّبيُّ ﷺ، والقوم جلوسٌ خارج بابه ينتظرون خروجه، ليقتلوه، فألقىٰ الله تعالىٰ النَّوْم عليهم جميعًا، وخرج من بينهم، ويقال إنَّ النَّبيَّ ﷺ؛ قَدْ أَخَذ كفًّا من ترابٍ، فوزَّعه علىٰ رؤوسهم وسار، ولمَّا جاؤوا إلىٰ الغار أعمىٰ الله أبصارهم عنه.

والمهمُّ: أنَّ ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه من المكر بأعدائه، إنَّما يفعله الله جَلَّوَعَلَا، علىٰ سبيل المقابلة والانتصار لأوليائه.

وقَدْ قدَّمنا أنَّ أسماء الله حسنىٰ، فلا يُطلَق علىٰ الله إلَّا ما جمع صفة الكمال، وما لم يكن كذلك فلا يجوز أن يُطْلَق علىٰ الله، فلا يجوز أن نطلق علىٰ الله اسم: «ماكر» من المكر، ولا اسم: «خادع» من الخداع، ولا «كائد» من الكيد؛ لأنَّ هذه الصِّفة إذا انفردت فهي تكون صفةَ نقصٍ، ولَيْسَتْ صفةَ كمالٍ، وإنَّما تكون صفةَ كمالٍ إذا ذكرت علىٰ سبيل المقابلة؛ حين يبدأ أعداء الله، وأعداء أوليائه بالمكر والكيد والخداع، وما أشبه ذلك، فيكيدهم الله عَزَّوَجَلَّ، ويمكر بهم جزاءً لهم علىٰ ما فعلوا، وفيما ضربنا من الأمثلة كفايةٌ لبيان ذلك، وبالله التَّوفيق.

١٥- وصف الله بالعفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة

وَقَولُهُ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩]، ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وَقَولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وَقَولُهُ عَن إِبلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢].

التعليق

وأقول: في هذا المقطع وصفُ الله عَزَّوَجَلَّ بالعفو والمغفرة والرَّحمة، ولمَّا كان العفو والمغفرة والرَّحمة قَدْ تَحصَّل من المخلوق على سبيل الضَّعْف عن المقابلة وعدم القدرة، قُرِنَتْ غالبًا بالعزَّة والقدرة:

فقال جلَّ من قائل: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾، فأخبر جَلَّوَعَلَا بأنَّ العباد إنْ أبدوا الخير أو أخفوه، أو عَفَوْا عن سوءٍ؛ فإنَّ الله كان عفوًّا قديرًا، وعفوه ومغفرته ورحمته لأوليائه إكرامٌ منه لهم تَعَالَىٰ مع كمال قدرته وعزَّته، فالله إذا صدر منه العفو، وصدرت منه المغفرة والرَّحمة؛ فإنَّما يفعل ذلك إكرامًا لأوليائه كما قلنا، ولا يكون ذلك منه عجزًا عن الانتقام مِمَّنْ ناوأه وعصاه، ولكن إكرامًا

لأوليائه، وامتنانًا منه عليهم، وتفضُّلًا منه جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

وذلك أنَّ أبا بكرٍ كان ينفق علىٰ «مِسْطَح»؛ لقرابة أمِّه من أبي بكرٍ، وكان مسطح مِمَّنْ صرَّح بالإفك، فلذلك حلف أبو بكرٍ ألَّا ينفق عليه؛ جزاءً منه علىٰ ما فعل، ولكنَّ الله أمر أولياءه بالصَّفح والعفو؛ رغبةً أن يعفو الله عنهم، ويغفر لهم ذنوبهم، والله غفورٌ رحيمٌ(١).

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، هذه الآية نزلت في عبد الله بن أُبيٍّ حين قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾. فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ العزَّة له، ولرسوله، ولأوليائه المؤمنين.

قال ابْنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لهذه الآية من سورة (المنافقون): «قال مُحمَّد ابن إسحاق بن يسارٍ: حَدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنَّ عَبدَ الله ابن أُبَيٍّ -يعني- لمَّا بلغه ما كان من أمر أبيه، أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك تريد قَتْل عبد الله بن أُبَيٍّ فيما بلغك عنه، فإنْ كنت فاعلًا، فمُرْنِي به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله، لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرَّ بوالده منِّي، إنِّي أخشىٰ أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلىٰ قاتل عبد الله بن أُبيٍّ يمشي في النَّاس، فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافرٍ، فأدخل النَّار!

---

(١) قصة الإفك أخرجها البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فقال رسول الله ﷺ: «**بل نَترفَّق به، ونُحْسِن صحبته، ما بقي معنا**»(١).

وذكر عِكْرمةُ، وابن زيدٍ، وغيرهما: أنَّ النَّاس لمَّا قفلوا راجعين إلىٰ المدينة، وقف عبدُ الله هذا علىٰ باب المدينة، واستلَّ سيفه، فجعل النَّاس يَمرُّون عليه، فلمَّا جاء أبوه عبد الله بن أُبيٍّ قال له ابنه: وراءك. فقال: مَا لَكَ؟ وَيْلَكَ! فقال: واللهِ، لا تجوز من هاهنا حتَّىٰ يأذنَ لك رسول الله ﷺ، فإنَّه العزيز، وأنت الذَّليل.

فلمَّا جاء رسول الله ﷺ، وكان إنَّما يسير ساقةً، فشكا إليه عبد الله بن أُبيٍّ ابنَه، فقال ابنُه عبد الله: والله يا رسول الله، لا يدخلها حتَّىٰ تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أَمَا إذ أَذِنَ لك رسول الله ﷺ، فَجُزِ الآن.

وقال أبو بكر عبد الله بن الزُّبير في «مسنده»: حدَّثنا سفيان بن عُيَينة، حدَّثنا أبو هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ بن سلولٍ لأبيه: واللهِ، لا تدخل المدينة أبدًا حتَّىٰ تقول: رسولُ الله ﷺ الأعزُّ، وأنا الأذلُّ.

قال وجاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك تريد أن تقتل أبي، فوالَّذي بعثك بالحقِّ، ما تأمَّلت وجهه قطُّ هيبةً له، لئن شئتَ أن آتيك برأسه لأتينَّك، فإنِّي أكره أن أرىٰ قاتل أبي.اهـ(٢).

فالمهمُّ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنَّ له العزَّة، وأنَّه هو العزيز، وأنَّ العزَّة لأهل طاعته، والإيمان به، فَذِكْرُ العزَّة والقدرة حينما تذكر مع الرَّحمة والعفو

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٢).

والمقدرة لكمال عدلِهِ بين عبادِهِ، وأنَّه إنْ عفا وغفر ورحم؛ فإنَّما يفعل ذلك إكرامًا لأوليائه، ومَنْ يريد بهم الخير، وليس عجزًا ولا ضعفًا، كما يفعل ذلك المخلوقون في بعض الأحيان.

وقول إبليس، نعوذ بالله منه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: هذا إقسامٌ من إبليس، لعنه الله؛ بأنَّه سيُضِلُّ أكثر بني آدم، وذلك بتزيين الشَّهوات لهم، وإدخال الشُّبُهات عليهم حتَّىٰ يصيروا جميعًا من الغاوين؛ أي الخارجين عن طاعة الله، وطريقته، وطريقة رسله، إلىٰ طريقة أهل الزَّيغ والكفر والعناد، ولمَّا علم الخبيثُ أنَّ هناك فئةً لا يقدر عليهم، استثنىٰ، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٣].

والشَّاهد: وَصَف الله ﷻ بما في هذه الآيات من العفو والمغفرة والرَّحمة بالمؤمنين، ومن العزَّة والقدرة لله ﷻ علىٰ أعدائه، وبالله التَّوفيق.

١٦- إثبات الاسم لله ونفي المثل عنه

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٧٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

التعليق

قوله تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ﴾؛ أي: تكاثر، وكثر خيره، وكثرت نعمه. قال الإمام ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة»(١).

وعند القرطبي في «تفسيره»: «﴿تَبَارَكَ﴾ تَفَاعَل من البركة... وقال الحَسَنَ: تَقدَّس. وقيل: دَامَ؛ فهو الدَّائم الَّذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لدوامه».اهـ(٢).

وقوله: ﴿اسْمُ رَبِّكَ﴾ الاسم: هو الواحد من الأسماء؛ مثل: الرَّحمن، والغفور، والودود.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ١٣٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٩٢).

وقوله: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾:

﴿ذِي﴾؛ أي: صاحب ﴿الْجَلَالِ﴾؛ أي: العظمة، ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي: أنَّه تعالىٰ يكرم عباده المؤمنين.

قول الله تعالىٰ: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾؛ أي: أفرده بالعبادة؛ لأنَّ العبادة -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- لا تُسمَّىٰ عبادةً إلَّا مع التَّوْحيد.

وقوله: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾: الاصطبار: حبس النَّفْس علىٰ الصَّبر، وحفظها، ومنعها من التَّضجُّر والتَّسخُّط: ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾؛ أي: لفعلها، والعمل بها.

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾: الاستفهام هنا استفهامٌ إنكاريٌّ؛ أي: أنَّه لا يوجد له سَميٌّ، ولا يوجد له مُسَاوٍ، ولا مُضَاهٍ، ولا عديلٌ، فالله ﷻ منفردٌ بأسمائه وصفاته؛ أحدٌ فيها، لا يشركه غيره في معانيها، وإنْ كان قد يشاركه في لفظ الاسم غيره، لكن الحقيقة تختلف اختلافًا عظيمًا كالملك مثلًا، والعزيز، فيُقال للمخلوق: ملك، ولكن هو وملكه ملكٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا سُمِّي أحدٌ بـ «العزيز»؛ فإنَّ عزَّة الله عَزَّوَجَلَّ غير عزَّة المخلوق، إذ إنَّ المخلوق لا يكون عزيزًا إلَّا بعونٍ من الله وتأييده، ويكون معه مَنْ تكون له به عِزَّةٌ محدودةٌ، أمَّا عزَّة الله فليس لها حدودٌ.

والمهمُّ: أنَّ أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الثَّابتة له لا يجوز أن يشركه فيها أحدٌ، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾؛ أي: ليس له مكافئٌ ولا عديلٌ ولا نظيرٌ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أندادًا جمع ندٍّ، وهو ما ادُّعي مساويًا، يرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إذا عبد البشر مخلوقًا، فقد اتَّخذه ندًّا لله ﷻ، والله ليس له ندٌّ، ولهذا قال في فاتحة سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

ومع ذلك، فإنَّ الَّذين كفروا يجعلون عُدَلاء ونُظَراء لله، مع ما عند المخلوق من الضَّعف والفقر والعجز، فكلُّ مخلوقٍ ضعيفٌ وفقيرٌ وعاجزٌ أمام قدرة الله ﷻ، فالله له الغنىٰ المطلق، والقوَّة العظيمة، والقدرة الَّتي لا يعجزها شيءٌ، ومع ذلك فقد جعل هؤلاء المخلوقين أندادًا لله، وعُدَلَاء، ونُظَراء له.

والشَّاهد من الآيات: إثبات الاسم لله ﷻ الَّذي ينفرد به، ونفي السَّميِّ والكفء، والنِّدِّ، والعديل عنه ﷻ.

قال الشَّيخ صالح الفوزان حفظه الله: «وهذه هي الطَّريقة الواردة في الكتاب والسُّنَّة؛ فيما يُنفىٰ عن الله تعالىٰ، وهي أن يَنفي عن الله ﷻ كلَّ ما يضادُّ كماله الواجب من أنواع العيوب والنَّقائص».اهـ.

وأقول: إنَّ من أسماء الله ﷻ ما لا يجوز التَّسمِّي به لغيره أبدًا؛ كلفظ الجلالة (الله) فهذا الاسم لا يجوز لأحدٍ أن يَتَسمَّىٰ به، وهناك أسماء تجوز فيها مشاركة المخلوقين، كما مثَّلنا باسم الملك، واسم العزيز، واسم الحيِّ، ففي هذه الأسماء يُنفىٰ عن الله ﷻ النَّقائص والعيوب الَّتي تَعْتَري المخلوقين، ويُثبت له الكمال المطلق، وبالله التَّوفيق.

١٧- نفي الشريك عن الله تعالى

وَقَولُهُ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء:١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:١]، وَقَولُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:١، ٢]، وَقَولُهُ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١، ٩٢]، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل:٧٤]، ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

التعليق

استدلَّ المُؤلِّف بهذه الآيات علىٰ نفي الشَّريك عن الله تعالىٰ.

فالآية الأولىٰ صَدَّرها ﷻ بالحمد لنفسه علىٰ ما له من الكمالات الَّتي لا

يحتاج معها إلىٰ أحدٍ، فقال لعبده ورسوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾؛ أي: أَكْثِرْ من تحميد ربِّك علىٰ ما له من الكمالات، فهو سبحانه أهل الحمد، وصاحبه المستحقُّ له؛ لما له من الكمالات، ولما له من النِّعم؛ وهو كاملٌ في ذاته، غنيٌّ بنفسه؛ لا يحتاج إلىٰ مُؤازرٍ، ولا مُعَاونٍ: ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وارثًا له؛ إذ إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يموت فيُورَث، ولا يضعف فيحتاج إلىٰ مَنْ يُعِينُه؛ فهذه من صفات البشر، والله مُنَزَّهٌ عنها، وقَدْ قال ﷻ عن مُحمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١].

وهذا علىٰ سبيل التَّنزُّل، وإلاَّ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَتنزَّه عن الصَّاحبة والولد، بل أخبر جَلَّوَعَلَا بأنَّ السَّماوات تكاد تتفطر، والأرض تكاد أن تنشقَّ، والجبال تكاد أن تخرَّ هدًّا؛ غضبًا لله، وتنزيهًا لجلاله عن نسبة الولد إليه، وإنَّما يكون الولد لمَنْ يكون له مُجَانسٌ، وليس هناك مُجَانسٌ لله؛ أو عدلٌ له، أو نظيرٌ، والولدُ يُتَّخذ للمؤازرة والمعاونة، والله يُجَلُّ ويتنزَّه عن أن يكون له مُؤازرٌ أو معاونٌ؛ وإنَّما يُتَّخذ الولد لِيتَعزَّز به والده، وينصره علىٰ مَنْ ناوأه، واللهُ غنيٌّ عن ذلك كلِّه.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: لا يشاركه أحدٌ في ملكه، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

وقوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، فالعباد يَتعزَّزون

ببعضهم، كلٌّ يَتعزَّز بالآخر، ويَتَّخذ الآخرين أولياء من أجل أن يَتعزَّز بهم، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن بحاجةٍ إلىٰ وليٍّ يَتعزَّز به من الذُّلِّ؛ إذ إنَّه الغنيُّ بنفسه، والكامل بنفسه، القادر علىٰ كلِّ شيءٍ.

ثمَّ قال: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ أي: عَظِّمه تعظيمًا؛ لما له من الكمالات، ولما له من الغنىٰ عن غيره.

وفي الآية الثَّانية يخبر جَلَّوَعَلَا بأنَّه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خضوعًا له، وإجلالًا لعظمته، وكلُّهم مُعْترِفون له بالرُّبوبيَّة، وتَوحُّده بالتَّصرُّف والتَّدْبير.

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي آية الفرقان قال جلَّ من قائل: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾: دلَّ هذا علىٰ نفي الشَّريك له، لا في قدرته علىٰ الخَلْق، ولا في حكمته في الخَلْق الَّتي دلَّ عليها قوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

إنَّك لتنظر إلىٰ الآلاف من الخَلْق، بل إلىٰ الملايين، كلُّ واحدٍ فيه من الأعضاء ما في الآخر، ولكنَّك لا بدَّ أن ترىٰ في كلِّ واحدٍ منهم ملامحَ وصفاتٍ تُميِّزه عن الآخرين، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفي قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: هذا فيه ردٌّ علىٰ طوائفَ، وأعظم هذه الطَّوائفِ: النَّصارىٰ الَّذين زعموا أنَّ عيسىٰ ابن الله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك زعموا أنَّ

اليهود قتلوه، وصلبوه، ولم يَحْمِهِ الرَّبُّ الَّذي نسبوه إليه، وزعموا أنَّ له ابنًا، وهذا لو كان حقًّا في المخلوق لكان ذُلًّا به؛ إذ إنَّ الَّذي لا يدفع الضَّيْم عن ولده فهو ذليلٌ، وقد زعمت النَّصارىٰ مزاعمَ باطلةً، وإنَّ دينهم لمجموعةٌ من التُّرَّهات الَّتي لا يصدقها العقل، ولمَّا قيل لهم: كيف لم يدفع الرَّبُّ عن ابنه الَّذي تنسبونه إليه، مع أنَّ الرَّبَّ لا بدَّ أن يكون قادرًا؟ قالوا: ليتحمَّل الفِداء عن بني آدم وخطيئتهم، ما أعظمها من فريةٍ! وما أفظعه من كذبٍ!! وما أشدَّه من بهتانٍ! وسبحان مَنْ يحلم عنهم، ويُؤخِّر العقوبة عنهم، فلا يعجِّل بها!

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: أنَّ الله ﷻ لم يشاركه أحدٌ في ملكه، لا بقليلٍ، ولا بكثيرٍ، بل أخبر ﷻ بأنَّ له ملك السَّماوات والأرض، لم يشاركه فيهما أحدٌ، ولا بمثقال ذَرَّةٍ، قال تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

وقال في سورة فاطر: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، فهذا النَّفْي نفيٌ لكلِّ شراكةٍ؛ قلَّت أو كثرت، فلو أنَّ هناك شركاء مع الله، لطالب كلُّ واحدٍ منهم بنصيبه في الشَّراكة من ملك السَّماوات والأرض.

وسائر الآيات الَّتي استدلَّ بها شيخ الإسلام دالَّةٌ علىٰ نفي الشَّريك عن الله ﷻ؛ كما تَبيَّن لنا ممَّا سبق من الشَّرْح، نسأل الله أن يشرح صدورنا للإيمان به، ومعرفته حقَّ المعرفة.

وإنَّك لَتَعْجب كيف يذهب المشركون الخرافيُّون إلىٰ غير الله يطلبون منه ما لا يُطلَب إلَّا من الله؟! فيطلبون من هؤلاء -الَّذين اتَّخذُوهم آلهةً- إنزالَ المطر، وإعطاء الولد، والنَّصر علىٰ الأعداء، وتفريج الكرب، وإسداء النِّعم، يطلبون من آلهةٍ مزعومةٍ لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئًا، إنَّك لَتَعْجب كيف ذهبت عُقُولُهم؟!

ولكن لا عجب، فالله هو الَّذي يُوفِّق مَنْ يشاء، ويضلُّ مَنْ أراد مِمَّنْ كتب الله عليه الضَّلال، فإنَّه لا يهتدي، ومَنْ تَفضَّل عليه بالهداية، فإنَّه لا يقدر علىٰ إضلاله أحدٌ، فالأمر كلُّه بيد الله، ولله علىٰ النَّاس الحُجَّة الدَّامغة، وله فيهم الحكمة البالغة، فنسألك يا ربِّ ألَّا تضلَّنا بعد الهدىٰ، ونستجيرك من الغواية بعد الرشد، ومن الحَوْر بعد الكَوْر، وإنِّي لأوصي كلَّ مسلمٍ أن يسأل ربَّه الهدىٰ، ويستعيذ به من الغواية والضَّلالة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: لو أنَّ المخلوق من بني آدم خَلَقه آلهةٌ مُتعدِّدون، فخلق أَحَدُهُم جزءًا منه، وخَلَق الآخرُ جزءًا آخر، وخَلَق الآخرُ جزءًا غير جزء الأولين، لَقَال كلٌّ منهم: أنا أريد نصيبي من هذا الآدميِّ؛ قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]. الله أكبر! ما أعظم آيات ربِّنا، وأدلَّها علىٰ وَحْدانيَّته وتَفرُّده بالملك، واستغنائه عمَّن سواه، فأين عقول المشركين! اللَّهمَّ إنَّا نسألك أن تُعرِّفنا بنفسك، وما لها من

الصِّفات، ونسألك أن تُعرِّفنا بالمخلوقين، وما فيهم من الضَّعْف والمسكنة، ونحمدك علىٰ ما عَرَّفتنا بذلك، عرَّفتنا بالمخلوقين، وعَجْزِهم، وضَعْفِهم، وعَدم قُدْرتهم: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

وقول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]، أي: لا تُمثِّلوا الله بخلقِهِ.

قال ابْنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا تجعلوا له أندادًا وأشباهًا وأمثالًا، فالله ليس له شبيهٌ، وليس له عِدْلٌ، وليس له ندٌّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي أنَّه يعلم، ويشهد أنَّه لا إله إلَّا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره». اهـ[1].

وقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية بَيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحرَّم البغي بغير حقٍّ، والبغي هو التَّعدِّي علىٰ النَّاس بغير شيءٍ يُوجِب ذلك منهم.

ثمَّ إنَّ الشَّاهد في الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٥).

أي: لا تجعلوا شركاء في عبادته؛ فإنَّ ذلك موجبٌ لغضب الله علىٰ مَنْ أشرك، وأنَّ العبد يَسْتحقُّ بذلك إحباط العمل، وتَحتَّمَ الخلودُ في النَّار، كما هو مع معروفٌ من الآيات.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: ما لم ينزل به حُجَّة، فالسُّلطان هو الحُجَّة الَّتي يعتمد العبد عليها في عقيدته.

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وحَرَّم أن تقولوا عليه من الافتراء والكذب ما يُوجِب غضبه؛ مِنْ دَعْوىٰ الولد له، ودَعْوىٰ الشَّريك معه؛ لأنَّ ذلك كلَّه موجبٌ لغضب الله؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، وبالله التَّوفيق.

١٨-إثبات استواء الله على عرشه

وَقَولُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. فِي سَبْعةِ مَواضِعَ:

فِي سُورَةِ الأَعْرافِ قَولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس:٣].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢].

وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

وقَالَ فِي سُورَةِ الفُرقَانِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩].

وَقَالَ فِي سُورَةِ «آلم السَّجدَةِ»: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤].

وقَالَ فِي سُورَةِ الحَدِيدِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤].

التعليق

وأقول: في هذه السَّبْعة المواضع أخبر الله ﷻ عن نفسه بأنَّه استوىٰ علىٰ العرش بعد خَلْق السَّماوات والأرض.

والاستواء في اللُّغة: يُرَاد به العلو والاستقرار، وكذلك ارتفع وصعد، إلَّا أنَّ المراد به في هذه الآيات العلوُّ والاستقرارُ.

ولم يعدَّ السَّلف -رحمهم الله- قول الله ﷻ في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] من هذا المعنىٰ، وإنَّما المقصود منها أنَّه قصد إلىٰ السَّماء.

والاستواء له معانٍ:

فمتىٰ عُدِّي فإنَّه يُعدَّىٰ بـ: (علىٰ) إذا قصد به العلو والاستقرار.

ويُعدَّىٰ بـ: (إلىٰ) إذا كان معناه القصد إلىٰ الشَّيء، فقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾؛ أي: قصد إلىٰ خَلْقها.

ويُعدَّىٰ بالواو، ويُرَاد به المساواة، يُقَال: استوىٰ الماء والخشبة.

ويأتي بدون حرفِ تَعْدية، ويكون المقصود به: نضج وكمل، والله ﷻ يقول عن موسىٰ عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤].

إذًا؛ فالاستواء في هذه الآيات السَّبْع مُتَعدٍّ بـ: (علىٰ)، ومقصودٌ به العلوُّ والاستقرار، والله ﷻ أَمَرَنا إذا استوينا علىٰ المركوبات الَّتي سَخَّرها لنا من

إبلٍ وخيلٍ وبغالٍ وحميرٍ، ومن المصنوعات الحديثة؛ كالسَّيَّارة والطَّائرة، وما أشبه ذلك أن نَذْكُره، ونُسبِّحَه علىٰ تسخيره هذه المركوبات لنا، كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣، ١٤].

والمهمُّ: أنَّ هذه الآيات السَّبْع أخبر الله فيها عن نفسه أنَّه استوىٰ علىٰ العرش، وهذا الاستواء المُتعدِّي بـ: (علىٰ) يُؤدِّي معنىٰ علا واستقرَّ.

فيجب أن نعتقد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ استوىٰ علىٰ عرشه استواءً يليق بجلاله عَزَّوَجَلَّ، ويعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الله مستوٍ علىٰ عرشِهِ بذاتِهِ، بائنٌ من خَلْقِهِ، وعلمه بكلِّ مكانٍ، أي أنَّه مُطَّلعٌ علىٰ عباده، ومهيمنٌ عليهم، وقادرٌ عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ونأخذ من هذه الآيات: أنَّ الله مستوٍ علىٰ عرشه، فنُثْبِت له حُكْم الاستواء، ونُثْبِت له بأنَّه بائنٌ من خَلْقه، ونُثْبِت له أنَّه عالٍ علىٰ كلِّ مخلوقاته، ونُثْبِت له أنَّه مُطَّلعٌ علىٰ عباده، وعالمٌ بهم، وعالمٌ بكلِّ ما يجري منهم؛ من أعمالٍ، وحركاتٍ، ووساوسَ، وخطراتٍ، وأنَّه سميعٌ بصيرٌ، وأنَّه يَتصرَّف في عباده كيف يشاء، والمأثور عن السَّلف أنَّهم ينكرون السُّؤال عن كيفيَّة الاستواء، ولمَّا سئل مالكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ عن قولِهِ تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كيف استوىٰ؟ فأطرق، وعَلَتْه الرُّحَضَاء (أي: عَلَاه العَرَق)، ثمَّ قال: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ»[1].

---

(١) تقدم بيانُه.

فلا يجوز لنا أن نقول: كيف استوىٰ؟ ولا يجوز لنا أن نقبل هذا السُّؤال كما لم يقبله مالكٌ، وإنَّما علينا أن نؤمن بالاستواء علىٰ الوجه اللَّائق به ﷻ.

ونؤمن بأنَّ العرش سقف المخلوقات.

ونؤمن بأنَّ العرش يحمله ملائكةٌ؛ يحمله اليوم في الدُّنيا أربعةٌ، وإذا كان يوم القيامة يحمله ثمانيةٌ، كما قال ﷻ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧].

ونحكم علىٰ مَنْ أوَّل الاستواءَ بالاستيلاء بأنَّه مبتدعٌ، وبالله التَّوْفيق.

١٩-إثبات علو الله على مخلوقاته

وَقَولُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء:١٥٨]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ [غافر:٣٦، ٣٧]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦، ١٧].

التعليق

قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: يخاطب الله عَزَّوَجَلَّ عيسىٰ ابن مريم بقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ معنىٰ «مُتوفِّيك»: أي: بالنَّوم.

قال ابْنُ كثيرٍ رحمه الله تعالىٰ: «اختلف المُفسِّرون في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فقال قتادة وغيره: هذا من المُقدَّم والمُؤخَّر؛ تقديره: إنِّي رافعك إليَّ، ومُتوفِّيك، يعني بعد ذلك. قال علي بن أبي طلحة عن ابْنِ عبَّاسٍ: «إنِّي مُتوفِّيك؛ أي: مُمِيتك».

وقال محمد بن إسحاق عمَّن لا يُتَّهم، عن وهبِ بن مُنبِّه، قال: «تَوفَّاه الله ثلاث ساعاتٍ من النَّهار حين رفعه الله إليه».

قال ابن إسحاق: «والنَّصَارىٰ يزعمون أنَّ الله تَوفَّاه سبعَ ساعاتٍ، ثمَّ أحياه».

وقال إسحاق بن بشر عن وهب: «أماته الله ثلاثةَ أيَّامٍ، ثُمَّ بعثه، ثمَّ رفعه».

وقال مطر الورَّاق: أي: مُتوفِّيك من الدُّنيا، وليس بوفاة الموت، وكذا قال ابن جريج: تَوفِّيه هو رَفْعُهُ.

وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هنا: النَّوم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر:٤٢].

وكان رسول الله ﷺ إذا قام من النَّوم قال: «**الحمد لله الَّذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشور**[(١)]».اهـ. من تفسير ابن كثيرٍ رحمه الله تعالىٰ[(٢)].

وأقول: إنَّ القول الأخير هو الصَّحيح، وهو أنَّ المقصود بالوفاة هنا وفاة النَّوم، أي: إنِّي مُتوفِّيك بالنَّوم، ورافعك إليَّ في حالِ نَوْمك، وهذا القول الَّذي

---

(١) أخرج البخاري (٦٣١٢) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، ومسلم (٢٧١١) -واللفظ له- عن البراء رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ، كان إذا أخذ مَضْجعه قال: «**اللَّهمَّ باسمك أحيا، وباسمك أموت**»، وإذا استيقظ قال: «**الحمد لله الَّذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشُور**».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٦، ٤٧).

استدلَّ له من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وهو القولُ المُعْتمَد، إن شاء الله.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ إذ إنَّ الرَّفْع والصُّعود لا يكون إلَّا إلىٰ أعلىٰ.

وقوله: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾: كان فرعون مُتيقِّنًا أنَّ الله في العُلُوِّ، فلذا أراد أن يبحث عنه في العُلُوِّ، ولقد كان فرعون أحسن حالًا من المُعطِّلة الَّذين لا يُثبِتُون لله العُلوَّ، وإن كان فرعون بنفسه هو كاذبٌ بِادِّعائه ذلك، أي: بِادِّعَائه الوصول إلىٰ إله موسىٰ، وهو يعرف نفسه أنَّه كاذبٌ في ذلك، فسبحان مَنْ يُمهل ولا يُهمل، لَقَدْ غشيه الموت، فاعترف بأُلوهيَّة الله ورُبُوبيَّته حين لا ينفعه ذلك، ولو أنَّه آمن من قبل نزول العذاب به لكان خيرًا له؛ ولكن لله في خَلْقه شؤون.

ويستدلُّ بهذه الآيات علىٰ أنَّ الله في العُلوِّ، مستوٍ علىٰ عرشه، بائنٌ من خَلْقه، وعلمُهُ بكلِّ مكانٍ.

أمَّا قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾:

ويُسْتدلُّ أيضًا بهاتين الآيتين علىٰ أنَّ الله في السَّماء، أي: في العُلوِّ.

وإنَّك لتعجب مِمَّن يقرؤون القرآن، ويقرؤون السُّنَّة، ويبحثون فيهما، ويكتبونهما، وإذا أرادوا أن يُثْبِتوا وجود الله عَزَّوَجَلَّ، واستواءه علىٰ عرشه

تَلَعْثَموا، وزعموا أنَّ ذلك تشبيهٌ له بخَلْقِه، فهم إمَّا أن يقولوا إذا أرادوا إثبات ذات الله ﷻ: لا فوق العرش ولا تحته، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا يمين، ولا يسار، ولا أمام، ولا خلف، هذا أو قريبٌ منه قول الأشاعرة، وهذا كفرٌ بالله.

وأمَّا أن يقولوا بقول المُتأثِّرين بوحدة الوجود أو الحُلُوليَّة الَّذين يقولون: إنَّ الله في كلِّ مكانٍ، ويقصدون أنَّه في كلِّ مكانٍ بذاته، وهذا كفرٌ أيضًا من أعظم الكفر، نسأل الله العفو والعافية.

وإنَّ هذه الآيات الَّتي ذَكَرها المُؤلِّف وغيرها -دالَّةٌ على إثبات العُلوِّ لله ﷻ؛ عُلوِّ مكان، وعُلوِّ مكانةٍ؛ فعُلوُّ المكانة وعُلوُّ المكان، هو كونه فوق عرشه، عاليًا على جميع مخلوقاته، بائنًا منهم، هذه هي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة التَّابعين للكتاب والسُّنَّة الَّذين نَجَوْا من الكلام، ومعرَّة الكلام، وولَّوا وجوههم إلى رَبِّهم، فأخذوا عقيدتهم من كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ؛ وقَدْ مرَّ بنا إثبات الاستواء لله على العرش، وأنَّه استواءٌ يليق بجلاله ﷻ؛ فمَنْ قال خلاف ذلك فهو مبتدعٌ، ضالٌّ، مضلٌّ، مبطلٌ.

اللَّهمَّ أرنا الحقَّ حقًّا، وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلْتَبسًا علينا فَنَضِلَّ.

علمًا بأنَّ الاستواء معناه: الاستقرار على الشَّيء؛ **ولا يجوز أن نقول: بلا مُماسَّةٍ:**

١- لأنَّ ذلك لم يَرِدْ لا في الكتاب، ولا في السُّنَّة.

٢- ولأنَّه لم يقل بذلك أحدٌ من أهل السُّنَّة المُعتمد علىٰ قولهم، وما نقل عن الإمام أحمد؛ فإنَّه لا يصحُّ.

٣- أنَّ الاستواء علىٰ الشَّيء معناه: الاستقرار عليه، كما هو معلومٌ من اللُّغة، ومَنْ قال: «بلا مُماسَّةٍ»، فقوله هذا يَتنافَىٰ مع وَضْع الكلمة في اللُّغة العربيَّة.

والظَّاهر أنَّ قولهم: «بلا مُماسَّةٍ» أن هذه دسيسةٌ من أهل البدع، وقَدْ أحببتُ التَّنبيه علىٰ ذلك ليحذر طُلَّاب العلم من الاغترار بهذا، والله المُوفِّق.

٢٠-إثبات معية الله لخلقه

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، وَقَولُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة:٤٠]، وَقَولُهُ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

التعليق

في هذه الآيات إِثْباتُ مَعيَّة الله لخَلْقه، معيَّة علمِهِ، واطِّلاعِهِ، وهيمنته، فالآية الأولىٰ من سورة الحديد أخبر الله ﷻ بأنَّه خَلَق السَّماوات والأرض في سِتَّة أيَّام، ثمَّ استوىٰ علىٰ العرش، فلمَّا أخبر باستوائه علىٰ عرشه بعد خَلْق السَّماوات والأرض -دلَّ ذلك علىٰ أنَّه فوق العرش، بائنٌ من خَلْقه، فلربما

قال قائلٌ أَوْ تَوهَّم مُتوهِّمٌ أنَّه فوق العرش، لا يعلم ما دون ذلك مِمَّا في الأرض والسَّماء؛ فَبَيَّن ﷻ أنَّه مع عُلوِّه علىٰ عرشه، وكونه بائنًا من خَلْقه، يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، ويعلم ما ينزل من السَّمَاء، وما يعرج فيها، وأنَّه مع خَلْقه بعلمِهِ واطِّلاعه وهيمنته عليهم ﷻ.

ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: في أيِّ مكانٍ كنتم؛ سواء كنتم في فِجاج الأرض، أو في لجج البحار، أو في طبقات الهواء، كلُّ ذلك معلومٌ عنده، ومعروفٌ لديه، إذ إنَّه عالم الغيب والشَّهادة، فلا يظهر علىٰ غيبِهِ أحدًا، فهو بصيرٌ بأعمال عباده، ومُطَّلعٌ علىٰ حَركَاتِهم وسَكَناتِهم.

وأخبر في آية سورة المجادلة أنَّه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾؛ أي: لا أقل، ولا أكثر ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾.

فيا عبد الله، اعْلَمْ بأنَّ الله مُطلَّعٌ عليك، ومهيمنٌ عليك، ولا تظنَّ أنَّك مهما ناجيت أو جهرت أنَّه يَخْفَىٰ علىٰ ربِّك، بل هو معلومٌ ومكتوبٌ بدواوين عملك، ثمَّ أخبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وهذا إخبارٌ عن جملة الأشياء، أنَّه عليمٌ بها، ومُطَّلعٌ عليها، ومحيطٌ بها، ومِمَّن صدرت منه.

وقول النَّبيِّ ﷺ لصاحبه أبي بكرٍ حينما كان في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فهذه مَعيَّةُ رعايةٍ، ومَعيَّةُ إعانةٍ.

وقال تعالىٰ أيضًا لموسىٰ وأخيه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾: أخبر -جلَّ من قائل- بأنَّه مع المحسنين، وأنَّه مع المُتَّقين، وأنَّه مع

الصَّابرين؛ مَعيَّةً خاصَّةً كما تقدَّم، أي: مَعيَّة عنايةٍ ورعايةٍ.

ثمَّ ينبغي أن يُعْلمَ أنَّ المعيَّة تنقسم إلى قسمين:

١- مَعيَّةُ اطِّلاعٍ وهيمنةٍ علىٰ المخلوقات(١).

٢- مَعيَّةٌ خاصَّةٌ للمؤمنين، وهي مَعيَّةُ رعايةٍ وعنايةٍ وعونٍ للمحسنين الصَّابرين المُتَّقين، فهذه المعيَّة الخاصَّة فيها عنايةُ الله بالمؤمنين، ولطفُهُ بهم، وعونُهُ لهم، ودفاعُهُ عنهم: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج:٣٨].

فهذه المعيَّة مَعيَّةُ شرفٍ وتوفيقٍ وسدادٍ للمؤمنين المُتَّقين.

وَقَولُ الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ أي: معهم تعالىٰ برعايته، وعنايته، وتوفيقه، وتسديده.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ أي: يُعِينُهم تعالىٰ، ويُسدِّدهم، ويُوفِّقهم، فيكون توفيقُهُ وتسديدُهُ إيَّاهم بمنزلة القوَّة المادِّيَّة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ أي: كثيرًا ما تغلب الفئةُ القليلةُ الفئةَ الكثيرةَ؛ لأنَّها مع الله، فاللهُ أعانَها؛ لأنَّها معه، فَغَلَبَتْ؛ ومَنْ يكن اللهُ معه، فلا غالبَ له؛ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ ﴾، وبالله التَّوفيقُ.

---

(١) كما قال تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ﴾ [المجادلة:٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤]، وغيرها من الآيات.

٢١- إثبات الكلام لله تعالى

وَقَولُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]. ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١١٠]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وَقَولُهُ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]. ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، وَقَولُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠]، ﴿وَنَادَيْنَٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٢]، وَقَولُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح:١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧]، وَقَولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

التعليق

هذه الآيات يُؤخَذ منها إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ.

في الآية الأولىٰ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾: المراد بالحديث هنا: الكلام، أي: كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ صدقٌ لا كذبَ فيه، والاستفهام هنا استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا أصدق حديثًا من الله.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ «قيلًا» مصدر، وأصله: «قولًا»، ولمَّا كانت القافُ مكسورةً في المصدر، صار «قولًا»، فاستثقلت القاف بعد الكسرة؛ فأبدلت الواو ياءً، فصارت «قيلًا»؛ والقيل هو القول.

وقول الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: فيه إثبات القول لله عَزَّوَجَلَّ.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ أي: كلامه تعالىٰ، والكلمة هي اسمُ جنسٍ من الكلام، فكلام الله عَزَّوَجَلَّ يَتَّصف بالصِّدْق، فلا أَصْدَق من الله قيلًا، ويَتَّصف بالعدل، فكلام الله عدلٌ وحقٌّ، يضع الأشياء في مواضعها، فالصِّدقُ ضدُّه الكذبُ، والعدلُ ضدُّه الجَوْرُ، وكلامُ الله موصوفٌ بالصِّدقِ، فلا كَذِبَ فيه، وموصوفٌ بالعدل، فلا جَوْر فيه.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: فيه دليلٌ أيضًا علىٰ تمام كلام الله عَزَّوَجَلَّ في هاتين الصِّفتين: صدقُ القول، وعدلُ الحُكْم، فلن تجد في كلام الله ما ينافي الصِّدْق، ولن تجد فيه ما ينافي العدل.

والعدولُ من المؤمنين أتباع الرُّسُل يكون كلامهم مُتَّصفًا بالصِّدْق والعدل إلَّا أنَّه يدخله ما يدخله من حيث إنَّ الإنسان مهما بلغ في الصِّدْق -ما لم يكن نبيًّا معصومًا- فإنَّه قَدْ يدخل في قوله ما ليس بِصِدْقٍ، ويدخل فيه من الجَوْر ما ليس بعدلٍ، فيكون فيه النَّقص بقدر ذلك.

أمَّا كلام الله فهو موصوفٌ بالتَّمام في الصِّدْق الَّذي لا يدخله الكذبُ، والعدلِ الَّذي لا يدخله الجَوْر، فكلماتُ الله تَامَّةٌ من هاتين النَّاحيتين.

ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التَّامَّات من شرِّ ما خلق، ثلاث مرَّاتٍ، لم يضرَّه شيءٌ حتَّىٰ يرتحل من منزله ذلك**»(١)، فوصف كلمات الله بالتَّمام.

وكان يُعوِّذ الحسنَ والحسينَ، ويمسح رؤوسهما، ويقول: «**أُعيذكما بكلمات الله التَّامَّة من كلِّ شيطانٍ وهَامَّةٍ، ومن كلِّ عينٍ لامَّةٍ**»(٢).

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ «تكليمًا» مصدر «كلَّم»، وهذا المصدر أُتِيَ به -والله أعلم- ليُبيِّن أنَّه كلَّمه تكليمًا؛ لأنَّ فعل «كلَّم» رُبَّما يكون فيه من التَّوسُّع في اللُّغة، وأنَّه كتب إليه، أو كلَّمه بواسطةٍ، فلمَّا أُتِيَ بالمصدر «تكليمًا» انتفىٰ هذا، وتَعيَّن التَّكْليم المعروف، والحمد لله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

(٢) أخرج أبو داود (٤٧٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان النبي ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة**»، ثم يقول: «**كان أبوكم يعوِّذُ بهما إسماعيل وإسحاق**». قال أبو داود: «هذا دليل علىٰ أنَّ القرآن ليس بمخلوق»، وصَحَّحه الألباني رحمه الله في «المشكاة» (١٥٣٥).

وهذا فيه أعظم ردٍّ علىٰ مَنْ يَتأوَّلون الكلام، وبعضهم يقول: إنَّ الله خلقَ الكلام في الشَّجَرة، وغير ذلك، ففيه ردٌّ عليهم في هذا الادِّعَاء.

وقول الله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: منهم مَنْ كلَّمه الله، والمقصود به: موسىٰ عليه السلام.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، أي: الله ﷻ أخبر بأنَّه كلَّمه، فالضَّمير مفعولٌ لـ «كلَّمه»؛ والربُّ فاعل التَّكليم.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾، فالنِّداء هو الكلام المرتفع، والنَّجيُّ هو الكلام الخفيُّ؛ والنِّداء لا يكون إلَّا بالكلام بأنْ ينادي المُنادَىٰ باسمه.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: دعاه الله وأمره أن يأتي القوم الظَّالمين، فيدعوهم إلىٰ الله، ويأمرهم بعبادة الله.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ أي: نداء الله لآدم وحواء حينما

أكلا من الشَّجَرة، وبَدَتْ لهما سوءاتهما، فانطلقا يهرولان حياءً من الله، وخوفًا منه، وقال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ أي: ينادي المشركين علىٰ سبيل التَّأْنيبِ لهم بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾؛ أي: الجنُّ والإنس، فيقول: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؛ أي: هل أجبتموهم بالطَّاعة والمتابعة أم بالعصيان والمُشَاقَقة؟!

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وإنْ أَحَدٌ من المشركين استجار بك طالبًا منك الأمان علىٰ نفسه وماله أو عليهما، فأجِرْهُ، وأَسْمِعْه كلام الله، فإنْ قَبِلَه، وآمن به؛ فهو أخٌ في الإسلام، وإلَّا فأبلغه مَأْمَنَه بأن تُجِيرَهُ حتَّىٰ يعود إلىٰ وطنه وقومه، ثمَّ له حكم قومه من المحاربة والمهادنة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هَذَا يدلُّ علىٰ أنَّهم عَقَلوا كلام الله الَّذي أَمَرَ به، ولكنَّهم حَرَّفوه من بعد ما عقلوه، وجعلوا له معنًىٰ غير المعنىٰ المراد، مثل قول اليهود: «راعنا» يقصدون به من الرُّعونة، مع أنَّ المعنىٰ من الرِّعاية: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وكذلك قول الله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾؛ أي أنَّ المنافقين يذهبون مع النَّبيِّ ﷺ وأصحابه بقصد الإفساد، والعياذ بالله؛ فمُنِعُوا من أجل ذلك حتَّىٰ لا يسري فَسَادُهُمْ بين المؤمنين، وقَدْ قال الله عن المؤمنين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ [التوبة:٤٧]؛ أي: فيكم مَنْ يقبل كلامهم، ويَتأثَّر بهم، ويتَّبعهم.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ المراد بـ «كلماتِهِ» أي: كلمات الله القَدَريَّة، فلا مُبدِّل لها،

وكذلك كلماته القرآنيَّة محفوظةٌ من التَّبْديل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وَقَولُ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: يقصُّ من القصص، وهو الإخبار بالأمور الماضية أو الآتية، فيخبرهم بحقيقة ما اختلفوا فيه حتَّىٰ يَتبيَّن لهم مَنْ أصحابُ الحقِّ، ومَنْ لم يُصِبْهُ.

وأخيرًا في هذه الآيات إثبات الكلام؛ تارةً بالكلام، وتارةً بالقول أو القيل، وتارةً بالحديث، وتارةً بالنِّداء، وتارةً بوصف ما أوحىٰ الله إلىٰ رسوله أنَّه كتابه وكلماته.

ومن هذه الآيات أثبت أهل السُّنَّة والجماعة الكلامَ لله ﷻ؛ **وقالوا:** إنَّ الله يتكلَّم بكلامٍ قديمِ النَّوعِ، حادثِ الآحادِ، أمَّا أهل الأهواء فَقَدْ نَفَوْا صفة الكلام عن الله ﷻ، وزعموا أنَّ مَنْ أثبت الكلام لله، فقد شَبَّهه بخَلْقِهِ، ولهذا قال بعضهم: إنَّ القرآن يُوحَىٰ إلىٰ الرَّسول معناه، وهو يُعبِّر عن ذلك المعنىٰ، وقال بعضهم: إنَّ الله خَلَق الكلام في الشَّجَرة الَّتي كُلِّم منها موسىٰ، فردَّ عليهم أهل السُّنَّة والجماعة بقولهم: هل يصحُّ أن تقول الشَّجَرة: يا موسىٰ إنِّي أنا ربُّك فاخلع نعليك؟!

والحقُّ أن نقول: إنَّ الله يتكلَّم بكلامٍ قديمِ النَّوعِ، حادثِ الآحادِ، وقَدْ يكون الكلام نداءً عاليًا، وقَدْ يكون نجوىٰ؛ والنَّجوىٰ: هي المُخافتة، ويلزم من قول الجهميَّة والمعتزلة في نفيهم صفة الكلام عن الله ﷻ أنَّهم قَدْ

جَرَّدوه عن صفات الكمال، وشبَّهوه بالجماد الَّذي لا يتكلَّم.

نسأل الله العفو والعافية، اللَّهمَّ أرنا الحقَّ حقًّا، وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلْتَبسًا علينا فنَضِلَّ.

٢٢-إثبات تنزيل القرآن من الله تعالى

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:١٥٥]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠١-١٠٣].

التعليق

قول الله تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾: يُؤخذ منها أنَّ القرآن مُنزَّلٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالكتاب هو القرآن؛ وقَدْ أنزله علىٰ النَّبيِّ ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾؛ أي: كثير البركة؛ لهدايته للنَّاس إلىٰ ما ينفعهم في الدُّنيا والآخرة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: الجبل واحد الجبال، والجبال آيةٌ في الصَّلابة، وقَدْ أخبر الله ﷻ أنَّه لو أنزل القرآن علىٰ جبلٍ لرُؤيَ الجبل: ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

إذًا؛ فالقلوب الَّتي لا تخشع لسماع القرآن هذه أشدُّ من الجبال الصُّمِّ قسوةً.

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾: التَّبديل معناه النَّسخ، بأن ينسخ الله آيةً، ويجعل بدلها آيةً.

والنَّسْخ ينقسم إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- نسخُ تلاوةٍ.

٢- نسخُ حُكْمٍ.

٣- نسخُ تلاوةٍ وحُكْمٍ.

فنَسْخ التِّلاوة مع بقاء الحُكْم، مثل آية: «**الشَّيخ والشَّيخة إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهما ألْبَتَّة**»(١).

---

(١) أخرج ابن ماجة (٢٥٥٣) في «سننه»، وفيه: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن الصبَّاح قالا: ثنا سفيان بن عُيينة، عن الزُّهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: «لقد خَشِيتُ أن يَطول بالنَّاس زَمَانٌ حتىٰ يقول قائل: ما أَجِدُ الرَّجم في كتاب الله! فيَضلوا بترك فَريضة من فرائض الله؛ أَلَا وإنَّ الرجم حَقٌّ إذا أُحصن الرجلُ، وقامت البينةُ، أو كان حَمْلٌ، أو اعترافٌ، وقد قرأتُها: «**الشيخُ والشيخَةُ إِذَا زَنَيا فارْجُمُوهما**
=

ونَسْخُ الحُكْمِ مع بقاء التِّلاوة، مثل آية المصابرة الأولىٰ: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥].

ونَسْخُ التِّلاوة والحُكْمِ، مثل ما جاء في حديث عائشة: «كَانَ فِيمَا أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ عَشرُ رَضَعَاتٍ مَعلُومَاتٍ يُحَرِّمنَ، ثُمَّ نُسِخنَ بِخَمسٍ مَعلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُنَّ فِيمَا يُقرَأُ مِنَ القُرآنِ»(١).

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾: المراد بالتَّبديل الَّذي هو النَّسْخ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾؛ أي: نسبوا الرَّسول ﷺ إلىٰ الافتراء، وهو الكذب، قال الله ﷻ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والشَّاهد من الآية: أنَّ القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله، وأنَّ الله ينسخ بعض الآيات، ويُبْقِي بعضًا، قال جلَّ من قائل: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦].

فأخبر الله ﷻ أنَّه إذا نَسَخ آيةً، استبدل بها غيرها، فلابدَّ أن يكون البدلُ خيرًا منها، أو مثلها، والمقصود بالخيريَّة بأن تكونَ الآيةُ المُبْدَلة خيرًا للمُكلَّفين، أو الحُكْم المُبْدَل خيرًا للمُكلَّفين من الحُكْم الأوَّل.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: المقصود بـ «روح القدس»: جبريل عليه السلام.

=

ألبتة»، رَجَمَ رسولُ الله ﷺ، ورَجَمْنَا بعده»، وصحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح ابن ماجة» (٢٠٦٧)، وأصله عند مسلم (١٦٩١).

(١) أخرجه مسلم (١٤٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: كانت الكتب تنزل على الرُّسُل جملةً، أمَّا القرآن فَقَدْ نزل مفرَّقًا بحسب الحوادث من أجل أن يُثبِّت اللهُ عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بهذا التَّنْزيل.

ثمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾: القرآنُ معجزٌ بِأَلْفاظِهِ ومعانيه، لا يستطيع أيُّ بَشَرٍ كان أن يُعبِّر كتعبير القرآن، ولَقَدْ تَحدَّىٰ الله قمم البلاغة والفصاحة من العرب، وهم قريشٌ، تَحدَّاهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سورٍ من مثله، أو بسورةٍ من مثله، فعجزوا، فإذا كانوا عاجزين علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فكيف يستطيع بَشَرٌ لسانُهُ أعجميٌّ أن يأتي بمثل هذا القرآن، ويُعلِّم مُحمَّدًا إيَّاه، وهذا باطلٌ في العقل والشَّرع؛ وقَوْلهم هذا ما هو إلَّا كذبٌ وافتراءٌ.

والمهمُّ: أَنْ نأخذَ من هذه الآيات أنَّ القرآن كلام الله، وأنَّه مُنزَّلٌ من عند الله، وأنَّ الله نزَّله بحسب الوقائع لِيُثبِّت به المؤمنين، ويُفْحِم به الكافرين.

فإذَا افْتَرَوْا فِرْيةً، ردَّ الله عليهم فيها، وبيَّن كَذبَهم ودَجَلَهم وافْتراءهم علىٰ القرآن، ونبيِّ القرآن، ومنها أنَّ القرآن معجزٌ، لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، أو بعشرِ سُورٍ مثلِهِ، ولا بِسُورةٍ من مثلِهِ، وكَمْ تَحدَّىٰ الله الأمم به في كلِّ عصرٍ، وفي كلِّ بلدٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٢٣].

وقال تعالىٰ في سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٣٨]: مع أنَّ خصومَ القرآنِ ونبيِّ القرآن كثيرون، فهُمُ الَّذين يريدون أن يبطلوه، ويُبيِّنوا بطلانه، ولكنَّهم لم يستطيعوا، وأنَّ المُتنبِّئين الَّذين كانوا يعارضون القرآن بالأهازيج، صاروا ضُحكةً علىٰ مَرِّ الدُّهور، وَقَدْ ذهب عمرو بن العاص -وهو علىٰ كُفْرِهِ- إلىٰ نجدٍ لأخذ الميرة، فلقي مسيلمةَ، فقال له مسيلمةُ: «ماذا أُنْزِل علىٰ صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لَقَدْ أُنْزِلَ عليه سورةٌ وجيزةٌ بليغةٌ، فقال: وما هي؟

قال: أُنْزِلَ عليه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر].

قال: فَفكَّر مُسَيْلمةُ ساعةً، ثمَّ رفع رأسه فقال: ولَقَدْ أُنْزِل عليَّ مثلها، فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: «يا وَبْرُ يا وَبْرُ، إنَّما أنت إيرادٌ وصدرٌ، وسائرك حَفْر نَقْر»، ثمَّ قال: كيف ترىٰ يا عمرو؟ فقال له عمرو: واللهِ، إنَّك لتعلم أنِّي أعلم أنَّك تكذب»[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٩).

وهكذا يَتبيَّن أنَّ القرآن معجزٌ بألفاظه ومعانيه، وأنَّه لا يستطيع البَشَرُ أن يأتوا بمثلِهِ، أو بآيةٍ من مثلِهِ، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

وفي ذلك ردٌّ علىٰ مَنْ يزعمون أنَّ القرآن مخلوقٌ؛ كالمعتزلة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢]، وبالله التوفيق.

٢٣- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

وَهَذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّر القُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَىٰ مِنهُ، تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ.

التعليق

وأقول: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾: النُّضْرة وهي البهاء والحسن والرَّوْنق: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: هذا فيه إثبات الرُّؤية للمؤمنين، وأنَّهم يَرَوْن ربَّهم في الجنَّة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾: هذا فيه إثباتُ النَّظر لهم إلىٰ ربِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلىٰ ما يريدون من أنواع الملاذ في الجنَّة.

وقول الله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾: جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ رفعِ خبرٍ مُقدَّمٍ، وفعل

«أحسنوا» صلةٌ، أي: أحسنوا في أعمالهم؛ لمطابقتها شريعة الله ﷻ بإيقاعهم لها خالصةً لله ﷻ.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ، وهي الجنَّة.

قوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: معطوفٌ علىٰ «الحسنىٰ»، وهذه الزِّيادة قَدْ تَبيَّن أنَّها رؤية الله في الآخرة، وقَدْ ثبت ذلك عن جماعةٍ من الصَّحابة مرفوعًا وموقوفًا، وعن كثيرٍ من التَّابعين، وأتباعِ التَّابعين[1].

وبالجملة: فالمراد بـ «الزِّيادة» يشمل كلَّ ما يُؤتِي الله المؤمنين بعد دخول الجنَّة، وأحسنُهُ وأفضلُهُ النَّظرُ إلىٰ وجه الله ﷻ.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: في الجنَّة، وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ أي: كشفه للحُجُب عن وجهه، ورؤيتهم له بتمكينهم من ذلك، فتلكَ أفضلُ نعمةٍ يُنْعِمُ بها عليهم بعد دخول الجنَّة، وما يَلْقَون فيها من لَذَّاتٍ وحُبُورٍ ونعيمٍ.

أمَّا من السُّنَّة فقد ثبتت رؤية الله ﷻ أيضًا في أحاديثَ رواها الصَّحابة عن النَّبيِّ ﷺ، ومن جملة ذلك ما رواه أَبُو سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ أُنَاسًا فِي

---

(١) مِمَّن قَالَ بالزِّيادة من الصَّحابة، وأن المقصود بها: النظر إلىٰ وجه الله الكريم: أبو بكر الصِّديق، وحذيفة، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسىٰ الأشعري، رضي الله عنهم وأرضاهم.
ومن التَّابعين: الحَسَن البَصْري، وقَتَادة، وعامر بن سعد البَجَلي، وعبد الرَّحمن بن أبي ليلىٰ، رَحِمَهُمُ الله رحمةً واسعةً. انظر: «تفسير الطبري» عند تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

زَمَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَل نَرىٰ رَبَّنَا يومَ القِيَامَةِ؟

قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**نَعَم، هَل تُضَارُّونَ فِي رُؤيَةِ الشَّمسِ بِالظَّهِيرَةِ، ضَوءٌ لَيسَ فِيهَا سَحَابٌ؟**». قَالُوا: لَا.

قَالَ: «**وَهَل تُضَارُّونَ فِي رُؤيَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدرِ، ضَوءٌ لَيسَ فِيهَا سَحَابٌ؟**». قَالُوا: لَا. قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤيَةِ اللهِ ﷻ يَومَ القِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤيَةِ أَحَدِهِمَا...**»[1].

وقَدْ قال أهل العلم في ذلك: إنَّ هذا تشبيهٌ للرُّؤية بالرُّؤية، لا للمرئيِّ بالمرئيِّ، ومعنىٰ ذلك أنَّنا نرىٰ الشَّمس والقمر رؤيةً بلا إحاطةٍ، فكذلك رؤية المؤمنين لربِّهم في الجنَّة، فهي رؤيةٌ بغيرِ إحاطةٍ، فكما أنَّ النَّاس يَرَوْن الشَّمس والقمر في الدُّنيا حينما تكون هذه الرُّؤية في يومٍ صَحْوٍ، أو في ليلةٍ بدونِ سحابٍ، فكذلك أيضًا المؤمنون، يَرَوْن ربَّهم يوم القيامة رؤيةً بدونِ إحاطةٍ، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السنة

فصلٌ

ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالسُّنَّة تُفَسِّرُ القُرآنَ، وَتُبيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيهِ، وَتُعَبِّرُ عَنهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتي تَلَقَّاهَا أَهلُ المَعرِفَةِ بِالقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

التعليق

أقول: سُنَّة الرَّسُول ﷺ هي المصدرُ الثَّاني، وهي المُبيِّنة لكتاب الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

وقال جلَّ من قائل: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

إذًا؛ فالسُّنَّة يجب الأَخْذُ بها لِتُبيِّن المجملات، وتُخصِّص العمومات

لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن، وأنزل بإزائه السُّنَّة، فالقرآن منزلٌ بألفاظه ومعانيه، ومعجزٌ للفُصَحَاء، تَحدَّىٰ قمم البيان من العرب أن يأتوا بمثله، أو يأتوا بعشرِ سورٍ مثله، أو بسورةٍ من مثله، والسُّنَّة وحيٌ من الله أيضًا، والرَّسول ﷺ هو المُعبِّر فيها.

وقال -صلوات الله وسلامه عليه- في حديث المِقدَام بنِ مَعدِ يكَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ؛ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبعَانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيكُم بِهَذَا القُرآنِ، فَمَا وَجَدتُم فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ**»(١).

فما وصف به الرَّسول ﷺ ربَّه، فنحن نصفه به، وما سَمَّىٰ رسولُ الله ﷺ ربَّه به من الأسماء الحسنىٰ، فنحن نُسمِّيه به؛ لأنَّ الله يقول عن نَبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤]، غير أنَّه لا بدَّ أن يلاحظ في ذلك الصِّحَّة وشروطها عند أهل العلم، أصحاب المصطلح، **والصَّحيحُ عندهم ما جمع شروطًا خمسةً:**

الشَّرط الأوَّل: عدالةُ الرَّاوي.

الشَّرط الثَّاني: ضبطه.

الشَّرط الثَّالث: اتِّصال السَّنَد، بحيث يحمل كلُّ جيلٍ عن الجيل الَّذي قبله، هذه الشُّروطُ الثَّلاثة شروطُ وجودٍ وإثباتٍ.

وهناك شرطان هما شَرْطَا سلبٍ وسلامةٍ:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وَصَحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٤٤٠٨).

فالشَّرط الرَّابع: سلامة المتن والسَّند من العلَّة.

والشَّرط الخامس: سلامتهما من الشُّذُوذ، فمتىٰ تَوفَّرت في الحديث هذه الشُّروط، فهو صحيحٌ بتصحيحِ أئمَّة الجرح والتَّعديل، وما كان كذلك، وجب أَخْذه، وحَرُم ردُّه؛ سواء كان متواترًا أو من الآحاد، والله ﷻ قال في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات:٦].

فأَمَر الله بالتَّبيُّن في خبر الفاسق؛ ومعنىٰ ذلك أنَّ خبر العدل علىٰ خلاف ذلك، وأنَّه مأخوذٌ ومُتعبَّدٌ به، وتقوم به الحُجَّة، ويلزم به العمل، وعلىٰ هذا دَرَج أهل العلم من أئمَّة الجرح والتَّعْديل في الحديث، والاستدلال علىٰ ذلك بقصَّة أصحاب المسجد الَّذي في بني عمرو بن عوف؛ حين نزل تحويل القبلة إلىٰ الكعبة، فمرَّ بهم في صبيحة تلك اللَّيلة رجلٌ من المسلمين وهم يُصلُّون، مُتَّجهين إلىٰ بيت المقدس، فخاطبهم وهم في صلاتهم بقوله: «أَلَا إِنَّ القِبلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ، فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحوَ القِبلَةِ»(١)، فَتَحوَّلوا في صلاتهم، ولم ينتظروا إلىٰ كمالها لِيتَأكَّدوا من الخبر.

وقد أرسل النَّبيُّ ﷺ إلىٰ ملوك ذلك الزَّمن، وكتب معهم كتبًا، وأرسل إلىٰ كلِّ مَلِكٍ رسولًا يحمل كتابه، صلوات الله وسلامه عليه، ولزمت أولئك الملوك الحُجَّة، ولم يُعذَروا في تَرْكهم للأَخْذ بالإسلام من أجل أنَّ الرَّسول

(١) أخرجه مسلم (٥٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

واحدٌ، حتَّىٰ جاءت فرقة المعتزلة، فزعمت أنَّ أخبار الآحاد لا تُقبَل[١]، ومنهم مَنْ يقول: إنَّ أخبار الآحاد تُقبَل في الفروع، ولا تُقبَل في العقائد، وقَدْ ردَّ عليهم أهل الحديث بالأدلَّة الثَّابتة من السُّنَّة الَّتي أشرنا إلىٰ بعضها.

ومن هنا نقول: إنَّ ما ثَبَت عن النَّبيِّ ﷺ من الأسماء والصِّفات؛ فإنَّ الواجب علينا أن نأخذ به، ونعتقده بقلوبنا، ونقرُّ به بألسنتنا، وندعو إليه، هذا هو الحقُّ الَّذي دَرَج عليه أهل الحديث من زمن الصَّحابة إلىٰ الآن، ولهذا فإنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ استدلَّ علىٰ إثبات الأسماء والصِّفات بالآيات الواردة في ذلك، ثمَّ عقد هذا الباب للاستدلال بما ورد في السُّنَّة في البحث الآتي، فقال:

---

(١) يعني مطلقًا، لا في الفروع، ولا في العقائد.

١- ثبوت النزول الإلهي على ما يليق بجلال الله

فَمِنْ ذَلِكَ: مِثلُ قَولِهِ ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا كُلَّ لَيلَةٍ حِينَ يَبقَىٰ ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَستَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسأَلُنِي فَأُعطِيَهُ؟ مَنْ يَستَغفِرُنِي فَأَغفِرَ لَهُ؟ »، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

التعليق

أقول: إنَّا نعتقد ثُبُوت النُّزولِ الإلهيِّ من عرشه إلىٰ السَّماء الدُّنيا: «حِينَ يَبْقىٰ ثُلُثُ اللَّيل الآخِرِ»(٢)، وفي بعض الألفاظ: «إِذَا مَضَىٰ شَطرُ اللَّيلِ أَو ثُلُثَاهُ، يَنزِلُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنيَا، فَيَقُولُ: هَل مِنْ سَائِلٍ يُعطَىٰ؟ هَل مِنْ دَاعٍ يُستَجَابُ لَهُ؟ هَل مِنْ مُستَغفِرٍ يُغفَرُ لَهُ؟ حتَّىٰ يَنفَجِرَ الصُّبحُ»(٣).

ونؤمن بصفة النُّزول الإلهيِّ، وهي من الصِّفات الفعليَّة علىٰ ما يليق بجلاله ﷻ ولا يجوز أن نُشبِّهه بالمخلوقين، أو نمنع النُّزول خوفًا من التَّشْبيه، ولا يجوز أن نقول: هل خلا منه العرش وقتَ النُّزول، أَوْ لم يخلُ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

منه؟ فإنَّ هذا لم يَرِدْ عن النَّبيِّ ﷺ. وخُلوُّ المكان الَّذي انتقل الشَّخص منه، ووُجُودُه في المكان الَّذي انتقل إليه، هذا من صفات المخلوقين، ولم يَرِدْ في الشَّرع شيءٌ من ذلك في حقِّ الله تعالىٰ، ولا يجوز إيراد هذا السُّؤال؛ لأنَّه بدعةٌ، بل الواجب علينا أن نؤمن بما ثبت في هذا الحديث، وما في معناه علىٰ الوجه اللَّائق به ﷻ من غير تشبيهٍ (تمثيلٍ)، ولا تعطيلٍ، ولا تحريفٍ، ولا تكييفٍ، وبالله التَّوفيق.

٢-إثبات أنَّ الله يفرح ويضحك

وَقَولُهُ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبدِهِ المُؤمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

وَقَولُهُ ﷺ: «يَضحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَينِ يَقتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، كِلَاهُمَا يَدخُلُ الجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(٢).

التعليق

أقول: عندنا الآن صفتان كلتاهما فعليَّةٌ: الفرح، والضَّحك، ثبتت هذه

---

(١) أخرج البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) -واللفظ له- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتىٰ أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلىٰ مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتىٰ أموت، فوضع رأسه علىٰ ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده».

(٢) أخرج البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠) -واللفظ له- عن أبي هريرة، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يضحك الله إلىٰ رجلين، يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخل الجنة»، فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «يقاتل هذا في سبيل الله عز وجل، فيستشهد، ثم يتوب الله علىٰ القاتل، فيسلم، فيقاتل في سبيل الله عز وجل فيستشهد».

الصِّفات بالسُّنَّة، ونحن نؤمن إيمانًا لا يُسَاوره شكٌّ -والحمد لله- أنَّ لله صفاتٍ كاملةً ككمالِ ذاتِهِ تعالىٰ، فكما أنَّ له ﷻ ذاتًا لا تشبهه الذَّوَات، فكذلك له صفاتٌ لا تُشْبِهه الصِّفات، وقَدْ أخبر الله تعالىٰ عن نفسه بأنَّه ليس كمثله شيءٌ، وهو السَّميع البصير.

وإذا أثبتنا لله الفرح، أو أثبتنا له الضَّحك، أو أثبتنا له العجب؛ فإنَّ صفاته هذه لا تُشْبِه صفات المخلوقين، بل هي تليق بجلاله ﷻ فكما أنَّ له ذاتًا لا تُشْبِه الذَّوات، فكذلك له صفاتٌ لا تشبه الصِّفات، علمًا أنَّ الفرح والضَّحك والعجب والكلام، كلُّها صفاتٌ فعليَّةٌ ذاتيَّةٌ.

أمَّا الصِّفات الذَّاتيَّة مثل: الوجه، واليد، والأصابع، والكف، والرِّجل (القدم)، والسَّاق، والسَّمع، والبصر، فهذه صفاتٌ ذاتيَّةٌ كما سيأتي إثبات هذه الصِّفات.

٣- إثبات أنَّ الله يعجب ويضحك

وَقَولُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُربِ غِيَرِهِ، يَنظُرُ إِلَيكُم أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضحَكُ؛ يَعلَمُ أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيبٌ»، حَدِيثٌ حَسَنٌ(١).

التعليق

وفي هذا الحديث الَّذي أورده المُؤلِّف فيه إثبات صفة العجب والضَّحك علىٰ الوجه اللَّائق بجلاله ﷻ كما هي القاعدة الَّتي يسير عليها أهل السُّنَّة والجماعة في إثبات صفات الله ﷻ.

قوله: «وقُرْبِ غِيَرِهِ»؛ أي: علم أنَّ تغيير حالكم قريبٌ، فالغِيَر تغيير الحال، وعلىٰ روايةِ: «غياثه»(٢) فالأمرُ واضحٌ، وكلُّها تدلُّ علىٰ المعنىٰ الَّذي هو تغيير الحال من ضيقٍ وشِدَّةٍ إلىٰ فرجٍ ونعمةٍ.

---

(١) أخرج ابن ماجة (١٨١) عن أبي رُزين، قال: قال رسول الله ﷺ: «ضَحِكَ ربُّنا من قُنُوط عِبَاده وقُرب غِيَرِه». قال: قلت: يا رسول الله، أَوَيضحك ربُّنا؟ قال «نعم». قلت: لن نَعْدم من رب يضحك خيرًا. وضعَّفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف ابن ماجة» (٣١). وقوله: «وقُرب غِيَرِه»: أي: سرعة رحمته لهم، وتَغْيير ما نَزَل بهم من ضُرٍّ.

(٢) أخرج ابن بطة (٧/ ٩٢) (٦٧) عن أبي رزين العقيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ضَحِكَ رَبُّنا من قُنُوط عباده، وقُرب غِيَاثه» قال أبو رزين: يا رسول الله، أيضحكُ رَبُّنا؟ قال: «نعم، ولَن نَعْدم مِن رَبٍّ يَضحك خيرًا». وفي رواية: «وقُرْب غِيَرِه».

٤-إثبات الرِّجل (القدم) لله ﷻ

وَقَولُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلقَىٰ فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَل مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجلَهُ»(١). وَفِي رِوَايَةٍ: «عَلَيهَا قَدَمَهُ، فَيَنزَوِي بَعضُهَا إِلَىٰ بَعضٍ، فَتَقُولُ: قَط قَط» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(٢).

التعليق

أقول: إنَّ الرِّجل والقَدَمَ من الصِّفات الذَّاتيَّة لله ﷻ، وصفاته ﷻ سواء كانت ذاتيَّةً محضةً، أو ذاتيَّةً فعليَّةً، فإنَّها تليق بجلاله، لا يُشْبهه فيها أحدٌ من المخلوقين، فصفات المخلوقين المُحدَثين تليق بهم، وصفات الرَّبِّ ﷻ تليق به جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) روايةُ الرِّجل جاءت بلفظ: «يُلْقي اللهُ في النَّار أَهْلها، وتقول: هل من مزيد حتىٰ يَضعَ رِجْله أو قَدَمه فيها، فتقول: قَطْ، قَطْ». «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٢٣٥) (٥٣٩)، و«مسند أبي يعلىٰ الموصلي» (٥/ ٤٢٨) (٣١٤٠)، وحكم عليه حسين سليم أسد بأن إسنادَه صحيحٌ، و«مستخرج أبي عوانة» (١/ ١٥٩) (٤٥٩)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ١٩٠) (٧٥٤).

(٢) أخرج البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨) -واللفظ له- عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال جهنم يلقىٰ فيها وتقول: هل من مزيد، حتىٰ يضع رب العزَّة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلىٰ بعض وتقول: قط قط، بعزَّتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتىٰ ينشئ الله لها خلقا، فيسكنهم فضل الجنة».

ومن ناحيةٍ أخرىٰ، فإذا كان الله ﷻ قد أثبت بعض هذه الصِّفات لنفسه، فأنزلها في كتابه، أو أثبتها له رسولُهُ في سُنَّته والَّتي هي الوحي الثَّاني، فهل يليق أن يُقَال: إنَّ هذا تشبيهٌ لله بخَلْقِهِ؟

الجواب: لا، ومَنْ زعم هذا الزَّعْم؛ فإنَّ زَعْمَه باطلٌ، وما هذه إلَّا دسيسةٌ من أعداء الإسلام، يريدون بها إبطالَ صفات الله ﷻ، فَيتذَرَّعون إلىٰ تكذيب صفات الله، وإدخال النَّاس في تكذيبها بهذا الزَّعْم الباطل، وهو كونها تُشْبه صفات المخلوقين بالاسم، ونحن نقول: إنَّ الاتِّفاق في الاسم، لا يلزم منه الاتِّفاق في الحقيقة.

وقَدْ قال إمام الأئمَّة العالم مُحمَّد بن إسحاق بن خزيمة رحمه الله **في كتابه «التوحيد»**: «إنَّك لو قلت لواحدٍ مِمَّن يزعمون أنَّ إثبات الصِّفات تشبيهٌ، لو قلت له: إنَّ يدك يد خنزيرٍ، أو عينك عين كلبٍ، أو رجلك رجل قردٍ؛ لغضب منك أشدَّ الغضب، وبالإمكان أنَّه يقاتلك، ما هو السَّبب في غضبه هذا؟ يرىٰ أنَّك انْتَقصتَهُ، فَشَبَّهت عينه بعين الكلب، ويده بيد الخنزير، ورِجْله برِجْل القردِ، وما ذلك إلَّا لأنَّه يعتقد أنَّ هذه المخلوقات، وإن كانت هي والإنسان مخلوقاتٍ خَلَقها الله جميعًا إلَّا أنَّه يعتقد أنَّ فَضْلَ الإنسان علىٰ هذه المخلوقات واضحٌ، وأنَّك عندما تُشبِّه هذه الصِّفات منه بصفات الخنزير والكلب والقرد، تكون قَدِ انْتقَصتَهُ، فهو إذًا أثبت التَّفاضل بين مخلوقٍ ومخلوقٍ، فكيف لا يثبت التَّفاضل بين الخالِقِ والمخلوقِ.

وعلىٰ هذا، فإنَّ التَّفاضل بين الخالِقِ والمخلوقِ تفاضلٌ عظيمٌ، فصفات الله

لا تُشْبِهها صفاتٌ».

ونحن -مثلًا- نعتقد أنَّ الله حيٌّ، مع أنَّ المخلوق يُوصَف بأنَّه حيٌّ، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان:٥٨].

ويقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥].

ويقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم:١٩].

وأخبر عن الكُفَّار أنَّهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١].

وإذا كان الله ﷻ قد أطلق علىٰ نفسه اسم «الحي»، وأطلق علىٰ الإنسان اسم «الحي»، فهل يُقَال: إنَّه يلزم من التَّشابه في الاسم التَّشابه في الصِّفة؟

الجواب: لا، فحياةُ الله غير مسبوقةٍ بالعدم، ولا متبوعةٍ بالفناء، فهي كاملةٌ لا يَعْتَريها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، ولا تَتوقَّف حياتُهُ علىٰ شيءٍ، أمَّا حياة الإنسان فهي مسبوقةٌ بالعدم، ومتبوعةٌ بالفناء، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وبهذا نعرف الفرق بين صفة الله، وصفة غيره، ولو اتَّفقت في الأسماء، فَالاتِّفاق في الاسم لا يلزم منه الاتِّفاق في الحقيقة.

ونحن نومن بأنَّ الله سميعٌ بسمعٍ يسمع به جميع الأصوات، فلا تختلط عليه الأصوات مهما كثرت، فالنَّاس يرفعون إليه حاجاتهم، ويسألونه آناء اللَّيل وآناء النَّهار، ومع ذلك فهو يسمع سؤالَ كلِّ واحدٍ منهم علىٰ حدته مع

أنَّه جَلَّوَعَلَا يعلم ما تُوسْوِس به نفس العبد، فهو أقرب إليه من حبل الوريد.

فسبحان مَنْ لا يُشْبِهه أحدٌ من خَلْقه! ولا يُشْبِه أحدًا منهم! سبحان الكامل في ذاته وصفاته. وبهذا التَّحقيق يَتَّضح لطالب العلم الفرق الكبير والعظيم بين صفات الله وصفات خَلْقه، وأنَّ مَنْ يقولون: إنَّ الاشتراك في الاسم (أي: في اسم الصِّفة) يلزم منه المشابهة، أنَّ قولهم هذا قولٌ باطلٌ؛ سواء كانوا جهميَّةً، أو معتزلةً، أو أشعريَّةً، أو ماتريديَّةً، فكلُّهم قد ضَلُّوا عن الحقِّ، وبعدوا عن الصَّواب كلَّ البعد، وبالله التَّوفيق.

٥- إثبات النداء والصوت والكلام لله تعالى

وَقَولُهُ: «يَقُولُ تَعَالَىٰ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيكَ وَسَعدَيكَ، فَيُنَادِي بِصَوتٍ: إِنَّ اللهَ يَأمُرُكَ أَن تُخرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَىٰ النَّارِ» مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

وَقَولُهُ: «مَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، وَلَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تُرجُمَان»(٢).

التعليق

أقول: في هذين النَّصَّين إثبات النِّداء لله عَزَّوَجَلَّ، والكلام لله تعالىٰ، والنِّداء قَدْ ثبت في القرآن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٠، ١١].

والنِّداء لا يكون إلَّا بصوتٍ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثبت لنفسه النِّداء، وأثبته له رسولُهُ.

وكذلك قوله: «فينادي بصوتٍ»: فيه إثبات النِّداء بالصَّوت، ونحن نثبت ما أثبته الله لنفسه من الكلام والقول والنِّداء والصَّوت، وكلُّ ذلك سيحصل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يوم القيامة، فهو ينادي متىٰ شاء، ويَتكلَّم متىٰ شاء، وكيف شاء ﷻ؛ ولا يجوز أن نُؤوِّل (نُحرِّف)، أو نُعطِّل، أو نُشبِّه، أو نُكيِّف.

قوله: «**مَا مِنكُم مِن أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تُرجُمَانٌ**»؛ أي: ليس بينهما واسطةٌ يُترجِم الكلام الَّذي ليس بمفهومٍ، ويُعبِّر عنه بكلامٍ مفهومٍ، فإنَّ النِّداء والكلام والقول كلَّه باللُّغة العربيَّة الَّتي يفهمها العرب، ويوم القيامة يحتمل أنَّه يُكلِّم كلَّ قومٍ بلسانهم، ويحتمل أنَّه يُكلِّمهم باللُّغة العربيَّة، ويُفهِمُهم إيَّاها، فالكلام والنِّداء من الصِّفات الفعليَّة الَّتي يجب أن نثبتها لله عَزَّوَجَلَّ.

٦-إثبات علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه

وَقَولُهُ فِي رُقيَةِ المَرِيضِ: «رَبَّنا اللهَ الَّذي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسمُكَ، أَمرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرضِ، كَمَا رَحمَتُكَ فِي السَّمَاءِ اجْعَل رَحمَتَكَ فِي الأَرضِ، اغْفِرْ لَنا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنزِلْ رَحمَةً مِن رَحمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَىٰ هَذَا الوَجَعِ؛ فَيَبرَأُ» حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ(١).

وَقَولُهُ: «أَلا تَأمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» حَدِيثٌ صَحِيحٌ(٢).

وَقَولُهُ: «وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُم عَلَيهِ». حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ(٣). وَقَولُهُ لِلجَارِيَةِ: «أَينَ اللهُ؟»، قَالَت: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَت: أَنتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «أَعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ». رَوَاهُ مُسلِمٌ(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٠) (٢٤٠٣)، وأبو داود (٣٨٩٢)، والنسائي في «الكبرىٰ» (١٠٨٠٧)، وضعَّفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٥٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥١)، مسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرج أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٨٨، ٦٨٩) (١٧) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمس مئة عام، وما بين السماء الثالثة والتي تليها وبين الأخرىٰ مسيرة خمس مئة عام، وبين كل سمائين مسيرة خمس مئة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمس مئة عام، والعرش فوق الماء، والله عَزَّوَجَلَّ فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه».

(٤) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التعليق

أقول: في هذه الأحاديث إثباتُ علوِّ الله علىٰ خَلْقه، فقوله ﷺ في رقية المريض: «**ربَّنا الله الَّذي في السَّماء**» المقصود بالسَّماء هنا: العلوُّ، فهو علىٰ العرش جَلَّوَعَلَا؛ والعرش فوق المخلوقات كلِّها؛ والله فوق العرش، ولا يَخْفَىٰ عليه شيءٌ من أعمال العباد.

قوله: «**تَقدَّس اسْمُك**»: المراد بالتَّقديس: الإجلال والتَّعظيم.

قوله: «**أمرك في السَّماء والأرض كما رحمتك في السَّماء، اجعل رحمتك في الأرض**»: يُلاحَظ هنا أنَّ الأمر عامٌّ في السَّماء والأرض؛ وأنَّ الرَّحمة في السَّماء.

قوله: «**اغْفِر لَنا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ**»: لماذا خصَّ الله الطَّيِّبين، واللهُ ربُّ الطَّيِّبين وغيرهم؟ لأنَّ الطَّيِّبين هم الَّذين يؤمنون به، ويَتوكَّلون عليه، وَيتَّبعون أمره، فهذه رُبُوبيَّةُ عنايةٍ وإكرامٍ.

قوله: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»: هذا فيه إثبات عُلوِّ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ خَلْقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَقَولُهُ: «**وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُم عَلَيهِ**»: هذا بعض حديثِ عَبدِ اللهِ بْنِ عَمِيرَةَ عَنْ عَبَّاسِ بْنِ عَبدِ المُطَّلِبِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالبَطحَاءِ، فَمَرَّت سَحَابَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَدرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: قُلنَا: السَّحَابُ.

قَالَ: «**وَالمُزنُ**». قُلنَا: وَالمُزنُ.

قَالَ: «وَالعَنَانُ». قَالَ: فَسَكَتنَا.

فَقَالَ: «هَل تَدرُونَ كَمْ بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟» قَالَ: قُلنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعلَمُ.

قَالَ: «بَينَهُمَا مَسِيرَةُ خَمسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمسِ مِئَةِ سَنَةٍ، وَفَوقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحرٌ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَينَ رُكَبِهِنَّ وَأَظلَافِهِنَّ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، ثُمَّ فَوقَ ذَلِكَ العَرشُ بَينَ أَسفَلِهِ وَأَعلَاهُ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، وَاللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- فَوقَ ذَلِكَ، وَلَيسَ يَخفَىٰ عَلَيهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيءٌ»[1].

وفي روايةٍ: «هَل تَدْرُونَ مَا بُعْدُ مَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ؟» قَالُوا: لَا نَدرِي.

قَالَ: «إِنَّ بُعدَ مَا بَينَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ، أَو اثنَتَانِ، أَو ثَلَاثٌ وَسَبعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوقَهَا كَذَلِكَ؛ حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ»[2]، وهذا الاختلاف في التَّقْدير اختلافٌ في السَّير، فبِسَيْر الجمل والرجل يكون خمس مئة سنةٍ، وبمسيرة الخيل يكون ثلاثًا وسبعين، هكذا جمع بينهما.

ثمَّ قال ﷺ: «وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوقَ العَرشِ، وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُم عَلَيهِ»، وفيه إثباتُ عُلُوِّ الله ﷻ علىٰ مخلوقاته جميعًا، فهو ثابتٌ من هذه الأحاديث وغيرها، وبالله التَّوْفيق.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو داود (٤٧٢٣) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وضَعَّفه الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (١٢٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (١٢٤٧).

٧-إثبات معية الله لخلقه وأنها لا تنافي علوه فوق عرشه

وَقَولُهُ: «أَفضَلُ الإِيمَانِ أَن تَعلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيثُمَا كُنتَ»، حَدِيثٌ حَسَنٌ(١).

وَقَولُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجهِهِ، وَلَكِنْ عَن يَسَارِهِ، أَو تَحتَ قَدَمِهِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(٢).

وَقَولُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ وَالأَرضِ، وَرَبَّ العَرشِ العَظِيمِ، رَبَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ، مُنزِلَ التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفسِي وَمِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا.

أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّينَ، وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ»، رَوَاهُ مُسلِمٌ(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ٣٣٦) (٨٧٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤) وضعَّفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الضعيفة» (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (٤٠٨) من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (٣٠٠٨) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَولُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصوَاتَهُم بِالذِّكرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، اربعُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُم؛ فَإِنَّكُم لَا تَدعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِن عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

التعليق

وأقول: اللَّهمَّ علِّمنا ما جهلنا، وذَكِّرنا ما نسينا، وارزقنا العمل بما علمنا، وَزِدْنا علمًا إلىٰ ما علَّمتنا، إنَّك أنت العليم الحكيم.

أقول: الأدلَّة من الكتاب علىٰ إثبات مَعيَّة الله لخَلْقه، وأنَّها لا تنافي عُلوَّه فوق عرشه قَدْ تَقدَّمت، وهنا أَدلَّةُ السُّنَّة:

١- قوله ﷺ: «أَفضَلُ الإِيمَانِ أَن تَعلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيثُمَا كُنتَ»: العلم بمعيَّة الله عَزَّوَجَلَّ مَعيَّةُ عِلْمٍ واطِّلاعٍ وتدبيرٍ وهيمنةٍ، هذا هو الإيمان، ويُضَاف إلىٰ ذلك أن تعلم أنَّ الله مستوٍ علىٰ عرشه بذاته الكريمة، بائنٌ من خَلْقه، ومع ذلك فهو مُطَّلعٌ عليهم، عالمٌ بما يجري منهم، يراهم أينما كانوا، ويسمع حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم، ويعلم خطرات قلوبهم، ولحظات أبصارهم، ولفظات ألسنتهم، وهو مُطَّلعٌ عليهم بعلمِهِ وهيمنتِهِ وقدرتِهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٦٣٣) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٢- قوله صلوات الله وسلامه عليه: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُم إِلَىٰ الصَّلَاةِ؛ فَلَا يَبصُقَنَّ قِبَلَ وَجهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ**»؛ لأنَّ الملك كاتب الحسنات عن يمينه: «**فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجهِهِ، وَلَكِن عَنْ يَسَارِهِ، أَو تَحتَ قَدَمِهِ**».

فالنَّبيُّ ﷺ نهىٰ أمَّته أن يبصق أحدهم قِبَل وجهه إذا قام في الصَّلاة؛ لأنَّ الله قِبَل وَجْهِهِ، وقَدْ جاء في الحديث: «**إنَّ الله ينصب وجهه للمُصلِّي، فإذا قام أَحَدُكمْ في الصَّلاة، فلا يبصقنَّ قِبَل وجهِهِ**».

فعلينا أن نؤمن بهذا إيمانًا بلا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، فلا يجوز أن نُشبِّه، أو نُحرِّف، أو نُعطِّل، أو نُكيِّف؛ فإنَّ صفات الله ﷻ لا تَتَخيَّلها العقول، ولا تُكيِّفها المدارك، صفاتُ الله أعلىٰ مِمَّا نَتصوَّر، فما جاء من الله، أو من رسول الله ﷺ فهو حقٌّ وصدقٌ، ولا نشكُّ فيه أبدًا، يجب أن نؤمن به[1] كلَّ الإيمان مع علمنا أنَّ صفات الله أرفع مِنْ تَصوُّرنا، فعقولنا عاجزةٌ عن أن تَتَصوَّر ذلك.

وقَدْ يقول الشَّيْطان للإنسان: إذا كان قد ثبت أنَّ الله علىٰ عرشه بذاته، فكيف ينصب وجهه للمُصلِّي في الأرض؟ فإذا خطرت لك هذه الخاطرة، فانفث عن يسارك ثلاثَ مَرَّاتٍ، واسْتَعِذْ من الشَّيطان الرَّجيم ثلاثَ مَرَّاتٍ، وقل: آمنتُ بالله، وبما جاء عن الله في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله، علىٰ مرادِ اللهِ، ومرادِ رسولِهِ ﷺ؛ وللتَّصوُّر أنَّ عقلك عاجزٌ علىٰ أن يدرك ذلك.

---

(١) يعود الضمير إلىٰ ما جاء من الله، أو من رسوله ﷺ من الصفات، أو غيرها.

٣- قَولُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ وَالأَرضِ، وَرَبَّ العَرشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ، مُنزِلَ التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفسِي وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ، اقضِ عَنِّي الدَّينَ، وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ»: هذه من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الَّذي خلق السَّماوات السَّبْع، وخلق العرش الَّذي استوىٰ عليه، فهو ربُّ هذه الأشياء ومالكها.

أمَّا العرش؛ فهو مستوٍ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومُخْتَصٌّ به جَلَّوَعَلَا.

وأمَّا السَّماوات، فهي عامرةٌ بأملاكها، أي: بما جعل الله فيها من الملائكة، كلٌّ منهم له عبادةٌ يختصُّ بها دون غيره.

وأمَّا الأرض فقد خَلَق فيها من الأمم ما لم يعلمه ويُحْصِيه إلَّا هو، ينزل المطر عليها، ويخلق الحبَّ والنَّوَىٰ؛ فينبت منه ما يجعله الله رزقًا لمَنْ في الأرض من جنٍّ، وإنسٍ، وطيورٍ، وبهائمَ، وحشراتٍ، وغير ذلك، فكلُّهم مملوكٌ له جَلَّوَعَلَا؛ آخذٌ بنواصي العباد جميعًا.

وقوله: «أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ»: في هذا إثبات الأوليَّة لله عَزَّوَجَلَّ الَّتي لا ابتداء لها، ولا شيء قبلها.

وفي قوله: «وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ»: إثباتٌ لآخريَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهنا يأتي قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وفي قوله: «**وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ**»؛ أي: الظَّاهر بآياتك ومخلوقاتك الَّتي جعلتها دليلًا عليك، الَّتي لا يُحْصِيها مُحْصٍ، ولا يَعُدُّها عادٌّ: «**فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ**»؛ أي: ليس فوقك في الظُّهُور شيءٌ بما بَيَّنت من الأدلَّة، ونَصَبْتَ من الآيات.

وفي قوله: «**وَأَنتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ**»؛ أي: أنت الَّذي تعلم بواطن الأمور، وتَقلُّبات القلوب، وتَصوُّرات الأذهان، فلك الحمد علىٰ ما لك من صفات الكمال.

وفي قوله: «**اقضِ عَنِّي الدَّينَ، وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ**»: هذا دعاءٌ عظيمٌ، علَّمه النَّبيُّ ﷺ أَصْحَابَه.

٤- بينما كان يسير ﷺ هو وأصحابه، رضوان الله عليهم؛ وكانوا يلهجون بذكر الله، ويرفعون أصواتهم بدعائه وندائه، قال ﷺ لهم: «**أَيُّها النَّاس، ارْبعوا علىٰ أنفسكم**»؛ يعني: هَوِّنوا علىٰ أنفسكم من هذا الجهد الَّذي تقومون به «**فإنَّكم لا تَدْعون أصمَّ ولا غائبًا؛ إنَّما تَدْعون سميعًا بصيرًا قديرًا، إنَّ الَّذي تَدْعون أقرب إلىٰ أحدكم من عُنُق راحلته**».

وفي هذا ردٌّ علىٰ الجهميَّة ومَنْ قال بقولهم، الَّذين يزعمون بأنَّ إثبات السَّمع والبصر، وإثبات الصِّفات لله تعالىٰ فيه تشبيهٌ له بخَلْقه، وَكَذَبُوا؛ فإنَّهم إنَّما يريدون تعطيل صفاته ﷻ، وقَدْ أَدْرَكوا بعض ما يريدون، حيث مَوَّهوا علىٰ بعض المسلمين بأنَّ إثبات الصِّفات لله فيه تَشْبيهٌ له بخَلْقه، وهذا باطلٌ.

وقد بيَّنَّا ذلك بضرب بعض الأمثلة فيما سبق؛ كاسم «الحيِّ»، فالله ﷻ يُوصَف بأنَّه حيٌّ، والمخلوق الحيُّ يُوصَف بأنَّه حيٌّ؛ وقد بيَّنَّا فيما سبق الفرق بين الحياتين.

فلله الحَمْدُ علىٰ ما علَّمنا وبَصَّرنا، وجعلنا علىٰ العقيدة الصَّحيحة، اللَّهمَّ كما علَّمتنا وبصَّرتنا بالحقِّ، فثَبِّتنا عليه حتَّىٰ نلقاك علىٰ ذلك، ونعوذ بك أن تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ونستجير بوجهك الكريم من أن تُقلِّب قلوبنا عن الإيمان، وبالله التَّوفيق.

٨-إثبات رؤية المؤمنين ربَّهم يوم القيامة

قَولُهُ: «إِنَّكُم سَتَرونَ رَبَّكُم كَمَا تَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ، فَإِنِ استَطَعتُم أَلَّا تُغلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ وَصَلَاةٍ قَبلَ غُرُوبِهَا، فَافعَلُوا»، مُتَّفَقٌ عَلَيهِ(١).

التعليق

أقول: قَدْ تَقدَّم الاستدلال علىٰ الرُّؤية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣].

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

والآن أراد المُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ الاستدلال علىٰ رؤية المؤمنين لِرَبِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من السُّنَّة، فأورد في الرُّؤية هذا الحديث المُتَّفق عليه: «إنَّكم سترون ربَّكم»؛ أي: ستشاهدونه بأبصاركم إذا دخلتم الجنَّة: «كما ترون القمر ليلة البدر».

وفي روايةٍ: «وكما ترون الشَّمس في الظَّهيرة ليس دونها سحابٌ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرج أبو يعلىٰ في« مسند» عن أبي هريرة، قال: قالوا: يا رسول الله، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ قال: فقال: «هل تضارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟». قالوا: لا. قال: =

وفي هذا تشبيهٌ للرُّؤية بالرُّؤية، لا للمرئيِّ بالمرئيِّ، فإنَّ الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قوله ﷺ: «**لا تضامون في رؤيته**» من الضَّيْم؛ أي: لا يلحقكم ضيمٌ في رؤيته، كما يلحق الإنسانَ الضَّيمُ في رؤيته الأشياء الخفيَّة.

وقوله: «**لا تضامون**»: «لا» نافية، و«تُضَامُون» بضمِّ التَّاء وفتح الضَّاد، وضمِّ الميم المُخفَّفة، وروي بفتح التَّاء، وتشديد الميم: «**لا تَضامُّون**»؛ أي: لا ينضمُّ بعضكم إلىٰ بعضٍ لأجل رؤيته، كما ينضمُّ بعضكم إلىٰ بعضٍ في رؤية الهلال، وفي هذا تحقيقٌ للرُّؤية الَّتي وعدها الله لعباده المؤمنين وَعْدَ تَفضُّلٍ وإكرامٍ، نسأل الله ألَّا يَحْرمَنا من فضلِهِ.

ثمَّ أرشد النَّبيُّ ﷺ إلىٰ السَّبب الَّذي يمكن أن تُنَال به تلك الرُّؤية، فقال ﷺ: «**فَإِنِ استَطَعتُم أَلَّا تُغلَبُوا عَلَىٰ صَلَاةٍ قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ، وَصَلَاةٍ قَبلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا**».

لا شكَّ أنَّ هاتين الصَّلاتين يُغلَب عليها كثيرٌ من النَّاس؛ أي: يغلبهم الشَّيْطان، ويُلْهِيهم عنها بالسَّهَر علىٰ ما لا ينفع، حتَّىٰ يأتي وقتها، وقد غُلِبوا بالنَّوم، وهي صلاة الفجر.

= «**فهل تضارون في الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب؟**». قالوا: لا. قال: «**والذي نفس محمد بيده لترونه كما ترونهما**»، وحَسَّنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ظلال الجنة» (٤٥٧)، وعند البخاري (٨٠٦) من حديث أبي هريرة: «... قال: «**فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب**» قالوا: لا...»، الحديث.

وأمَّا العصر؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاس يشتغلون إمَّا بأُمُورٍ دُنيويَّةٍ كالزِّراعة ورَعْي الماشية، وما أشبه ذلك؛ وإمَّا بأمورٍ تُعَدُّ من الفضول واللَّعب؛ كمَنْ يَتلهون علىٰ ملاعب الرِّياضة، ومَنْ يجلسون علىٰ أكْل القات، وكَمْ للشَّيطان من وسيلةٍ يلهي بها النَّاس عمَّا ينفعهم، والعياذ بالله، ولا شكَّ أنَّ الشَّيطان حريصٌ علىٰ أن يُلْهِي النَّاس عمَّا ينفعهم في دنياهم وأخراهم حتَّىٰ يكونوا معه في نار جَهنَّم، ويوم القيامة يَتبرَّأ منهم كما حكىٰ الله ﷻ ذلك في سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ ﴾؛ أي: ما أنا بمنقذكم مِمَّا أنتم فيه من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ ﴾ [إبراهيم:٢٢]؛ أي: ما أنتم بمنقذي مِمَّا أنا فيه من العذاب، اللَّهمَّ اعصمنا من نَزَغاتِ الشَّيْطان، واستعملنا فيما ينفعنا، وثَبِّت قُلُوبَنا علىٰ دينك يا ربَّ العالمين، وبالله التَّوفيق.

موقف أهل السنة من هذه الأحاديث التي فيها إثبات الصفات الربانية

إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتي يُخبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن رَبِّهِ بِمَا يُخبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الفِرقَةَ النَّاجِيَةَ أَهلَ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ يُؤمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤمِنُونَ بِمَا أَخبرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ، وَلَا تَعطِيلٍ، وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ، وَلَا تَمثِيلٍ.

التعليق

وأقول: لقَدْ تَقدَّم الكلام علىٰ كلِّ صفةٍ وردت في السُّنَّة، وأنَّها حقٌّ وصدقٌ، إذ إنَّ السُّنَّة وحيٌ، كما أنَّ القرآن وحيٌ بشهادة القرآن، حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤]. وحيث يقول تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

ولمَّا نَهَىٰ بعضُ أشراف قريشٍ عبد الله بن عمرو بن العاص أن يكتب كلَّ ما يقول رسول الله ﷺ؛ وقالوا: إنَّ رسول الله ﷺ بَشَرٌ، يَتكَلَّمُ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمسَكتُ عَنِ الكِتَابِ، فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَومَأَ بِأُصبُعِهِ

إِلَىٰ فِيهِ، فَقَالَ: «اكتُبْ، فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ مَا يَخرُجُ مِنهُ إِلَّا حَقٌّ»(١).

وبهذا يَتبيَّن أنَّ الحُجَّة قائمةٌ علىٰ العباد بما ثبت لهم عن رسول الله ﷺ أَنْ يأخذوه، ويعملوا به، ويعتقدوه.

ومنها ما كان في صفات الله ﷻ يجب عليهم أن يعتقدوها أيضًا؛ لأنَّ صفات الله ﷻ لا يجوز لأحدٍ أن يَتكلَّم فيها إلَّا بما جاء عن طريق الوحي؛ لذلك فإنَّ أهل السُّنَّة يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه، وبما أخبر به عنه نَبيُّه ﷺ من غير تحريفٍ للنُّصوص، ولا تعطيلٍ لها، ومن غير تكييفٍ، ولا تمثيلٍ؛ لأنَّ التَّحريفَ والتَّعطيلَ إبطالٌ لما جاءت به النُّصوصُ. والتَّكييفُ والتَّمثيلُ زيادةٌ في الإثبات، وخروجٌ عمَّا قَرَّره الله عن نفسه، أو قَرَّره عنه رسوله ﷺ؛ إلىٰ نوعٍ من التَّشبيه، وضَرْبٍ من التَّكْييف لصفات الله تعالىٰ.

علمًا بأنَّ أهل السُّنَّة يؤمنون بالصِّفات علىٰ معناها الَّذي تقتضيه في اللُّغَة العربيَّة بدون كيفٍ؛ لأنَّ الكَيْفَ محجوبٌ عن النَّاس، وممنوعٌ عنهم معرفته.

فلا يجوز أن نقول في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كيف استوىٰ، وقَدْ أَنْكَر السَّلف الصَّالح علىٰ مَنْ سأل هذا السُّؤال.

وقد سُئِلَ مالكٌ هذا السُّؤال، فقال السَّائل: «إنَّ الله ﷻ أخبر عن نفسه بأنَّه استوىٰ علىٰ العرش، فكيف استوىٰ؟ فأطرق مالكٌ، وعلاه العرقُ، ثمَّ رفع رأسه بعد ذلك، وقال: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وصَحَّحه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٥٣٢).

واجبٌ، والسُّؤال عنه بدعةٌ، وما أراك إلَّا رجل سوءٍ، أَخْرِجُوه، فأُمِرَ به فأُخْرِجَ»[١].

وقَدْ قرَّر ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ المُعطِّل لم يُعطِّل إلَّا بعد أن شَبَّه، وهؤلاء الَّذين عملوا مثل هذا خرجوا عن الكتاب والسُّنَّة، فالله أخبر عن نفسه بأنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فلا يجوز واحدٌ من الطَّرفين: لا يجوزُ التَّحريفُ والتَّعْطيلُ، ولا يجوز التَّشبيهُ والتكييف.

فأَهْلُ السُّنَّة وسط في باب صفات الله ما بين أهل التَّعْطيل الجهميَّة، وما بين أهل التَّمثيل المُشبِّهة، فهم يثبتون الصِّفة علىٰ الوجه اللَّائق بجلال الله، وينفون عنها التَّحْريف، والتَّعْطيل، والتَّشْبيه (التَّمْثيل)، والتكييف، وهذا قول أهل السُّنَّة والجماعة، وبالله التَّوْفيق.

(١) تقدم بيانه.

مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة

بَلْ هُمُ الوسط فِي فِرَقِ الأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوسط فِي الأُمَمِ، فَهُمْ وسط فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ ﷻ بَينَ أَهلِ التَّعطِيلِ الجَهمِيَّةِ، وَأَهلِ التَّمثِيلِ المُشَبِّهَةِ، وَهُمْ وسط فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَينَ الجَبرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ، وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَينَ المُرجِئَةِ وَالوَعِيدِيَّةِ مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِم، وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعتَزِلَةِ، وَبَينَ المُرجِئَةِ وَالجَهمِيَّةِ. وَفِي، باب أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَالخَوَارِجِ.

التعليق

أقول: قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «بَل هُمُ الوسط فِي فِرَقِ الأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوسط» أي: في الأمم في عقيدتها، وأهلُ السُّنَّة من الأمَّةِ، وسط في أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ بين فرق الضلال والبدع.

وقوله: «فَهُمْ وسط فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ ﷻ بَينَ أَهلِ التَّعطِيلِ الجَهمِيَّةِ، وَأَهلِ التَّمثِيلِ المُشَبِّهَةِ»:

أقول: كونهم وسطًا بين أهل التَّعْطيل وأهل التَّمْثيل، ذلك أنَّ المُعطِّلة عطَّلوا الله عن صفاته تعالىٰ، فلا يؤمنون بها، بل يدَّعون أنَّ إثباتها له ﷻ يُعَدُّ تشبيهًا، وهؤلاء هم الجهميَّة والمعتزلة، فهم لا يُثْبِتون لله صفةً، لا من الصِّفات الفعليَّة؛ كالاستواء والنُّزول، وما أشبه ذلك؛ ولا من الصِّفات الذَّاتيَّة؛ كالوجه واليد والكفِّ والأصابع، إلىٰ غير ذلك، فهم يدَّعون أنَّ مَنْ أثبت هذه الصِّفات فإنَّه يُعتَبر مُشبِّهًا.

والمُشبِّهة هم قومٌ زادوا في الإثبات حتَّىٰ زعموا أنَّ معنىٰ «استوىٰ» يثبتونه فيقولون: «كاستوائي هذا»، أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فإنَّهم يُثْبِتون لله ﷻ الصِّفات بالمعنىٰ الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة؛ سواء كانت تلك الصِّفات فعليَّةً؛ كالاستواء علىٰ العرش، والنُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا، والكلام، وما إلىٰ ذلك، أو ذاتيَّةً؛ كإثبات الوجه لله، والرِّجل، والسَّاق، والقدم؛ أو ذاتيَّةً فعليَّةً؛ كالغضب، والرِّضا، وما إلىٰ ذلك، لكنَّهم يُثْبِتون لله صفاتٍ لا تُشْبِه صفات المخلوقين، كما أنَّهم يُثْبِتون له ذاتًا لا تُشبِه ذوات المخلوقين، فهم يؤمنون بالصِّفة بمعناها الَّذي تقتضيه في اللُّغة العربيَّة، وَيَكِلُون الكيفيَّة إلىٰ الله تعالىٰ؛ امتثالًا لقوله جلَّ من قائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]، فلذلك هم وسط بين المُعطِّلة والمُشبِّهة.

قوله: «**وَهُمْ وسط فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الجَبرِيَّةِ وَالقَدَرِيَّةِ**»: الجبريَّة هم القَدَريَّة الغلاة، والقَدَريَّة هم القَدَريَّة النُّفاة؛ والفرق بينهم أنَّ الجبريَّة يعتقدون أنَّ حركات العباد حركاتٌ قسريَّةٌ، بمعنىٰ أنَّهم مجبورون عليها،

وهذا الاعتقاد اعتقادٌ باطلٌ، فكلُّ إنسانٍ يحسُّ من نفسه أنَّ الله جعل له اختيارًا، فهو يأكل إذا شاء، ويشرب إذا شاء، ويتكلَّم إذا شاء، وينام إذا شاء، ويسكت إذا شاء، فكيف يكون مجبورًا مع أنَّه يعلم من نفسه أنَّه يَتصرَّف غير مجبورٍ، بل يَتصرَّف باختيارِهِ؛ ولهذا فإنَّ الله تعالىٰ أخبرنا بأنَّ الكفَّار يرجعون علىٰ أنفسهم باللَّوْم يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠، ١١].

أمَّا القَدَريَّة النُّفاة: فهم يقولون: إنَّ الخير فِعْلُ الله، والشَّرَّ فِعْلُ الإنسان، فجعلوا الإنسان خالقًا مع الله، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

أمَّا أهل السُّنَّة والجماعة فهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فهم يؤمنون بأنَّ الله جعل للإنسان اختيارًا، ولكنَّه لا يخرج في اختياره عن قَدَر الله؛ لأنَّا لو قلنا ذلك، فنحن نكون قد أثبتنا خالقًا مع الله، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، والله ﷻ يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠].

وبهذا يكون أهل السُّنَّة والجماعة وسطًا بين القَدَريَّة الغُلاةِ، والقَدَريَّة النُّفاة، فيجعلون للإنسان اختيارًا، ولكنَّه لا يخرج عن قدرة الله عزوجل، ولا عن إرادته، ولا يكون مستقلًّا بنفسه، ولكنَّ السَّعادةَ فضلٌ من الله، والشَّقاوةَ عدلٌ من الله، فمَنْ تولَّىٰ أهلَ الشَّرِّ من شياطين الإنس والجنِّ؛ سلَّطهم الله عليه، وأخرجوه إلىٰ ما لا يرضىٰ الله عزوجل.

قوله: «وَفِي بابِ وَعِيدِ اللهِ بَين المُرجِئَةِ وَالوَعِيدِيَّة مِنَ القَدَرِيَّةِ وَغَيرِهِم»: المرجئة هم الَّذين يقولون: لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ. والوَعيديَّة هم الخوارج: الَّذين يُكفِّرون بالكبيرة، ويقولون بتخليد أصحاب الكبائر في النَّار.

قوله: «وَفِي بَابِ أَسمَاءِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ بَينَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُعتَزِلَةِ، وَبَينَ المُرجِئَةِ وَالجَهمِيَّةِ»:

أقول: المعتزلة هُمُ الَّذين يقولون: إنَّ أصحاب الكبائر في منزلةٍ بين المنزلتين، لا هم مؤمنون، ولا هُمْ كُفَّارٌ، والحَرُوريَّة يُكفِّرون بارتكاب الكبيرة، والمُرْجِئة والجهميَّة يُؤخِّرون العمل عن الإيمان، ويزعمون أنَّ الإيمان يَتحقَّق بالتَّصديق والقول فقط.

قوله: «وَفِي بابِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَينَ الرَّافِضَةِ وَالخَوَارِجِ»: فالرَّافضة يُكفِّرون أصحاب رسول الله ﷺ، ويُعَظِّمون أهل البيت، والخوارج يُكفِّرون الصَّحابة ما عدا أبا بكرٍ، وعمر؛ ويُكفِّرون أهل البيت أيضًا بدءًا بعليِّ ابن أبي طالبٍ، وانتهاءً بجميع أهل البيت الفضلاء، لكن أهل السُّنَّة والجماعة يَتولَّون أصحاب رسول الله ﷺ، ويُثْبِتون لهم ما لهم من الفضائل، ويَتولَّون أيضًا أهل البيت بخلاف الرَّافضة الَّذين يُعظِّمون أهل البيت، ويُكفِّرون سائر الصَّحابة بدءًا بأبي بكرٍ وعمر، وبالله التَّوفيق.

وجوب الإيمان باستواء الله على عرشه

فصلٌ

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا أَخبرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ مِنْ أَنَّهُ سُبحَانَهُ فَوقَ سَمَاوَاتِهِ، عَلَىٰ عَرشِهِ، عَلِيٌّ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبحَانَهُ مَعَهُم أَينَمَا كَانُوا، يَعلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلِكَ فِي قَولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤].

وَلَيسَ مَعنَىٰ قَولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُختَلِطٌ بِالخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيهِ الخَلْقَ؛ بَلِ القَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصغَرِ مَخلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ وَغَيرِ المُسَافِرِ أَينَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوقَ عَرشِهِ، رَقِيبٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ، مُهَيمِنٌ عَلَيهِم، مُطَّلِعٌ عَلَيهِم... إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِن مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكُلُّ هَذَا الكَلَامِ الَّذي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ أَنَّهُ فَوقَ العَرشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا حَقٌّ عَلَىٰ

حَقِيقَتِهِ، لَا يَحتَاجُ إِلَىٰ تَحرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الكَاذِبَةِ، مِثلِ أَن يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَولِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإجمَاعِ أَهلِ العِلمِ وَالإِيمَانِ، فَإِنَّ اللهَ قَد وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ، وَهُوَ يُمسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ أَن تَزُولَا، وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الأَرضِ إِلَّا بِإِذنِهِ، وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرضُ بِأَمرِهِ.

التعليق

أقول: ذَكَر رَحِمَهُ اللهُ في هذا الفصل أنَّ الأدلَّة دالَّةٌ علىٰ أنَّ الله مستوٍ بذاته علىٰ عرشه، وأنَّه بائنٌ من خَلْقه، منفصلٌ عنهم، مستقلٌّ عنهم، لا شيءَ منه داخلٌ في خَلْقِهِ، ولا شيء من خَلْقه داخلٌ فيه، وهذا ما دلَّت عليه الأدلَّة من كتابٍ وسُنَّةٍ.

وقَدْ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه أنَّه بعد خَلْق السَّماوات والأرض، استوىٰ علىٰ عرشه، فهو عالٍ علىٰ خَلْقه جميعًا، دلَّت علىٰ ذلك سَبْعُ آياتٍ في القرآن الكريم، ففي سورة الأعراف قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

وفي سورة يونس قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣].

وفي سورة الرَّعْد قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وفي سورة طه، والفرقان، والسَّجْدة، والحديد، في كلِّ ذلك أخبر تعالىٰ عن نفسه أنَّه استوىٰ علىٰ العرش، وهذا معناه عند أهل السُّنَّة أنَّه مستوٍ علىٰ العرش بذاته علىٰ الوجه اللَّائق به ﷻ؛ وهو معهم بعلمه، يعلم ما هم عليه، وما يجري منهم، وما يدور في أذهانهم مِنْ وَسَاوِسَ، وفي قلوبهم مِنْ خَلجَاتٍ، كما يقول جَلَّ وَعَلَا في سورة ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وكما يقول في سورة الحديد: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إلىٰ غير ذلك مِمَّا أخبر الله به تعالىٰ عن نفسه؛ لشمول علمه ﷻ لقوله جلَّ من قائل: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

والنَّبيُّ ﷺ حينما سمع أَصْحابَه يُلحُّون في الدُّعاء، ويرفعون أصواتهم بالذِّكر، قال: «**ارْبَعوا علىٰ أنفسكم، إنَّكم لا تَدْعُون أصمَّ، ولا غائبًا، إنَّ الَّذي تدعونه سميعٌ قريبٌ، وأقرب إلىٰ أحدكم من عُنُق راحلتِهِ**»(١).

ولذلك قال أهل السُّنَّة والجماعة: إنَّه لا تنافي بين الأمرين، فهو مستوٍ علىٰ عرشِهِ بذاتِهِ؛ استواءً يليق بجلاله؛ وهو معهم أينما كانوا بعلمِهِ، يعلم ما

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

هم عاملون، ويُحْصِيه عليهم، ويَدَّخره لهم، وكلُّ إنسانٍ سيرتحل بحصيلة ما عمل، وسيُجْزَىٰ بعد الحساب علىٰ حسب ما نطقت به دواوينُهُ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨].

وفي أوَّل سورة الإسراء يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنَّما هي أعمالكم أُحْصِيها لكم، ثمَّ أوفيكم إيَّاها، فمَنْ وجد خيرًا فليحمد الله، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه**»(١).

أمَّا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، فمعنىٰ السَّماء: ما علا، واللهُ أعلىٰ مِنْ كلِّ شيءٍ، فهو فوق العرش، والعرشُ فوق المخلوقات.

وقوله للجارية: «أين الله؟» قالت: في السَّماء(٢)، ليس معنىٰ: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. أنَّ السَّماء تُظلُّه أو تُقِلُّه؛ بل كما قلنا: إنَّ المراد بـ «السَّماء»: ما علا، وهو سبحانه أعلىٰ من كلِّ شيءٍ بذاته، وهو مع ذلك مُطَّلعٌ عليهم، وعلىٰ أعمالهم، من وساوس القلوب، وخلجات النُّفُوس، ولحظات الأبصار، وحركات الجوارح؛ إلَّا أنَّه مع ذلك قَدْ قَطَع الحُجَّة بإيجاد الملائكة الكرام الكاتبين

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الَّذين يكتبون كلَّ ما صَدَر من العباد لكي تقوم عليهم حُجَّة الله عَزَّوَجَلَّ، وحتَّىٰ لا يدَّعوا أنَّه ظَلَمهم بشيءٍ لم يعملوه، فهو لذلك لم يَكِلْهم إلىٰ علمِهِ فقط، بل وكَّل بكتابة أعمالهم ملائكةً كرامًا كاتبين حتَّىٰ لا تكون لهم عليه ﷻ حُجَّةٌ يوم القيامة.

وجوب الإيمان بقربه من خلقه، وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيته

فصل

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦].

وَقَوله ﷺ: «إِنَّ الَّذي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(١). وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة مِنْ قُربِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوقِيَّتِهِ، فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

أخرجه البيهقيُّ في «السُّنَن الكبرىٰ» في (ج٦/ ٩٧) برقم الحديث (١٠١٨٨)، وأخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» في كتاب المناسك، باب استحباب خَفْضِ الصَّوتِ بالتَّكْبير عند صعود الشَّرَف في الأسفار، من حديث أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٤٠٢) (١٩٦١٤)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٧٦٣٣)، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين»، وأخرج بنحوه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

التعليق

وأقول: لقَدْ سبق لنا أَنْ قلنا: إنَّ الله ﷻ قد وصف نفسه بأنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. وبأنَّه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ولَقَدْ علمنا من خلال ما قرأنا، وما قَرَّره أَهْلُ العِلْم قبلنا من أنَّ صفات الله ﷻ مَبنيَّةٌ على الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة.

وأنَّ الله ﷻ مستوٍ بذاته على عرشه، بائنٌ من مخلوقاتِهِ، ومخلوقاتُهُ بائنةٌ منه، ليس فيه شيءٌ من مخلوقاتِهِ، وليس في مخلوقاتِهِ شيءٌ منه، إلَّا أنَّه ﷻ قريبٌ من عباده مع علوِّه، قريبٌ منهم بعلمِهِ وهيمنتِهِ واطِّلاعِهِ على كلِّ ما في هذا الكون، فهو قريبٌ في علوِّه، وعليٌّ في دُنوِّه، ولا تنافي بين ذلك في حقِّه، فقد قلنا: إنَّه مستوٍ على عرشه، وبائنٌ من خَلْقه، وأنَّ علمه بكلِّ مكانٍ، لا يخلو مكانٌ من علمِهِ، ولا تَخْفَى عليه خافيةٌ من أمور عباده، فهو معهم بعلمِهِ وهيمنتِهِ واطِّلاعِهِ وقدرتِهِ، وأنَّ جميعهم في حكمِهِ وقبضتِهِ، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]؛ أي: بعلمه، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ ربَّكم ليس بأصمَّ ولا غائبٍ، فهو بينكم وبين رؤوس رواحلكم**»[1]، والأدلَّةُ على ذلك كثيرةٌ، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠١١٦).

وجوب الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة

فصل

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيرُ مَخلُوقٍ، مِنهُ بَدَأَ، وَإِلَيهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرآنَ الَّذي أَنزَلَهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقةً، لَا كَلَامُ غَيرِهِ.

وَلَا يَجُوزُ إِطلَاقُ القَولِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَو عِبَارَةٌ، بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ، أَو كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ، لَم يَخرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبتَدِئًا، لَا إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

وَهُوَ كَلَامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، وَمَعانِيهِ، لَيسَ كَلَامُ اللهِ الحُرُوفَ دُونَ المَعَانِي، وَلَا المَعَانِيَ دُونَ الحُرُوفِ .

التعليق

أقول: قوله: «ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأنَّ القرآن كلامُ الله، مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ»: الإيمان بأنَّ القرآن كلام الله، مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، يجب أن يعتقد المسلم هذا في نفسه، ويَتلفَّظ بهذا بلسانِهِ، مُبيِّنًا عقيدته بأنَّ القرآن كلام الله، مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، والدَّليل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة:٦].

وقال ﷻ في وَصْفِ رسولِهِ ﷺ: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣].

فهذه الآيات تدلُّ علىٰ أنَّ القرآن كلام الله، مُنزَّلٌ غير مخلوقٍ، فمَنْ زعم أنَّه مخلوقٌ فإنَّه قَدْ كَفَر، ولذلك فإنَّ السَّلف -رحمهم الله- قَدْ أطلقوا الكفر علىٰ مَنْ زَعَم أنَّ القرآن مخلوقٌ؛ لأنَّه كَفَر بهذه الآيات الَّتي ذكرناها، وغيرها من الآيات.

قوله: «منه بدأ»؛ أي: بدا من البُدُو، وهو الظُّهُور، أو بدأ من البدء الَّذي هو البداية، وعلىٰ كلا المعنيين حقٌّ، إذ إنَّ القرآن كلام الله، منه خرج، أي: تكلَّم به ﷻ.

قوله: «وإليه يعود»؛ أي: أنَّه يعود إلىٰ الله ﷻ حين يُرفَع من المصاحف، ومن الصُّدُور، فلا يَقْدرُ أحدٌ علىٰ كلمةٍ منه، وهذا يكون في آخر الزَّمان قبل قيام السَّاعة.

قوله: «وأنَّ الله تكلَّم به حقيقةً»: هذا فيه ردٌّ علىٰ مَنْ زعم أنَّ القرآن حكايةٌ عن كلام الله، وليس هو كلام الله حقيقةً، وردٌّ علىٰ مَنْ زعم أنَّ الله خَلَقه في الشَّجَرة حين كلَّم موسىٰ، فلهذا قال المُؤلِّف: «وأنَّ هذا القرآن الَّذي أنزله علىٰ مُحمَّدٍ ﷺ هو كلام الله حقيقةً، لا كلام غيره»؛ أي: الكلامُ صفةٌ من صفات الله ﷻ.

وأهل السُّنَّة إذا عرَّفوا الكلام الَّذي هو كلام الله يقولون فيه: «قديمُ النَّوع، حادثُ الآحادِ»؛ يعني: أنَّ صفة الكلام هي صفةٌ لله ﷻ، قديمٌ بِقِدمِهِ، وأنَّه جَلَّ وَعَلَا يتكلَّم متىٰ شاء، وكيف شاء، وإذا شاء، وأنَّ إلهًا لا يتكلَّم، ولا يتحرَّك؛ فإنَّه يُعتبَر جمادًا، وكيف يكون إلهًا مَنْ لا يَتكلَّم؟

لقَدْ دَخَل في الإسلام أقوامٌ ليكيدوا لأهله، فزعموا لهم أنَّ الله لا يُوصَف بأنَّه مُتكلِّمٌ؛ لأنَّا إذا وصفناه بأنَّه مُتكلِّمٌ فقد شَبَّهناه بخَلْقِهِ، ولا يجوز أن نصفه بأنَّ له يدًا؛ لأنَّا إذا وصفناه بذلك، فقد شَبَّهناه بخَلْقِهِ مع أنَّ الله ﷻ قد وصف نفسه بأنَّه كلَّم بعض رسله؛ فقال جلَّ من قائل: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ومَنْ قال بأنَّه يخلق الكلامَ في غيره، فهو مبتدعٌ ضالٌّ؛ فهذه مقالةُ الجَهميَّة، وأَخَذها منهم بعضُ أهل الإسلام، ونَفَوْا عن الله الوصف بأنَّه مُتكلِّمٌ، وكذلك الَّذين قالوا: «إنَّ القرآن حكايةٌ عن كلام الله»؛ لأنَّ كلام الله

عندهم هو المعنىٰ القائم بنفسه، لازمٌ لذاته كَلُزُوم الحياة والعلم؛ لا يَتعلَّق بمشيئته وإرادته، وإنَّ هذا القرآن ليس هو كلام الله، ولكنَّه عبارةٌ عن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه مقالةُ ابْنِ كلَّاب ومَنْ تَبِعَه.

أمَّا مقالة الأشاعرة، فهم يقولون: «إنَّ القرآن عبارةٌ عن كلام الله»؛ لأنَّ كلام الله عندهم معنىٰ قائمٌ بنفسه، وهذا المعنىٰ غير مخلوقٍ، أمَّا هذه الألفاظ المقروءة فهي عبارةٌ عن ذلك المعنىٰ القائم بالنَّفْس، وهي مخلوقةٌ، ولا يُقَال إنَّها حكايةٌ عنه».

وبعض العلماء قالوا: إنَّ الخلاف بين الكلَّابية والأشاعرة خلافٌ لفظيٌّ لا طائل تحته، فالأشاعرة والكلَّابية يقولون: القرآنُ نوعانِ: ألفاظٌ، ومعانٍ، فالألفاظُ مخلوقةٌ، وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمةٌ، وهي معنًىٰ واحدٌ لا تَبعُّضَ فيه، ولا تَعدُّدَ.

ثمَّ ذكر الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ[1] **مقالة المعتزلة حيث يقولون:** «إنَّ كلام الله الحروف دون المعاني»، فيقولون: «إنَّ مُسمَّىٰ القول والكلام عند الإطلاق اسمٌ للَّفظ فقط، والمعنىٰ ليس جزءَ مُسَمَّاه، بل مدلولَ مُسَمَّاه».

ثمَّ ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ **المذهب المقابل لذلك، فقال:** «ولا المعاني دون الحروف كما هو مذهب الكلَّابية والأشاعرة، وكما سبق شرحه، والمذهب الحقُّ أنَّ القرآن كلام الله؛ حروفه ومعانيه، كما هو قول أهل السُّنَّة والجماعة، والَّذي قامت عليه الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة، والحمد لله ربِّ العالمين». انتهىٰ كلام الشَّيخ صالح الفوزان بِتصرُّفٍ.

---

(١) يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية، طَيَّبَ اللهُ ثَرَاه.

وجوب الإيمان برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية

فصل

وَقَدْ دَخَلَ أَيضًا فِيمَا ذَكَرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ، وَبِكُتُبِهِ، وَبِمَلَائِكَتِهِ، وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ المُؤمِنِينَ يَرَونَهُ يومَ القِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبصَارِهِم كَمَا يَرَونَ الشَّمسَ صَحوًا لَيسَ دُونَها سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَونَ القَمَرَ لَيلَةَ البَدرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ.

يَرَونَهُ سُبحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرصَاتِ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَونَهُ بَعدَ دُخُولِ الجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَىٰ.

التعليق

وأقول: الإيمان برؤية الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من أمورٍ كثيرةٍ وكبيرةٍ، وقد ثبتت الأخبار عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من طريق كتاب الله، ومن طريق أخبارٍ عَنْ رسول الله ﷺ ذكر فيها أنَّ الله يخاطب المؤمنين والكُفَّار والمنافقين؛ كلٌّ واحدٍ يخاطبه بقوله جَلَّوَعَلَا: «**أَي فُل، أَلَم**

أُكرِمكَ، وَأُسَوِّدكَ، وَأُزَوِّجكَ، وَأُسَخِّر لَكَ الخَيلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرَكَ تَرأَسُ وَتَربَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ.

قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَننتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ. فَيَقُولُ: لَا.

فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَىٰ الثَّانِيَ؛ فَيَقُولُ: أَي فُل، أَلَم أُكرِمكَ، وَأُسَوِّدكَ، وَأُزَوِّجكَ، وَأُسَخِّر لَكَ الخَيلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرَكَ تَرأَسُ وَتَربَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ أَي رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَفَظَننتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا.

فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلقَىٰ الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ: مِثلَ ذَلِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، آمَنتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيتُ، وَصُمتُ، وَتَصَدَّقتُ، وَيُثنِي بِخَيرٍ مَا استَطَاعَ.

فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا.

قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيكَ، وَيَتفَكَّرُ فِي نَفسِهِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشهَدُ عَلَيَّ، فَيُختَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي؛ فَتَنطِقُ فَخِذُهُ، وَلَحمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعذِرَ مِنْ نَفسِهِ، وَذَلِكَ المُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسخَطُ اللهُ عَلَيهِ»(١).

وقَدْ دلَّت آيةٌ في كتاب الله علىٰ أنَّ الكُفَّار لا يرونه، قال ﷻ في وصفهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]. ومن أجل ذلك فَقَدْ حصل الخلاف في رؤية الكافرين له.

قال الشَّيخ صالح بن فوزان -حفظه الله- بعد أن ذكر اتِّفاق الأخبار الثَّابتة

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عن رؤية المؤمنين له، وإنَّ ذلك في موضعين: «الموضع الأوَّل: في عَرَصات القيامة...».

ثمَّ ذكر الخلاف في رؤية الكُفَّار والمنافقين له، وهل تختصُّ الرُّؤية بالمؤمنين دون غيرهم، فقال: «في المسألة ثلاثة أقوالٍ: قيل: يراه في عَرَصات القيامة المؤمنون والمنافقون والكُفَّار. وقيل: يراه المؤمنون والمنافقون فقط دون الكُفَّار. وقيل: يراه المؤمنون فقط، والله أعلم.

الموضع الثَّاني: يراه المؤمنون بعد دخولهم الجنَّة؛ كما ثبت ذلك في الأدلَّة من الكتاب والسُّنَّة».

قلت: أمَّا رؤية الله بعد دخول الجنَّة؛ فالأحاديث في ذلك كثيرةٌ، وفي عرصات القيامة تكليم الله للكُفَّار والمنافقين ثابتٌ؛ لكن هل يرونه أم لا؟ ظاهر هذه الآية، وهي قوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾: أنَّهم لا يرونه، ثمَّ إنَّ التَّكليمَ للكُفَّار والمنافقين تكليمُ تبكيتٍ لهم، وليس بتكليمِ إكرامٍ، فتكليمُ الإكرامِ يكون للمؤمنين المُصدِّقين بكلامِ اللهِ، وكلامِ رُسُلِهِ.

أمَّا رؤية النَّبيِّ ﷺ لله سبحانه في الدُّنيا، هذا محلُّ نظرٍ، قال بعض الصَّحابة: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ رأىٰ ربَّه بقلبه»، ولكنَّ الأدلَّة لا تساعد علىٰ ذلك.

والصُّوفيَّة دعاواهم برؤية النَّبيِّ ﷺ كذبٌ؛ لأنَّ الشَّيطان لا يَتمثَّل بصورة النَّبيِّ ﷺ إلَّا أنَّه قد يَتصوَّر بغيره، ويدَّعي أنَّه النَّبيُّ ﷺ، وقَدْ يدَّعي أنَّه الرَّبُّ، وأهلُ البدع لا يرون النَّبيَّ ﷺ في النَّوم، وإنَّما يراه المؤمنون فيما يظهر، والله أعلم.

ما يدخل في الإيمان باليوم الآخر

فصل

١- ما يكون في القبر

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاليَومِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعدَ المَوتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتنَةِ القَبرِ، وَبِعَذَابِ القَبرِ وَنَعِيمِهِ، فَأَمَّا الفِتنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُفتَنُونَ فِي قُبُورِهِم، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فـ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فَيَقُولُ المُؤمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي.

وَأَمَّا المُرتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدرِي، سَمِعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئًا فَقُلتُهُ، فَيُضرَبُ بِمِرزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيحَةً يَسمَعُهَا كُلُّ شَيءٍ إِلَّا الإِنسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنسَانُ؛ لَصُعِقَ، ثُمَّ بَعدَ هَذِهِ الفِتنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ القِيَامَةُ الكُبرَىٰ، فَتُعَادُ الأَروَاحُ إِلَىٰ الأَجسَادِ.

التعليق

أقول: اليوم الآخر هو يوم القيامة، والبرزخ هو مِنْ مُقدِّمات يوم القيامة؛ إمَّا أن يكون العبد ناجحًا فيه في تلك الفتنة، فيقول الجواب الصَّحيح أو لا، كما في حديث البراء بن عازبٍ ﷺ قال: خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ في جنازةِ رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلىٰ القبر ولمَّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، وكأنَّ علىٰ رؤوسنا الطَّيْر، وفي يده عودٌ ينكت في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر** -مرَّتين أو ثلاثًا».

ثمَّ قال: «**إنَّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا، وإقبالٍ من الآخرة نزل إليه ملائكةٌ من السَّماء بيض الوجوه، كأنَّ وجوههم الشَّمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنَّة، وحنوطٌ من حنوط الجنَّة حتَّىٰ يجلسوا منه مدَّ البصر، ثمَّ يجيء مَلَك الموت عليه السلام حتَّىٰ يجلس عند رأسه، فيقول: أيَّتها النَّفس الطَّيِّبة، اخرجي إلىٰ مغفرةٍ من الله ورضوانٍ.**

قال: **فتخرج تسيل كما تسيل القطرة مِنْ فِيِّ السِّقاء؛ فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ، حتَّىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسكٍ وُجِدَتْ علىٰ وجه الأرض.**

قال: **فيصعدون بها، فلا يَمرُّون** -يعني- **بها علىٰ ملأٍ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذا الروح الطَّيِّب؟! فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه الَّتي**

كانوا يُسمُّونه بها في الدُّنيا، حتَّىٰ ينتهوا بها إلىٰ السَّماء الدُّنيا فيستفتحون له فيفتح لهم، فيُشيِّعه من كلِّ سماءٍ مُقرَّبوها إلىٰ السَّماء الَّتي تليها، حتَّىٰ يُنْتَهىٰ به إلىٰ السَّماء السَّابعة.

فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عِلِّيِّين، وأعيدوه إلىٰ الأرض؛ فإنِّي منها خَلَقتُهُمْ، وفيها أُعِيدُهُمْ، ومنها أخرجهم تارةً أخرىٰ.

قال: فتُعاد رُوحُه في جسده، فيأتيه مَلَكان، فيُجْلسانه، فيقولان له: مَنْ ربُّك؟ فيقول: ربِّي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرَّجل الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأتُ كتابَ الله، فآمنتُ به، وصَدَّقتُ.

فينادي مُنَادٍ في السَّماء أَنْ صَدَق عبدي، فأفرشوه من الجنَّة، وأَلْبِسُوه من الجنَّة، وافتحوا له بابًا إلىٰ الجنَّة.

قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويُفْسَح له في قبره مَدَّ بصره.

قال: ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثِّياب، طَيِّبُ الرِّيح، فيقول: أبشر بالَّذي يَسرُّك، هذا يومك الَّذي كنت تُوعَد، فيقول له: مَنْ أنت، فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عَمَلُك الصَّالح، فيقول: ربِّ أقم السَّاعة حتَّىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي.

قال: وإنَّ العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا، وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السَّماء ملائكةٌ سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ

البصر، ثمَّ يجيء مَلَك الموت حتَّىٰ يجلس عند رأسه، فيقول: أيَّتها النَّفس الخبيثة، اخرجي إلىٰ سخطٍ من الله وغضبٍ.

قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصُّوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتَّىٰ يجعلوها في تلك المُسوح، ويخرج منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَت علىٰ وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يَمرُّون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه الَّتي كان يُسمَّىٰ بها في الدُّنيا، حتَّىٰ يُنتهىٰ به إلىٰ السَّماء الدُّنيا، فيستفتح له، فلا يُفتَح له، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠].

فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا كتابه في سِجِّين في الأرض السُّفْلىٰ، فتُطرَح رُوحُه طرحًا، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

فتُعَاد رُوحُه في جسده، ويأتيه مَلَكان، فيجلسانه، فيقولان له: مَنْ ربُّك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرَّجل الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري. فينادي منادٍ من السَّماء أَنْ كذب، فافرشوا له من النَّار، وافتحوا له بابًا إلىٰ النَّار، فيأتيه من حَرِّها وسَمُومِها، ويضيق عليه قبرُهُ حتَّىٰ تختلف فيه أضلاعه.

ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه، قبيح الثِّياب، منتن الرِّيح، فيقول: أَبْشِرْ

بالَّذي يسوؤك؛ هذا يومك الَّذي كنت تُوعَد! فيقول: مَنْ أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشَّرِّ؟! فيقول: أنا عَمَلُك الخبيث. فيقول: ربِّ لا تُقِمِ السَّاعة»، رواه أحمد، وغيره(١).

وقَدْ ورد في عذاب القبر ونعيمه ما رواه البخاريُّ عن سمرة بن جندب قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّىٰ صَلَاةً، أَقبَلَ عَلَينَا بِوَجهِهِ، فَقَالَ: «مَنْ رَأَىٰ مِنكُم اللَّيلَةَ رُؤيَا؟».

قَالَ: فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: مَا شَاءَ اللهُ، فَسَأَلَنَا يَومًا، فَقَالَ: «هَل رَأَىٰ أَحَدٌ مِنكُم رُؤيَا؟».

قُلنَا: لَا. قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيتُ اللَّيلَةَ رَجُلَينِ أَتَيَانِي، فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخرَجَانِي إِلَىٰ الأَرضِ المُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ.

قَالَ بَعضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَىٰ: «إِنَّهُ يُدخِلُ ذَلِكَ الكَلُّوبَ فِي شِدقِهِ؛ حَتَّىٰ يَبلُغَ قَفَاهُ، ثمَّ يَفعَلُ بِشِدقِهِ الآخَرِ مِثلَ ذَلِكَ، وَيَلتَئِمُ شِدقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصنَعُ مِثلَهُ. قُلتُ: مَا هَذَا؟!

قَالَا: انْطَلِقْ، فَانطَلَقنَا؛ حَتَّىٰ أَتَينَا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضطَجِعٍ عَلَىٰ قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَىٰ رَأسِهِ بِفِهرٍ؛ أَو صَخرَةٍ، فَيَشدَخُ بِهِ رَأسَهُ؛ فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهدَهَ الحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيهِ لِيَأخُذَهُ؛ فَلَا يَرجِعُ إِلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ يَلتَئِمَ رَأسُهُ، وَعَادَ رَأسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيهِ، فَضَربَهُ!

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧) (١٨٥٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٦١٠) (٣٩٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

قُلتُ: مَنْ هَذَا؟!

قَالَا: انْطَلِقْ، فَانطَلَقنَا إِلَىٰ ثقبٍ مِثلِ التَّنُّورِ؛ أَعلَاهُ ضَيِّقٌ، وَأَسفَلُهُ وَاسِعٌ؛ يَتَوَقَّدُ تَحتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارتَفَعُوا؛ حتَّىٰ كَادَ أَن يَخرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَت رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ!

فَقُلتُ: مَنْ هَذَا؟!

قَالَا: انْطَلِقْ، فَانطَلَقنَا حتَّىٰ أَتَينَا عَلَىٰ نَهَرٍ مِنْ دَمٍ؛ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَىٰ وسط النَّهَرِ».

قَالَ يَزِيدُ، وَوَهبُ بنُ جَرِيرٍ؛ عَن جَرِيرِ بنِ حَازِمٍ: «وَعَلَىٰ شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ بَينَ يَدَيهِ حِجَارَةٌ، فَأَقبَلَ الرَّجُلُ الَّذي فِي النَّهَرِ؛ فَإِذَا أَرَادَ أَن يَخرُجَ، رَمَىٰ الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ؛ فَرَدَّهُ حَيثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخرُجَ، رَمَىٰ فِي فِيهِ بِحَجَرٍ؛ فَيَرجِعُ كَمَا كَانَ!

فَقُلتُ: مَا هَذَا؟!

قَالَا: انطَلِقْ، فَانْطَلَقنَا؛ حتَّىٰ انْتَهَينَا إِلَىٰ رَوضَةٍ خَضرَاءَ؛ فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيخٌ وَصِبيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ؛ بَينَ يَدَيهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنهَا؛ فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصِبيَانٌ، ثمَّ أَخرَجَانِي مِنهَا، فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحسَنُ، وَأَفضَلُ؛ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ.

قُلتُ: طَوَّفتُمَانِي اللَّيلَةَ؛ فَأَخبِرَانِي عَمَّا رَأَيتُ؟.

قَالَا: نَعَم؛ أَمَّا الَّذي رَأَيتَهُ يُشَقُّ شِدقُهُ؛ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالكَذبَةِ، فَتُحمَلُ عَنهُ؛ حتَّىٰ تَبلُغَ الآفَاقَ، فَيُصنَعُ بِهِ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ؛ وَالَّذِي رَأَيتَهُ يُشدَخُ رَأسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرآنَ، فَنَامَ عَنهُ بِاللَّيلِ، وَلَم يَعمَل فِيهِ بِالنَّهَارِ؛ يُفعَلُ بِهِ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ؛ وَالَّذِي رَأَيتَهُ فِي الثَّقبِ؛ فَهُمُ الزُّنَاةُ؛ وَالَّذِي رَأَيتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُوا الرِّبَا؛ وَالشَّيخُ فِي أَصلِ الشَّجَرَةِ إِبرَاهِيمُ عليه السلام، وَالصِّبيَانُ حَولَهُ فَأَولَادُ النَّاسِ؛ وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ؛ وَالدَّارُ الأُولَىٰ الَّتي دَخَلتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤمِنِينَ؛ وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ؛ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ؛ فَارفَع رَأسَكَ، فَرَفَعتُ رَأسِي؛ فَإِذَا فَوقِي مِثلُ السَّحَابِ!.

قَالَا: ذَاكَ مَنزِلُكَ. قُلتُ: دَعَانِي أَدخُل مَنزِلِي. قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَم تَستَكمِلهُ؛ فَلَو استَكمَلتَ، أَتَيتَ مَنزِلَكَ»(١).

ومن ذلك حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قال: مرَّ النَّبيُّ ﷺ بقبرين، فقال: «**إنَّهما ليُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبيرٍ؛ أمَّا أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأمَّا الآخر فكان يمشي بالنَّميمة**»، ثمَّ أخذ جريدةً رطبةً فشقَّها نصفين، فغرز في كلِّ قبرٍ واحدةً.

قالوا: يا رسول الله، لِمَ فعلت هذا؟! قال: «**لعلَّه يُخفف عنهما ما لم ييبسا**»، رواه البخاريُّ(٢).

والأدلَّة في هذا الباب كثيرةٌ؛ نسأل الله السَّلامة من عذاب القبر، وأَنْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يجعلنا مِمَّنْ يُنعَّمون فيه.

وقد أنكرت عذابَ القبرِ المعتزلةُ، وقالوا: إنَّا لو كشفنا عمَّن يكون في القبر لوجدناه كما هو، يعني: ما نرىٰ عليه العذاب.

فيُقَال لهم: إنَّ عذاب القبر لا يراه الَّذي في الدُّنيا، ولا يحسُّ به؛ لأنَّه لو رآه لكان الغيبُ شهادةً، وممَّا يستدلُّ به علىٰ ذلك أيضًا أنَّنا علىٰ يقينٍ بأنَّ كلَّ واحدٍ منَّا معه ملكان باللَّيل، وملكان بالنَّهار، وقَدْ أثبت الله ذلك في موضعين من كتابه في سورة «ق»: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧، ١٨].

فهل نحن نرى الملائكة الَّذين معنا؟

الجواب: لا، ولكنَّا نؤمن بوجودهم، وإِنْ لَمْ نرهم، وقَدْ أخبر الله ﷻ عن ذلك أيضًا في سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

كذلك أيضًا الجنُّ الَّذين أخبرنا الله عنهم بأنَّهم معنا، وقد نعالج الممسوس، ويَتكلَّم المُتلبِّس به، ويُدْلي لنا بحقائق قَدْ يكون أنَّا لا نعرفها، وإِنْ كان قَدْ يكون كَذَّابًا إلَّا أنَّا نؤمن بأنَّ الجنَّ خَلْقٌ مثلنا، ولكنَّهم مَخفيُّون عنَّا، وقَدْ أخبرنا القرآن بذلك، فقال عن إبليس نعوذ بالله منه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

ومَنْ لم يؤمن بالملائكة وبالحقائق الَّتي تَضمَّنها القرآن من وجود الملائكة معنا، فإنَّه لا يكون مؤمنًا، فمَنْ أنكر عذاب القبر بزعمه: أنَّا لو

كشفنا عن بعض أهل القبور لما رأينا عليهم عذابًا؛ فيُقال لهم أيضًا: إنَّ هذا ليس بحُجَّةٍ، والله ﷻ قَدْ حَجَب أبصارنا أن نرىٰ حقائق ما يلاقيه أهل القبور، كما حَجَب أبصارنا عن الملائكة، وكما حَجَب أبصارنا عن الجنِّ، ولكن نعوذ بالله من الضَّلال، ونسأل الله أن يجعلنا مِمَّنْ يؤمن به، ويؤمن بالغيب الَّذي أخبرنا عنه، وبالله التَّوفيق.

٢- القيامة الكبرى، وما يجري فيها

وَتَقُومُ القِيَامَةُ الَّتي أَخبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيهَا المُسلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِم لِرَبِّ العَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرلًا.

التعليق

أقول: إذا أراد الله ﷻ بعث الأجساد، والجزاء لكلِّ عاملٍ بما عمل، فإنَّه أَوَّلًا يأمر إسرافيل عليه السلام بالنَّفْخ في الصُّور نفخةَ الفزع، وهي تطول وتدوم كما قال سبحانه في سورة «ص»: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص:١٥].

وتنشقُّ الأرض من قطرٍ إلىٰ قطرٍ، فحينئذٍ تتزلزل الأرض بمَنْ عليها، فيفزعون فزعًا عظيمًا كما في أوَّل سورة الحجِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١، ٢].

ثمَّ تأتي نفخةُ الصَّعْق، فيموت كلُّ مَنْ خَلَق الله من حيواناتٍ، وجنٍّ، وإنسٍ، وملائكةٍ، وغيرها، حتَّىٰ يموت حَمَلة العرش، وجبريل، وميكائيل،

وإسرافيل، ومَلَك الموت، فتبقىٰ الأرضُ مُدَّةً طويلةً ليس عليها أحدٌ، تُبَسُّ فيها الجبال بمعنىٰ أنَّها تَتفتَّتْ، والبحار تُسْجَر؛ فتكون نارًا تضطرم حتَّىٰ تنتهي، ثمَّ يرسل الله ﷻ علىٰ الأرض ريحًا، فتنسف الجبال، وتُسوَّىٰ بالأرض كلِّها؛ وبدل من أن تكون الأرض كُرويَّةَ الشَّكْل، تُمَدُّ، قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

وقال ﷻ في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٥].

ثمَّ يرسل الله ﷻ مطرًا من تحت العرش علىٰ الأرض، فينبت فيها الخَلْق، ويمكث المطر أربعين يومًا، فينبت فيه الخَلْق في أصوائهم وقبورهم، فإذا تَكامَلَتْ خِلْقتهم، وأراد الله تعالىٰ قيام الأجساد عندئذٍ يحيي أوَّل مَنْ يحيي إسرافيل، ثمَّ يأمره فينفخ في الصُّور، وقَدْ وضعت الأرواح في الصُّور؛ فيأمره بالنَّفْخ فينفخ فيه، فتطير الأرواحُ إلىٰ أجسادها، وذلك بعد أن يزجرَ اللهُ الأرضَ؛ فترفع الأجساد إلىٰ قرب قشرتها، فإذا نُفِخ في الصُّور، طارت كلُّ روحٍ إلىٰ جسده الَّذي كان يعمره بإذن الله ﷻ.

ثمَّ يأمر اللهُ الأرضَ فتنشقُّ عنهم، تنشقُّ عن كلِّ واحدٍ؛ فيقوم ينفض التُّراب عن رأسه، يقول ربُّك: مَهيَم؟ أي: ما شأنك، ثمَّ يرسل الله داعيًا يدعو: يا أيُّها النَّاس، هلمُّوا إلىٰ ربِّكم، فيذهبون إلىٰ الدَّاعي، ويَتَّبعونه، قال ﷻ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ

﴿ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٦-٨].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، فيجتمعون على أرض المحشر، ليس لكلِّ إنسانٍ إلَّا موضع قدميه، ويقفون موقفًا طويلًا في ذلك اليوم الَّذي يُقدَّر بخمسين ألف سنةٍ، فتدنو منهم الشَّمس، ويصهرها الحرُّ، ويَعْلُوهم العرق في ذلك الموقف الطَّويل.

ثمَّ إنَّ المؤمنين يَمْشُون بعضهم في بعضٍ: «**فيقول بعضُ النَّاس لبعضٍ: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام؛ فيقولون له: أنت أبو البشر، خَلَقك الله بيده، ونفخ فيك من رُوحِهِ، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلىٰ ربِّك؛ ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه، ألا ترىٰ إلىٰ ما قَدْ بلغنا؟!!**

فيقول آدم: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه نهاني عن الشَّجرة فعصيتُهُ، نفسي نفسي نفسي؛ اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ نوحٍ.

فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح، إنَّك أنت أوَّل الرُّسل إلىٰ أهل الأرض، وقَدْ سَمَّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلىٰ ربِّك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه.

فيقول: إنَّ ربِّي عزوجل قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه قَدْ كانت لي دعوةٌ دعوتها علىٰ قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ إبراهيم، فيأتون إبراهيم.

فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلىٰ ربِّك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟! فيقول لهم: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنِّي قَدْ كنت كذبت ثلاث كذباتٍ -فذكرهنَّ أبو حيَّان في الحديث- نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ موسىٰ، فيأتون موسىٰ، فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسول الله، فَضَّلَك الله برسالته، وبكلامه علىٰ النَّاس، اشفع لنا إلىٰ ربِّك؛ ألا ترىٰ ما نحن فيه؟!

فيقول: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنِّي قَدْ قتلتُ نفسًا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ.

فيأتون عيسىٰ، فيقولون: يا عيسىٰ، أنت رسول الله وكَلِمتُهُ، ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، وكلَّمتَ النَّاسَ في المهد صبيًّا، اشفع لنا، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟!

فيقول عيسىٰ: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ مُحمَّدٍ ﷺ.

فيأتون مُحمَّدًا ﷺ؛ فيقولون: يا مُحمَّد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقَدْ غفر الله لك ما تَقدّم من ذنبك وما تَأخَّر، اشفع لنا إلىٰ ربِّك؛ ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه، فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربِّي عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ يفتح الله

عليَّ من محامده، وحسن الثَّنَاء عليه شيئًا لم يفتحه علىٰ أحدٍ قبلي.

ثمَّ يقال: يا مُحمَّد، ارفع رأسك، سَلْ تُعطَه، واشْفَع تُشفَّع، فأرفع رأسي، فأقول: أُمَّتي يا ربِّ، أُمَّتي يا ربِّ»[1].

ثمَّ يأمر الله ﷻ بفصل القضاء، فنحن الآخرون السَّابقون يوم القيامة، فحينئذٍ تُعرَض الدَّواوين، وتُنْصَب الموازين، هذه هي حال القيامة العامَّة.

والنَّاس فيها حينئذٍ أربعةُ أقسامٍ:

١- أصحاب الشِّمال.

٢- أصحاب اليمين.

٣- السَّابقون.

٤- الظَّالمون لأنفسهم.

فأمَّا الكُفَّار المَلِيُّون؛ أي: أصحاب البدع المُكفِّرة الَّتي تخرجهم من الإسلام، ويَبْقَون عليها إلىٰ أن يموتوا، فهؤلاء أصحاب النَّار، وقَدْ أخبر الله ﷻ عنهم بأنَّهم يدخلون من أبواب جهنَّم السَّبعة، لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ؛ قال الله ﷻ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤].

وأمَّا السَّابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الكبائر من أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ وغيرهم من الأمم الَّذين ماتوا علىٰ التَّوحيد؛ فَتَوْحيدُهُم يمنعهم من دخول نارِ الكُفَّارِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذُنُوبُهم تمنعهم من دخول الجنَّة بدون عذابٍ؛ فهؤلاء يُعذَّبون في الطَّبقة العليا من نارِ جهنَّم الَّتي يُنْصَب عليها الصِّراط، ويمرُّ النَّاسُ عليه، كلٌّ علىٰ قَدْرِ عملِهِ؛ منهم مَنْ يمرُّ كلمح البصر، وكالبرق الخاطف، وكسرعة الرِّيح، وكأجاويد الخيل، وكسعي الرِّجال، ومنهم مَنْ يهرول، ومنهم مَنْ يمشي، وبعض النَّاجين يزحف علىٰ بطنه، ويتساقط مَنْ يريد الله لهم العذاب، يتساقطون في النَّار، فتحرقهم، ويموتون فيها موتةً.

ثمَّ يأذن الله بالشَّفاعة بعد زمنٍ طويلٍ، فيخرج مَنْ كان في نار المُوحِّدين؛ إمَّا بشفاعة الشَّافعين، أو برحمة ربِّ العالمين، وعلىٰ هذا يكون الانتهاء والاستقرار لكلِّ عبدٍ بحسب عمله، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يُثبِّتنا علىٰ الحقِّ حتَّىٰ نلقاه، وأَنْ يبعثنا عليه، وأَنْ يُثيبَنا بجَنَّته، ويُعِيذنا من ناره، وبالله التَّوفيق.

ما يجري في يوم القيامة

وَتَدنُو مِنهُمُ الشَّمسُ، وَيُلجِمُهُمُ العَرَقُ؛ فَتُنصَبُ المَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعمَالُ العِبَادِ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢، ١٠٣].

وَتُنشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، أَو مِنْ وَرَاءِ ظَهرِهِ؛ كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلَائِقَ، وَيَخلُو بِعَبدِهِ المُؤمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة، وَأَمَّا الكُفَّارُ، فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُم لَا حَسَنَاتِ لَهُم، وَلَكِن تُعَدُّ أَعمَالُهُم، فَتُحصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا.

التعليق

أقول: القيامة قيامتان:

١- **القيامة الصُّغْرى:** وهي الموت، فمَنْ مات، قَامَتْ قيامتُهُ.

٢- **القيامة الكبرى**: وهي البعث بعد الموت، وجمع النَّاس ليوم لا ريب فيه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٦-٨].

هكذا سيكون لا محالة، وإنَّ الله ﷻ قَدَّر أن يقوم النَّاس من قبورهم لربِّ العالمين حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، وما معنىٰ غُرْلًا؟ بمعنىٰ أنَّ الغرارة الَّتي هي الحَشَفة تعود علىٰ الذَّكَر؛ لأنَّه يُبْعَث كما خُلِق بدون ختانٍ، يُبْعث النَّاس علىٰ هذه الهيئة؛ حُفاةً عُراةً. حُفَاةً أي: لا نعال لهم. عُرَاةً: لا ثياب لهم.

وأوَّل مَنْ يُكْسَىٰ من الخلائق: إبراهيم -عليه الصَّلاة والسَّلام- كما ثبت ذلك في الأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ.

وقوله: «**وتدنو منهم الشَّمس، ويلجمهم العرق**»، أي: سيكون هذا في يومٍ مقدارُهُ خمسون ألف سنةٍ، ويُقَال: إنَّ مقدار الوقوف في ذلك الموقف يُقدَّر بخمس مئة عامٍ، يَشِيب فيه الوليدُ، ويَعْظُمُ فيه الكربُ، ويكون النَّاس في رَشْحِهم علىٰ قَدْر أعمالهم، فهذا رَشْحُهُ إلىٰ كعبيه، وهذا إلىٰ نصف ساقيه، وهذا إلىٰ ركبتيه، وهذا يلجمه العرق إلجامًا، والعياذ بالله.

ثمَّ بعد ذلك يشفع النَّبيُّ ﷺ في فصل القضاء بطلبٍ من المؤمنين؛ فيأمر الله بفصل القضاء بعد شفاعة النَّبيِّ ﷺ، وبعد أن يَتنصَّل الرُّسُل جميعًا

من هذه الشَّفاعة: آدم، ونوحٌ، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ فكلُّهم يَتنصَّلون منها، ويعتذرون منها، فيشفع النَّبيُّ ﷺ، ويأمرُ اللهُ بفصل القضاء، وحينئذٍ تُنشر للمؤمنين الدَّواوين، ويُعطَون صحف أعمالهم بأيمانهم، وأمَّا الكافر؛ فتُعطَىٰ صحيفته من وراء ظهره، ولا تُوجَد له حسنةٌ؛ لأنَّ حسنات الكُفَّار حابطةٌ، والعياذ بالله، وإنْ نفعتهم فإنَّها تنفعهم في الدُّنيا، نسأل الله العفو والعافية.

حوض النبي ﷺ، ومكانه، وصفاته

وَفِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ الحَوضُ المَورُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحلَىٰ مِنَ العَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّماء، طُولُهُ شَهرٌ، وَعَرضُهُ شَهرٌ، مَنْ يَشرَبُ مِنهُ شَربَةً لا يَظمَأُ بَعدَهَا أَبَدًا.

التعليق

أقول: اختلف أهل العلم في الحوض، فاختلفوا في موضوعه في مسائل:

أوَّلًا: هل الحوض خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ من بين سائر الأنبياء، وأمَّته من بين سائر الأمم، أَمْ أنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضًا؟ أمَّا كونه خاصٌّ بالنَّبيِّ ﷺ فهذا هو الظَّاهر من الأدلَّة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر].

فقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: يُفهَم منه أنَّ الله أعطىٰ نَبيَّه مُحمَّدًا ﷺ الكوثر دون غيره من الأنبياء، وقَدْ قال بعضُ أهل العلم: إنَّ لكلِّ نبيٍّ حَوْضًا[1].

---

(١) وقد أخرج الترمذي (٢٤٤٣) في ذلك حديثًا عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكل نبي حوضًا، وإنَّهم يتباهون أيُّهم أكثر وَارِدَة، وإنِّي أرجو أن أكونَ أكثرَهم وَارِدَة». قال الترمذي: «هذا حديث غريب»، وصَحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١٥٨٩).

ومِمَّنْ قال بذلك: أبو الحسن البَرْبَهَاري[١].

ثانيًا: هل الحوض قبل الصِّراط أو بعده؟ الظَّاهر أنَّه قبل الصِّراط، وقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «**تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الحَوضَ، وَأَنَا أَذُودُ النَّاسَ عَنهُ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَن إِبِلِهِ**». قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتعرِفُنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، لَكُم سِيمَا لَيسَت لِأَحَدٍ غَيرِكُم، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوُضُوءِ، وَلَيُصَدَّنَّ عَنِّي طَائِفَةٌ مِنكُم، فَلَا يَصِلُونَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ مِنْ أَصْحَابِي!! فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ، فَيَقُولُ: وَهَل تَدرِي مَا أَحْدَثُوا بَعدَكَ؟!**»[٢].

والظَّاهر: أنَّ هذا الحوض يشرب منه مَنْ شرب من شريعة النَّبيِّ ﷺ، أُشْرِبُها قلبُهُ، وأيقنَتْ بها نفسُهُ، أمَّا مَنْ بَعُدَ عنها، ولم يؤمن بها، ولم يَتَّبعها، فالظَّاهر أنَّه يُحرَم من شرب حوض النَّبيِّ ﷺ الَّذي مَنْ شرب منه شربةً لا يظمأ بعدها أبدًا، والله ﷻ يقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٨، ١٩].

إذًا؛ مَنْ لم يأخذ حظًّا من الشَّريعة فهو من الظَّالمين الَّذين كُتِبَتْ عليهم الشَّقاوة.

ثالثًا: أَجْمعَ أهل العلم علىٰ إثبات الحوض، ووردت فيه أحاديثُ كثيرةٌ؛ قال ابْنُ القَيِّم: «وقَدْ روىٰ أحاديث الحوض أربعون صحابيًّا، وكثيرٌ منها أو أكثرها في الصَّحيح»[٣]، وخالفت في ذلك المعتزلة، فأنكروا الحوضَ،

(١) «شرح السنة»، للبربهاري، (ص ٣٦) (١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «حاشية ابن القيم علىٰ سنن أبي داود» (١٣/ ٥٦).

وأوَّلوا النُّصوصَ الواردة فيه، وحوَّلوها عن ظواهرها.

رابعًا: أوصاف الحوض؛ فعَن عَبدِ اللهِ بْنِ الصَّامِتِ: عَن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا آنِيَةُ الحَوضِ؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَآنِيَتُهُ أَكثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّماء وَكَوَاكِبِهَا؛ أَلا فِي اللَّيلَةِ المُظلِمَةِ المُصحِيَةِ آنِيَةُ الجنَّة، مَنْ شَرِبَ مِنهَا لَم يَظمَأ آخِرَ مَا عَلَيهِ، يَشخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الجنَّة؛ مَنْ شَرِبَ مِنهُ لَم يَظمَأ، عَرضُهُ مِثلُ طُولِهِ، مَا بَينَ عَمَّانَ إِلَىٰ أَيلَةَ؛ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحلَىٰ مِنَ العَسَلِ**»[1].

وَعَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيكَةَ قَالَ: قَالَ عَبدُ اللهِ بنُ عَمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَوضِي مَسِيرَةُ شَهرٍ، مَاؤُهُ أَبيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطيَبُ مِنَ المِسكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ، مَنْ شَرِبَ مِنهَا، فَلَا يَظمَأُ أَبَدًا**»[2].

وعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ حَوضِي أَبعَدُ مِنْ أَيلَةَ مِنْ عَدَنٍ، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلجِ، وَأَحلَىٰ مِنَ العَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكثَرُ مِن عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَن حَوضِهِ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَعرِفُنَا يَومَئِذٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، لَكُم سِيمَا لَيسَت لِأَحَدٍ مِن الأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الوُضُوءِ**»[3]، إلىٰ غيرها من الأحاديث الَّتي تدلُّ علىٰ أوصافِ حوضِ نَبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٠٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصراط: معناه، ومكانه، وصفة مرور الناس عليه

وَالصِّرَاطُ مَنصُوبٌ عَلَىٰ مَتنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الجِسرُ الَّذي بَينَ الجنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيهِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِم، فَمِنهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمحِ البَصَرِ، وَمِنهُم مَنْ يَمُرُّ كَالبَرقِ، وَمِنهُم مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنهُم مَنْ يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ، وَمِنهُم مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، وَمِنهُم مَنْ يَعدُو عَدْوًا، وَمِنهُم مَنْ يَمشِي مَشيًا، وَمِنهُم مَنْ يَزحَفُ زَحفًا، وَمِنهُم مَنْ يُخطَفُ، وَيُلقَىٰ فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الجِسرَ عَلَيهِ كَلَالِيبُ تَخطَفُ النَّاسَ بِأَعمَالِهِم.

التعليق

أقول: الصِّراط: هو الجسر الَّذي فوق جهنَّم، وهذا الصِّراط الَّذي كان في الدُّنيا معنويًّا، تحوَّل يوم القيامة حِسِّيًّا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال ﷻ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، فالصِّراط -أصلًا- هو الطَّريق، والمقصود به الطَّريق الَّذي رسمه الله ﷻ لِنبيِّه، وهو الشَّرع الَّذي

أمره أن يسير عليه، فالصِّراط بدل ما كان في الدُّنيا معنويًّا، فإنَّه ينقلب يوم القيامة حِسِّيًّا، فمَنِ اسْتَقامَ عليه في الدُّنيا، يستطيع السَّيْر عليه حينما يكون منصوبًا علىٰ النَّار وهو أدقُّ من الشَّعر، وأحدُّ من السَّيف، وبقدر المسارعة إلىٰ الحقِّ في الدُّنيا، تكون المسارعة عليه يوم القيامة.

وقَدْ ورد في الحديث من حديث أبي هريرة وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يَجمَعُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- النَّاسَ، فَيَقُومُ المُؤمِنُونَ حتَّىٰ تُزْلَفَ لَهُمُ الجنَّة، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، استَفتِح لَنَا الجنَّةَ؟ فَيَقُولُ: وَهَل أَخْرَجَكُم مِن الجنَّة إلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُم آدَمَ؟! لَستُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَىٰ ابنِي إِبرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ.**

قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَستُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَىٰ مُوسَىٰ ﷺ الَّذي كَلَّمَهُ اللهُ تَكلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ ﷺ؛ فَيَقُولُ: لَستُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ؛ اذْهَبُوا إِلَىٰ عِيسَىٰ كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَىٰ ﷺ: لَستُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ، فَيُؤذَنُ لَهُ، وَتُرسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ؛ فَتَقُومَانِ جَنبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُم كَالبَرقِ».

قَالَ: قُلتُ: بِأَبِي أَنتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيءٍ كَمَرِّ البَرقِ؟ قَالَ: «**أَلَمْ تَرَوا إِلَىٰ البَرقِ كَيفَ يَمُرُّ وَيَرجِعُ فِي طَرفَةِ عَينٍ، ثمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثمَّ كَمَرِّ الطَّيرِ؛ وَشَدِّ الرِّجَالِ؛ تَجرِي بِهِم أَعْمَالُهُم، وَنَبِيُّكُم قَائِمٌ عَلَىٰ الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّم سَلِّم؛ حتَّىٰ تَعجِزَ أَعْمَالُ العِبَادِ؛ حتَّىٰ يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَستَطِيعُ السَّيرَ إِلَّا**

زَحفًا. قَالَ: وَفِي حَافَتي الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ، فَمَخدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكدُوسٌ فِي النَّارِ، وَالَّذِي نَفسُ أَبِي هُرَيرَةَ بِيَدِهِ، إِنَّ قَعرَ جَهَنَّمَ لَسَبعُونَ خَرِيفًا»(١).

وهذا كلُّه لأُمَّة الإجابة، أمَّا أُمَّة الدَّعْوة الَّذين لم يستجيبوا قطُّ(٢)، فأولئك يُسَاقون إلىٰ أبواب جهنَّم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤].

وكلُّ مَنْ كان بينهم تشابهٌ في الأعمال؛ كالمشركين الخُرافيِّين، واليهود المغضوب عليهم، والنَّصارىٰ الضَّالِّين، وغيرهم، فإنَّهم يدخلون النَّار من بابٍ واحدٍ، قال الله تعالىٰ: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات:٢٢-٢٦]، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) من حديث أبي هريرة وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) وهم الكفار والمنافقون نفاقًا اعتقاديًّا.

القنطرة بين الجنة والنار

فَمَنْ مَرَّ عَلَىٰ الصِّرَاطِ، دَخَلَ الجنَّةَ، فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيهِ، وَقَفُوا عَلَىٰ قَنطَرَةٍ بَينَ الجنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقتَصُّ لِبَعضِهِم مِنْ بَعضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجنَّةِ.

التعليق

أقول: يظهر من هذا أنَّ الحقوق الَّتي بين المسلمين والكُفَّار يُقتصُّ منها قبل الصِّراط.

وقَدْ جاء في الحديث القدسي من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: بَلَغَنِي حَدِيثٌ عَن رَجُلٍ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاشْتَرَيتُ بَعِيرًا، ثمَّ شَدَدتُ عَلَيهِ رَحْلِي، فَسِرتُ إِلَيهِ شَهرًا حتَّىٰ قَدِمتُ عَلَيهِ الشَّامَ، فَإِذَا عَبدُ اللهِ بْنُ أُنَيسٍ، فَقُلتُ لِلبَوَّابِ: قُل لَهُ: جَابِرٌ عَلَىٰ البَابِ، فَقَالَ: ابنُ عَبدِ اللهِ؟ قُلتُ: نَعَمْ، فَخَرَجَ يَطَأُ ثَوبَهُ، فَاعْتَنَقَنِي وَاعتَنَقتُهُ.

فَقُلتُ: حَدِيثًا بَلَغَنِي عَنكَ أَنَّكَ سَمِعتَهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي القِصَاصِ،

فَخَشِيتُ أَن تَمُوتَ أَو أَمُوتَ قَبلَ أَن أَسْمَعَهُ، قَالَ سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يُحشَرُ النَّاسُ يَومَ القِيَامَةِ** -أَو قَالَ: العِبَادُ- **عُرَاةً غُرلًا بُهمًا**»؛ قَالَ: قُلنَا: وَمَا بُهمًا؟

قَالَ: «**لَيسَ مَعَهُم شَيءٌ، ثُمَّ يُنَادِيهِم بِصَوتٍ يَسمَعُهُ مِنْ قُربٍ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ؛ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهلِ النَّارِ أَن يَدخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِندَ أَحَدٍ مِن أَهلِ الجنَّةِ حَقٌّ حتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن أَهلِ الجنَّةِ أَن يَدخُلَ الجنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهلِ النَّارِ عِندَهُ حَقٌّ حتَّىٰ أَقُصَّهُ مِنهُ حتَّىٰ اللَّطمَةُ**».

قَالَ: قُلنَا: كَيفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأتِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ عُرَاةً غُرلًا بُهمًا؟ قَالَ: «**بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**»[1].

ويظهر من هذا الحديث أنَّ الحقوق بين المؤمنين تُؤخَّر، فإذا وصلوا إلىٰ هذه القنطرة، اقتصَّ لبعضهم من بعضٍ، ثمَّ بعد ذلك يُؤذَن لهم في دخول الجنَّة، فمَنْ تجاوز الجسر، وسَلِمَ من السُّقُوط في جهنَّم، فإنَّه لا بدَّ له من دُخُول الجنَّة قبل العذاب، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٥) (١٦٠٨٥)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٠٨): «حسن لغيره».

أول من يستفتح باب الجنة، وأول من يدخلها وشفاعات النبي ﷺ

وَأَوَّلُ مَنْ يَستَفتِحُ بَابَ الجنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَنْ يَدخُلُ الجنَّة مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ، وَلَهُ ﷺ فِي القِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَىٰ: فَيَشفَعُ فِي أَهلِ المَوقِفِ حتَّىٰ يُقضَىٰ بَينَهُم بَعدَ أَن يَتَرَاجَعَ الأَنبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسَىٰ ابنُ مَريَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حتَّىٰ تَنتَهِيَ إِلَيهِ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَشفَعُ فِي أَهلِ الجنَّة أَن يَدخُلُوا الجنَّة.

وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِيقِينَ وَغَيرِهِم، فَيَشفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَلَّا يَدخُلَهَا، وَيَشفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخرُجَ مِنهَا.

التعليق

أقول: إنَّ الشَّفاعة في فصل القضاء يوم القيامة حتَّىٰ يستريحوا من الموقف، ويستحقُّ منهم منزله بعمله، وقَدْ ورد من الأدلَّة أنَّ المؤمنين يوم القيامة عندما يَطُولُ عليهم الموقف والانتظار يمشي بعضهم في بعضٍ: «فيقول بعض النَّاس لبعضٍ: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام؛ فيقولون له: أنت أبو البشر، خَلَقك الله بيده، ونَفَخ فيكَ من رُوحِهِ، وأمرَ الملائكةَ فَسَجَدوا لك، اشفع لنا إلىٰ ربِّك؛ أَلا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه، أَلا ترىٰ إلىٰ ما قَدْ بلغنا؟!!

فيقول آدم: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه نهاني عن الشَّجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ نوحٍ.

فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح، إنَّك أنت أوَّل الرُّسُل إلىٰ أهل الأرض، وقَدْ سَمَّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلىٰ ربِّك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه.

فيقول: إنَّ ربِّي عزوجل قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه قَدْ كانت لي دعوةٌ دعوتها علىٰ قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ إبراهيم، فيأتون إبراهيم.

فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلىٰ ربِّك؛ أَلا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟! فيقول لهم: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنِّي قَدْ كنت كذبتُ ثلاثَ كذباتٍ - فذكرهنَّ أبو حَيَّان في الحديث- نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري،

اذهبوا إلىٰ موسىٰ، فيأتون موسىٰ، فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسول الله، فضَّلَك الله برسالته، وبكلامه علىٰ النَّاس، اشفع لنا إلىٰ ربِّك؛ أَلَا ترىٰ ما نحن فيه؟!

فيقول: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنِّي قَدْ قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ.

فيأتون عيسىٰ، فيقولون: يا عيسىٰ، أنت رسولُ الله وكَلِمَتُهُ ألقاها إلىٰ مريم، وروحٌ منه، وكَلَّمت النَّاس في المهد صبيًّا، اشفع لنا، أَلَا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟!.

فيقول عيسىٰ: إنَّ ربِّي قَدْ غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله قطُّ، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنبًا، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ مُحمَّدٍ ﷺ.

فيأتون مُحمَّدًا ﷺ؛ فيقولون: يا مُحمَّد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقَدْ غفر الله لك ما تَقدَّم من ذنبك وما تَأخَّر، اشفع لنا إلىٰ رَبِّك؛ أَلَا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه، فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربِّي عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ يفتح الله عليَّ من مَحَامِدِهِ، وحسن الثَّناء عليه شيئًا لم يفتحه علىٰ أحدٍ قبلي.

ثمَّ يُقَال: يا مُحمَّد، ارفع رأسك، سَلْ تُعطَه، واشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي؛ فأقول: أُمَّتي يا ربِّ، أُمَّتي يا ربِّ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فيأمر الله ﷻ بفصل القضاء، فتكون أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ هي الأولىٰ من الأمم يفصل بينها، ولهذا يقول النَّبيُّ ﷺ: «**نَحنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَومَ القِيَامَةِ؛ بَيْدَ أَنَّهُم أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبلِنَا، ثمَّ هَذَا يَومُهُم الَّذي فُرِضَ عَلَيهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ؛ اليَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَىٰ بَعدَ غَدٍ**»[1]، فالمقام المحمود هي الشَّفَاعة الأولىٰ في فصل القضاء.

ومرَّةً أخرىٰ بعد أن يمرَّ المؤمنون علىٰ الصِّراط، ويُهذَّبون في القنطرة عند ذلك يشفع لهم مَرَّةً أخرىٰ في دخول الجنَّة، فيشفع، ويفتح باب الجنَّة بشفاعته، ويكون أوَّلُ مَنْ يدخلها من الأمم أمَّته.

وهاتان الشَّفَاعتان خَاصَّتان بالنَّبيِّ ﷺ، والشَّفَاعة الثَّالثة تكون مشتركةً بينه وبين غيره من النَّبيِّين والصِّدِّيقين، وغيرهم، وهي الشَّفَاعة في قومٍ اسْتَحقُّوا دخول النَّار، فيشفع فيهم أن يخرجوا منها.

أمَّا تلك القنطرة، فهي مكانٌ بين الجنَّة والنَّار، يقتصُّ فيه لبعضهم من بعضٍ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا، دخلوا الجنَّة، إذ إنَّ الجنَّة طَيِّبةٌ لا يدخلها إلَّا الطَّيِّبون، جعلنا الله منهم، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إخراج الله لبعض العصاة من النار برحمته من غير شفاعة

وَيُخرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضلِهِ وَرَحمَتِهِ، وَيَبقَىٰ فِي الجنَّة فَضلٌ عَمَّنْ دَخلَهَا مِنْ أَهلِ الدُّنيا، فَيُنشِئُ اللهُ لَهَا أَقوَامًا، فَيُدخِلُهُم الجنَّة.

وَأَصنَافُ مَا تَضَمَّنَتهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالجنَّة وَالنَّارِ؛ وَتَفاصِيلُ ذَلِكَ مَذكُورَةٌ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّماءِ، وَالآثَارِ مِنَ العِلمِ المَأثُورِ عَنِ الأَنبِيَاءِ، وَفِي العِلمِ المَورُوثِ عَن مُحَمَّدٍ ﷺ مِن ذَلِكَ مَا يَشفِي وَيَكفِي، فَمَنِ ابتَغَاهُ وَجَدَهُ.

التعليق

وأقول: قَدْ ورد في النُّصوص الشَّرعيَّة من أحاديث الشَّفاعة منها ما وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَحَاجَّت الجنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ وَالمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الجنَّةُ: مَا لِي لَا يَدخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ، وَسَقَطُهُم؟!

قَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- لِلجَنَّةِ: أَنتِ رَحمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ

عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِن عِبَادِي؛ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنهُمَا مِلؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمتَلِئُ حتَّىٰ يَضَعَ رِجلَهُ، فَتَقُولُ: قَط قَط، فَهُنَالِكَ تَمتَلِئُ، وَيُزوَىٰ بَعضُهَا إِلَىٰ بَعضٍ، وَلَا يَظلِمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ خَلقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الجنَّةُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُنشِئُ لَهَا خَلْقًا»(١).

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلقَىٰ فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنزَوِي بَعضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ؛ وَتَقُولُ: قَط قَط؛ بِعِزَّتِكَ، وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الجنَّة فَضلٌ حتَّىٰ يُنشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسكِنَهُم فَضْلَ الجنَّةِ»(٢).

وهذا ما يجعلنا نطمع في الجنَّة كثيرًا، بعد أن عَرَفْنَا أنَّ الله ﷻ يَخلق للأجزاء الفَاضِلَة من الجنَّة أقوامًا لم يُقدِّموا خيرًا قط، ولم يكونوا من أهل الدُّنيا، فيُسكنهم إيَّاها بفضله ورحمته إلَّا أنَّا نَتَخوَّف من تقليب القلوب، وتحويلها عن الإيمان إلىٰ الكفر، والعياذ بالله، فيستحقُّ العبد بذلك النَّار، ونحن نسأل الله العفو والعافية، وأن يُعَافينا مِن تَقْليب القُلوب، ومن الزَّيْغ بعد الاستقامة.

نسأله -جلَّت قُدْرتُهُ- أن يَعْصِمنا من ذلك حتَّىٰ نلقاه علىٰ الإيمان الَّذي نستحقُّ به دخول الجنَّة، وبالله التَّوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الإيمان بالقدر وبيان ما يتضمنه

وَتُؤْمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَىٰ دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيئَينِ.

التعليق

أقول: القَدَر هو ما قَدَّره الله عَزَّوَجَلَّ على العباد، وكَتَبه عليهم من خيرٍ وشرٍّ، وكفرٍ وإيمانٍ، وطاعةٍ ومعصيةٍ، وقَدْ جاء في الحديث: «**أوَّل ما خلق الله: القلم، فقال له: اكتب، فَجَرىٰ في تلك السَّاعة بما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامة**»(١).

وقَدْ وَرَدَ أنَّ الصَّحابة -رضوان الله عليهم- قالوا: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل، هو شيءٌ قد فُرِغَ منه أو شيءٌ مُسْتَأنفٌ؟ فقال: النَّبيُّ ﷺ: «**بل شيءٌ قد فُرِغَ منه**».

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٣١٧) (٢٢٧٥٧)، وبنحوه أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٢٠١٧).

فقالوا: يا رسول الله، ففيم العمل إذًا؟ قال: «**اعملوا، فكلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له**»(١).

وفي حديثِ أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَن يَقضِيَ خَلقَهُ، قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنثَىٰ؛ شَقِيٌّ أَم سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزقُ وَالأَجَلُ؟ فَيُكتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**»(٢).

فهذه أدلَّةٌ علىٰ القَدَر، وأنَّه قد فُرِغَ منه، وفي هذه الجمل الَّتي كتبها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بيانٌ لذلك.

قوله: «**والإيمان بالقَدَر علىٰ درجتين، وكلُّ درجةٍ تَتضمَّن شيئين**».

أقول: درجات الإيمان بالقَدَر أربعُ درجات:

١- **الدَّرجة الأولى**: عِلْمُ الله الأزليُّ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك: عِلْمُهُ بأعمال العباد قبل أن يعملوها.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢/ ١٦١) (١٤٢٥٨) عن سراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والترمذي (٣١١١) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصَحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٠٧٤).
وأخرج البخاريُّ أصلَه (٤٩٤٩) ومُسلم (٢٦٤٧) عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل يَنكت به الأرضَ، فقال: «**مَا مِنكم من أحدٍ إلا وقد كُتِب مَقْعدُه من النَّار، ومَقْعَدُه مِن الجَنَّة**». قالوا: يا رسول الله، أَفَلَا نَتَّكِل علىٰ كتابِنا، ونَدَعُ العَمَل؟ قال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِق له، أَمَّا مَن كان من أهل السَّعَادة فَيُيسر لعمل أهل السَّعادة، وأَمَّا مَن كان من أَهل الشَّقَاء فَيُيسر لِعَمل أهل الشَّقَاوة**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل:٥، ٦] الآية»، واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- **الدَّرَجة الثَّانية:** كتابة ذلك العلم في اللَّوْح المحفوظ.

٣- **الدَّرَجة الثَّالثة:** مشيئة الله الشَّاملة، وقدرتُهُ التَّامَّة بكلِّ حادثٍ.

٤- **الدَّرجَة الرَّابعة:** إيجاد الله لكلِّ المخلوقات، وأنَّه الخالق، وما سواه مخلوقٌ.

هذه مراتبُ القَدَر، وهي علىٰ سبيل الإجمال، فلو قَدَّر الله ﷻ أنَّ فلانًا يُخْلَق بين أبوين هما فلانٌ وفلانةٌ، يلتقيان علىٰ ما قُدِّر كونًا وشرعًا من النِّكاح الشَّرعيِّ، أو قُدِّر كونًا، ولم يُقدَّر شرعًا من الزِّنا، فينشأ من ذلك الالتقاء الابنُ أو البنتُ الَّذي قَدَّر الله، وكتب وجوده أو وجودها من الأبوين في زمانٍ كذا، ومكانٍ كذا، وأنَّه قَدَّر لذلك المخلوق حين يخلقه رِزْقًا وأجلًا، وهكذا إلىٰ أن يموت.

وهناك تقسيمٌ آخر للقَدَر، وأنَّه أربعُ مراتب:

١- **المرتبة الأولى:** القَدَرُ الأزليُّ للأشياء، وكتابة ذلك القَدَر في اللَّوْح المحفوظ.

٢- **المرتبة الثَّانية:** القَدَرُ العمريُّ، وهو أنَّ الله ﷻ يرسل المَلَك إلىٰ النُّطْفة بعد كمال أربعة أشهرٍ، فيُصوِّرها، وينفخ فيها الرُّوح بعد كمال الأربعين الثَّالثة، ويُؤمَر بكَتْبِ رِزْقِهِ، وأَجَلِهِ، وعملِهِ، وشقيٌّ أو سعيدٌ.

٣- **المرتبة الثَّالثة:** القَدَرُ الحوليُّ، وهو أيضًا مأخوذٌ من القَدَر الأزليِّ، وهذه المرتبة تكون ليلة القدر الَّتي أخبر الله عنها أنَّه أنزل القرآن فيها كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١].

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وَوَصَفها بأنَّه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤]، فيُكتَب الَّذين يموتون في هذا العام، والَّذين يُخْلَقون فيه، وتُكْتَب المصائب، وغير ذلك.

٤- **المرتبة الرَّابعة:** القَدَر اليوميُّ؛ وهو أنَّ الحَفَظة يكتبون أعمال العباد، ويرفعونها إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويُطبِّقونها علىٰ ما هو موجودٌ في اللَّوْح المحفوظ، فتُوجد كذلك[1]، وهذه هي المرتبة الأخيرة الَّتي ينفذ فيها القَدَر، قال الله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨]، وبالله التَّوفيق.

(١) قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ [الرعد:٣٩].

تفصيل مراتب القدر

الدرجة الأولى: العلم

فَالدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِيمٌ بِالخَلْقِ، وَهُمْ عَامِلُونَ بِعِلمِهِ القَدِيمِ الَّذي هُوَ مَوصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحوَالِهِم مِنَ الطَّاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَقَادِيرَ الخَلْقِ، فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، قَالَ لَهُ: اكْتُب، قَالَ: مَا أَكتُبُ؟ قَالَ: اكتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ، فَمَا أَصَابَ الإِنسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَم يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢].

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلمِهِ سُبحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُملَةً وَتَفصِيلًا: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَا شَاءَ، وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الجَنِينِ قَبلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ بَعَثَ إِلَيهِ مَلَكًا، فَيُؤمَرُ بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكتُبْ: رِزقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ،

وَشَقِيٌّ أَم سَعِيدٌ، وَنَحوَ ذَلِكَ، فَهَذَا التَّقدِيرُ قَدْ كَانَ يُنكِرُهُ غُلَاةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنكِرُوهُ اليَومَ قَلِيلٌ.

التعليق

أقول: جعل الشَّيخ مراتب القَدَر مرتبتين، وكلُّ مرتبةٍ لها درجتان:

فالأولى: عِلْمُهُ الشَّامل بكلِّ شيءٍ مِمَّا سيكون في هذا الكون؛ فقد علم الله أنَّ كلَّ واحدٍ من المخلوقين سيخلق في وقتِ كذا، وسيعيش كذا، ويموت في بلدة كذا، وهكذا عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ شاملٌ لجميع المخلوقات، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

فكلُّ شيءٍ في الكون قَدْ عَلِمَه الله جَلَّوَعَلَا من حركاتٍ، وسكناتٍ، وأفعالٍ، وأقوالٍ، وكلُّ ذلك قَدْ كَتَبه القلم بأمر الله في اللَّوْح المحفوظ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

فالقَحْطُ والجَدْبُ، والمطرُ والخصبُ، والضِّيقُ والسَّعةُ، والمُلكُ وزوالُهُ، والحركةُ والسُّكُون، كلُّ ذلك بقَدَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقال جلَّ من قائل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١].

فأخبر في الآية الأولىٰ أنَّ المصائبَ والنِّعَم مكتوبةٌ من قبل خَلْق السَّمَاوات والأرض، وهذه الكتابة الَّتي في اللَّوْح المحفوظ يخرج منها التَّقدير العمريُّ، وهو الَّذي يكتبه مَلَك الأَجنَّة حينما يدخل علىٰ الجنين، ويُصوِّره، وينفخ فيه الرُّوح؛ ثمَّ يكتب رزقه، وأجله، وشقيٌّ أو سعيدٌ.

والتَّقْدير الحوليُّ: وهو الَّذي يكون ليلة القدر، فيُنْسَخ من اللَّوْح المحفوظ ما يكون في نفس العام؛ من مصائبَ ونِعَم، وملكٍ، وزوالٍ، وموتٍ، وحياةٍ؛ إلىٰ غير ذلك... إلىٰ ليلة القدر من السَّنَة الآتية، ثمَّ يستخرج منه التَّقدير اليومي؛ وذلك حين التَّنْفِيذ، فيكتب الله عَزَّوَجَلَّ ما هو عاملٌ في يومه ذلك، أو في ليلته تلك؛ وهكذا... ثمَّ يطبق علىٰ ما في اللَّوْح المحفوظ، فيُوجَد كما هو، فهذه مَرَاتبُ القَدَر، وهذا هو القَدَر الكونيُّ الَّذي قَدَّر الله فيه الإيمانَ والكفرَ، والطَّاعةَ والمعصيةَ، وبالله التَّوْفيق.

الدرجة الثانية: المشيئة

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُن، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ مِنْ حَرَكَةٍ، وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبحَانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبحَانَهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ مِنَ المَوجُودَاتِ وَالمَعدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخلُوقٍ فِي الأَرضِ وَلَا فِي السَّماءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

التعليق

أقول: في هذه الدَّرَجة مشيئة الله النَّافذة، وهو إخراج ما كان معلومًا ومكتوبًا إلىٰ حيِّز الوجود، فما كتب من خَلْقٍ، وما قُدِّر من مقاديرَ؛ فعليَّةً أو قوليَّةً، فستكون كما قُدِّرت، وكما علم الله، وكتب في الأزل، وقَدْ ورد أنَّ الملائكة الكرام الكاتبين يكتبون أعمال العباد، وما يجري منهم، ثمَّ يعرجون بها إلىٰ السَّماء، ويطبقونها علىٰ ما هو موجودٌ في اللَّوْح المحفوظ، فإذا هي كما ذُكِرَ، وهذا دليلٌ علىٰ قُدْرتِهِ ﷻ، ونفاذ مشيئته وإرادته: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وبالله التَّوفيق.

الفرق بين القدر الكوني والأمر الشرعي

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَهُوَ سُبحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمُحسِنِينَ وَالمُقسِطِينَ، وَيَرْضَىٰ عَنِ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ، وَلَا يَرضَىٰ عَنِ القَومِ الفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالفَحشَاءِ، وَلَا يَرضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفرَ، وَلَا يُحِبُّ الفَسَادَ.

التعليق

أقول: إنَّ الله ﷻ خَلَق الجنَّةَ والنَّار، خلقَ الجنَّةَ للمطيعين، والنَّارَ للعاصين، وأَمَرَ النَّاس جميعًا بطاعته، والدُّخولِ في الإسلام، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة:٢٠٨].

وكما قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر:٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

إذًا؛ فاللهُ خَلَق النَّار، وخَلَق لها أَهْلًا، وخَلَق الجنَّةَ، وخَلَق لها أَهْلًا؛ فأهل الجنَّة أهلُ طاعته، وأهلُ النَّار أهلُ معصيته، واللهُ يحبُّ المحسنين، ويحبُّ

المُقْسِطين، ويبغض الكافرين، ويبغض الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، وإنْ كان الله قَدْ قَدَّر الكفرَ في اللَّوْح المحفوظ، وكَتَبه؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كَتَبه كونًا، ولم يَرْضَه شرعًا، كما كَتَب الإيمان كونًا، ورضيه شرعًا، ولهذا فإنَّ القَدَر سرٌّ من أسرار الله جَلَّوَعَلَا.

فعلينا أن نؤمن بأنَّ الله يرضىٰ لعباده الإيمانَ، ويدعوهم إلىٰ الجنَّة، ويدعوهم إلىٰ المغفرة والرَّحْمة، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والكفر والمعاصي، وقَدْ قال بعض أهل العلم: «لولا أنَّ الله قَدَّر الكفر والنَّار والجزاء الَّذي سيناله أهل النَّار، وسينال مَنْ ينال من العقوبات ما يظهر به اسمه المنتقم، واسمه الجَبَّار إلىٰ غير ذلك من الأسماء الَّتي تدلُّ علىٰ هذا المعنىٰ»؛ يعني: اسم الجَبَّار، والقهَّار، والقويِّ، والمنتقم، والقادر، وما أشبه ذلك، هذه ما أظهرت معانيها إلَّا عقوباته للكُفَّار، فهو قَدَّر الكفرَ كونًا، ولم يَرْضَه شرعًا، وتقديره له كونًا من أجل أن يظهرَ به معاني أسمائه، وأيضًا أنَّه قَدَّره عليهم كونًا، وهم يعملونه مختارين لم يجبرهم عليه، ولا ظَلَمَهم به.

وهو القويُّ، والجَبَّار، والقهَّار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ومن هنا نعلم أنَّ الله قَدْ خَلَق العباد، وقَسَمَهم إلىٰ سعداء وأشقياء، ومؤمنين وكَفَرة، وجعل لهؤلاء دارًا؛ فالكُفَّار والفُسَّاق والفُجَّار يعاملهم الله بعدله، والمؤمنون والمقسطون يعاملهم الله بفضله، وله في ذلك الحكمة التَّامَّة، وبالله التَّوْفيق.

الدرجة الثالثة والرابعة: العباد فاعلون لأعمالهم وقادرون عليها

وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالِقٌ أَفعَالَهُم.

وَالعَبدُ هُوَ: المُؤمِنُ، وَالكَافِرُ، وَالبَرُّ، وَالفَاجِرُ، وَالمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ.

وَلِلعِبَادِ قُدرَةٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِم، وَلَهُم إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُم وَقُدرَتِهِم وَإِرَادَتِهِم؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩].

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَغلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثبَاتِ، حَتَّىٰ سَلَبُوا العَبدَ قُدرَتَهُ وَاختِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

التعليق

أقول: يقول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٤-٥٦].

يقول تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى:١٠-١٣].

ففي هذه الآيات أسندَ التَّذْكرة وعدمها إليهم، فهم فاعلون لها حقيقةً: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨]، وأَسْنَدَ الاستقامةَ إليهم، وهكذا في مواضعَ مُتعدِّدةٍ من القرآن، بَيَّن الله ﷻ أنَّهم فاعلون لأفعالهم، وإنْ كانت مشيئتهم واختيارهم خَاضِعةً لمشيئة الله ﷻ كما قال جلَّ من قائل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فهل دعاهم الله إلىٰ اتِّباع شيءٍ مستحيلٍ؟

الجواب: لا؛ لأنَّ الله يَتنزَّه عن ذلك، وهكذا أيضًا قول الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:٣]، فَأَمرَهم بالاتِّباعِ لما أنزل، فهل أَمرَهُم الله بأمرٍ مستحيلٍ عليهم؟

الجواب: لا، بل أمرهم بما هو في مقدورهم وإمكانهم، ولكنَّ أهل الضَّلال يريدون التَّلْبيس علىٰ النَّاس، فيزعمون لهم مزاعم تخالف الحقَّ، وإنَّ كلَّ واحدٍ منَّا ليعرف نفسه أنَّه يعمل الأعمالَ الاختياريَّة باختيارِهِ، فهو يمشي ويقعد، ويذهب ويجيء، ويأكل ويشرب، ويتكلَّم؛ كلُّ ذلك يفعله باختيارِهِ؛ فكيف يُقَال: إنَّ العبد بمنزلة الحجر الَّذي يدهده، أو الغصن الَّذي يُحرَّك حركةً قَسريَّةً، وكيف أيضًا يُقال: إنَّ العبد هو الَّذي يخلق أفعال الشَّرِّ، والله تعالىٰ يقول عن نَبيِّه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وأهل القَدَر ينقسمون إلى قسمين:

الفئة الأولى: قَدَريَّةٌ غلاةٌ: وهم الَّذين يقولون: إنَّ الله قَدَّر علىٰ العباد الكفر، والعقائد الفاسدة، وعمل الفواحش، والفجور، ثمَّ يعاقبهم عليها،

ويأخذون ببيتٍ من الشِّعر:

ألقـاه في البحـر مكتوفًـا وقـال لـه إيَّـاك إيَّـاك أن تبتـلَّ بالمـاء

الفئة الثَّانية: القَدَريَّة النُّفاة الَّذين يقولون: «إنَّ أفعال العباد تنقسم إلىٰ قسمين: الأفعالُ الخيريَّة، مخلوقةٌ لله، وأفعالُ الشَّرِّ مخلوقةٌ للعبد».

وهذه العقائد كلُّها باطلةٌ؛ لأنَّه يلزم من القول الأوَّل -وهو قول القَدَريَّة الغُلَاة- أنَّ الله عَذَّب عباده وهو ظالمٌ لهم، وهذا طعنٌ في الله، وسبٌّ له، وذمٌّ له بالظُّلْم، والله ﷻ يخبر عن نفسه أنَّه: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

وقال جلَّ من قائل: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة:٧٠].

وقال جلَّ من قائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات، فمَنْ زعم هذا الزَّعْم، فَقَدْ نَسَبَ الظُّلْم إلىٰ الله، وكَذَّب بهذه الآيات، وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلْم علىٰ نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحرَّمًا، فلا تَظَالموا**»(١)، فهو يخبرنا أنَّه حَرَّم الظُّلْم علىٰ نفسه، ونحن نشتمه، وننسب الظُّلْم إليه، هذا -واللهِ- هو الباطل مع علم كلِّ عبدٍ أنَّه يعمل ما يعمل من الأعمال مختارًا لها، ليس هناك سلطةٌ تُمْلي عليه شيئًا لم يُرِدْه، وأمَّا علىٰ المعنىٰ الثَّاني وهو أنَّ الله يخلق أفعال الخير، والنَّاس يخلقون أفعال الشَّرِّ، وأنَّه يلزم من ذلك جَعْل خَالِقَين؛ فالإنسانُ خالقٌ للشَّرِّ، والله خالقٌ للخير.

ومَنْ يقول بهذا القول فَقَدْ زَعَم أنَّه يقع في ملك الله ما لا يريد، ويلزم من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

ذلك أنَّه مقهورٌ ومغلوبٌ؛ إذ إنَّه يريد الخير، والإنسانُ وشيطانُهُ يخلقان الشَّرَّ، ويفعلانه مراغمةً لله ﷻ، وخروجًا عن سلطانه، وفرضًا لما لا يريده ﷻ؛ فأهل هذه العقيدة أثبتوا خَالِقَينِ، وأشبهوا المجوس في عقيدتهم.

وأهل السُّنَّة والجماعة يقولون: إنَّ الإنسان هو الَّذي يعمل أعماله، ويفعل أفعاله مختارًا لها، وأنَّ الله ﷻ قَدَّر الكفرَ كَوْنًا، ومَنَعه شَرْعًا، وقَدَّر الفسوق والعصيان والفواحش كَوْنًا، ومَنَعها شرعًا، وأنَّ لله في عباده الحكمة البالغة، وله عليهم الحُجَّة الدَّامغة: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وأنَّ أفعالَ العبادِ كلُّها واقعةٌ باختيارهم، فهي منهم فِعْلًا وكَسْبًا؛ وهي من الله خَلْقًا وقَدَرًا، والله ﷻ يقول عن إبراهيم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، ولا يُعَكِّر علىٰ هذه العقيدة ما ورد في كتاب الله عن الجنِّ أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠].

وقول النَّبيِّ ﷺ: «**والشَّرُّ ليس إليك**»[1]، فإنَّ هذا معناه عند أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ الشَّرَّ لا يُنْسَب إلىٰ الله تنزيهًا له عن ذلك، وإلَّا فالله الَّذي خَلَق الشَّرَّ والخير، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

علمًا بأنَّ الله لا يخلق شرًّا محضًا، فَالشَّرُّ الَّذي يُقدِّره الله ﷻ يكون خيرًا من جانبٍ، وشرًّا من جانبٍ آخر، وباللهِ التَّوْفيق.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

حقيقة الإيمان، وحكم مرتكب الكبيرة

فصل

وَمِنْ أُصُولِ أَهلِ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ، قَولُ القَلبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ القَلبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنقُصُ بِالمَعصِيَةِ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهلَ القِبلَةِ بِمُطلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفعَلُهُ الخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨].

وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:٩، ١٠].

ولا يَسلِبُونَ الفَاسِقَ المِلِّيَّ الإِسلَامَ بِالكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُ المُعتَزِلَةُ؛ بَل الفَاسِقُ يَدخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ المُطلَقِ؛ كَمَا فِي قَولِه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

وَقَدْ لَا يَدخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ المُطلَقِ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢].

وَقَوْله ﷺ: «لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَسرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسرِقُ وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَشرَبُ الخَمرَ حِينَ يَشرَبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ، وَلَا يَنتَهِبُ نُهبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرفَعُ النَّاسُ إِلَيهِ فِيهَا أَبصَارَهُم حِينَ يَنتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ»(١).

وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَو مُؤمِنٌ بِإِيمَانِهِ، فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلَا يُعطَىٰ الِاسمَ المُطلَقَ، وَلَا يُسلَبُ مُطلَقَ الِاسمِ.

التعليق

أقول: لقد ضلَّت في هذا الباب طائفتان كبيرتان، وإنْ قلنا ثلاث طوائف لم نبعد عن الحقيقة، وهذه الطَّوائف منها طائفتان غَلَتْ، وطائفةٌ فرَّطَتْ.

فأمَّا الطَّائفتان اللَّتان غَلَتَا فهما: الخوارج والمعتزلة، فإنَّهم حكموا علىٰ المسلم الَّذي يرتكب الكبيرة بأنَّه قَدْ خرج من الإسلام، واستوجب الخلود في النَّار.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فأمَّا الخوارج فصرَّحوا بكفرِ مرتكبِ الكبيرة، وأمَّا المعتزلة فقالوا: إنَّه في منزلةٍ بين المنزلتين في الدُّنيا، وأمَّا الآخرة فَقَدِ اتَّفَقوا علىٰ أنَّه مخلَّدٌ في النَّار، وهذا ضلالٌ وخروجٌ عن طريق الحقِّ.

وأمَّا الطَّائفة المُفرِّطة: فهي المرجئة، والَّتي قالت: لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ، وجعلوا فُسَّاق المؤمنين إيمَانُهُم وإيمَانُ أبي بكرٍ بمنزلةٍ واحدةٍ.

وقالت المرجئة: إنَّ الإيمان التَّصديقُ، والتَّصديقُ واحدٌ لا يتفاوت. وهذا باطلٌ، فهم نفوا زيادة الإيمان ونقصانه، وجعلوا الإيمان درجةً واحدةً.

فهذه هي الطَّوائف الَّتي ضَلَّت في باب الإيمان.

وأمَّا أهل السُّنَّة والجماعة، فجعلوا مرتكبَ الكبيرة مؤمنًا، ناقصَ الإيمانِ، أو مسلمًا فاسقًا، وَاسْتدلُّوا علىٰ ذلك بِأدلَّةٍ، منها قول الله ﷻ في كتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ الآية، والَّتي استدلَّ بها المُؤلِّف سابقًا:

فأولاً: أنَّ الله سَمَّاهم مؤمنين جميعًا[1]، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ فنسبهم جميعًا إلىٰ الإيمان مع إثبات الاقتتال بينهم، وفي آخر الآية قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فجعلهم الله أخوين، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾، فسمَّىٰ القاتل أخًا للمقتول وأوليائه.

---

(١) أي: الفئة الباغية، والفئة العادلة.

ثانيًا: عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا عَلَىٰ عَهدِ النَّبيِّ ﷺ كَانَ اسمُهُ عَبدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ: حِمَارًا، وَكَانَ يُضحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ؛ فَأُتِيَ بِهِ يَومًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ: «اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكثَرَ مَا يُؤتَىٰ بِهِ! فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَا تَلعَنُوهُ، فَوَاللهِ، مَا عَلِمتُ إِلَّا إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»(١).

وجاء بعده: عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ بِسَكرَانَ، فَأَمَرَ بِضَربِهِ، فَمِنَّا مَنْ يَضرِبُهُ بِيَدِهِ، وَمِنَّا مَنْ يَضرِبُهُ بِنَعلِهِ، وَمِنَّا مَنْ يَضرِبُهُ بِثَوبِهِ؛ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ: مَا لَهُ أَخزَاهُ اللهُ؟!! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَكُونُوا عَونَ الشَّيْطَانِ عَلَىٰ أَخِيكُم**»(٢)، فسمَّاه أخًا مع أنَّه كان يُكثِر من شُرْبِ الخمرِ.

ثالثًا: من الأَدلَّة علىٰ تفاوتِ الإيمانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ أهل الجنَّة ليتراءون أصحاب الغرف كما تتراءون الكوكب الدُّريَّ الغابر في الأفق الشَّرقيِّ أو الغربيِّ**».

قالوا: تلك منازل الأنبياء يا رسول الله؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «**بلىٰ والَّذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله، وصَدَّقوا المرسلين**»(٣)، فهذا دالٌّ علىٰ التَّفاوُت في الإيمان.

رابعًا: أنَّ الَّذين يَمرُّون علىٰ الصِّراط يسقط كثيرٌ منهم في نارِ جهنَّم، ثمَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يخرجون بشفاعة الشَّافِعِين، فيقول الله ﷻ: «انظروا مَنْ كان في قلبه زِنَةُ دينارٍ من إيمانٍ فَأَخْرِجوهُ»(١).

وفي روايةٍ: «ارجعوا، فمَنْ وجدتم في قلبه مثقالَ نصفِ دينارٍ من خيرٍ، فَأَخْرجُوهُ، فيُخْرِجونَ خَلْقًا كثيرًا»(٢).

وفي روايةٍ: «يخرجُ من النَّار مَنْ قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه أدنىٰ وزن شعيرةٍ من خيرٍ»(٣).

وفي روايةٍ: «أَخْرِجُوا من النَّار مَنْ كان في قلبه مثقال حَبَّة خردلٍ من إيمانٍ»(٤).

وفي روايةٍ: «اذهبوا، فمَنْ وجدتم في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من إيمانٍ فأخرجوه، فيخرجون مَنْ عرفوا»(٥).

فهذا يدلُّ علىٰ تفاوتِ الإيمانِ في قلوب المؤمنين، اللَّهمَّ نَوِّر قُلُوبَنا بالإيمانِ، ورسِّخهُ فيها.

وقَدْ جاء في الحديث القدسي بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «فيقول الله ﷻ:

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ١٦) (١١١٤٣)، وقال الألباني رحمه الله في «ظلال الجنة» (٦٣٤): «إسناده جيد».

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٢٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

شَفَعتِ الملائكةُ، وشَفَع النَّبيُّون، وشَفَع المؤمنون، ولم يَبْقَ إلَّا أرحم الرَّاحمين، فيقبض قبضةً من النَّار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قطُّ قَدْ عادوا حُمَمًا، فيُلْقِيهم في نَهَرٍ في أفواه الجنَّة يُقَال له: نَهَر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحَبَّة في حَمِيلِ السَّيْل»[1].

وحَمِيل السَّيْل: هو ما يحمله من طينٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة:٢٦٥]؛ أي: المكان الَّذي يُنقَل فيه التُّراب فيكون خَصْبًا؛ نسأل الله أن يُثبِّتنا علىٰ دينه.

فهذه الأدلَّة تدلُّ علىٰ تفاوت الإيمان، لذلك قال أهل السُّنَّة: «المسلم مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرتِهِ».

فلا يُخْرجونه من مُطْلَقِ مُسمَّىٰ الإيمان، ولا يعطونه الإيمانَ المطلَق، والله ﷻ مدح أقوامًا من المؤمنين بكمال إيمانهم، وأعمالهم الممتازة، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]؛ يعني: مهما عملوا من أعمالٍ فإنَّهم لا يَمُنُّون بها علىٰ رَبِّهم، ولا يُدِلُّون بها عليه، بل هم مع ذلك قُلُوبُهُم وجلةٌ خائفةٌ؛ لأنَّهم راجعون إلىٰ الله، وليسوا بعَالِمِين ما يحصل لهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والمهمُّ أنَّ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة من الصَّحَابة والتَّابعين هو المذهب الحقُّ الَّذي يجب المصير إليه، والَّذي تكون به النَّجاة دون الإفراطِ والتَّفْريط، والغُلُوِّ والتَّقْصيرِ.

تنبيهٌ: الأعمالُ شرطٌ في صِحَّة الإيمان، فلا ينفع أحدًا ادِّعاؤُهُ للإيمان إلَّا بالعمل إلَّا لمَنْ لم يَتمَكَّنْ من العمل كالرَّجل الَّذي قتل في أُحُدٍ ولم يركع لله ركعةً، وكذلك الَّذي سَقَط من علىٰ راحلته فمات، وبالله التَّوْفيق[1].

(١) انظر شرح شيخنا النجمي علىٰ العقيدة الواسطية.

فصل الواجب نحو أصحاب رسول الله ﷺ، وذكر فضائلهم

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِم وَأَلسِنَتِهِم لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

وَطَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَولِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

التعليق

وأقول: إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يُعرَفون ويَتَميَّزون بسلامة ألسنتهم وقلوبهم لأصحاب رسول الله ﷺ؛ فقلوبُهُم سليمةٌ لهم من الطَّعْنِ عليهم، والإزراءِ بهم، والذَّمِّ لهم، فهم يُعظِّمون أصحاب رسول الله ﷺ بقلوبهم، ويرفعون شأنهم

(١) أخرجه البخاري، واللفظ له (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بألسنتهم تبعًا لِمَا جاء في كتاب الله، وما جاء في سُنَّة رسول الله ﷺ؛ واللهُ ﷻ قَدْ أَثْنَىٰ عليهم في مواضع من كتابه، منها في سورة التَّوْبة حيث يقول: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٨٨، ٨٩].

ويقول: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

ويقول: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

ويقول: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧].

وهذه الآيات كلُّها في سورة براءة، ويقول في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

ويقول في سورة الحشر الآية (٨ و٩): ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

ويَقُول النَّبيُّ ﷺ: «**لا تَسبُّوا أصحابي، فوالَّذي نفس مُحمَّدٍ بيده، لَوْ أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه**».

ومعنىٰ هذا الحديث أنَّ أَصْحَاب النَّبيِّ ﷺ الَّذين أنفقوا في حال الضَّعف والحاجة للمسلمين في أوَّل الإسلام أنَّ مُدَّ الواحد منهم أفضل مِمَّا لو أنفقَ غيرُهُم مثل أُحُدٍ ذهبًا، وفي هذا من الفضل ما فيه، وما لا يُسْتَطاع وصفه، ومن أجل ذلك فيجب أن نعرف لأصحاب رسول الله فَضْلَهم، وأن ننشر الثَّناء عليهم، والاحترام لهم، وعدم الوقوع فيهم، وأن نُبيِّن حُرْمة سَبِّهم وبغضهم بألسنتنا، وكتاباتنا، وأنَّ مَنْ فعل ذلك مِمَّنْ ينتسبون إلىٰ الإسلام من الخوارج والرَّوافض، فإنَّه علىٰ خَطَرٍ عظيمٍ، وبالله التَّوفيق.

فضل الصحابة وموقف أهل السنة والجماعة منهم

وَيَقبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّة وَالإجمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِم وَمَرَاتِبِهِم، وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وَهُوَ صُلحُ الحُدَيبِيَةِ وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَنْ أَنفَقَ مِن بَعدُ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنصَارِ.

وَيُؤمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ وَكَانُوا ثَلَاثَ مِئَةٍ وَبِضعَةَ عَشَرَ: «اعْمَلُوا مَا شِئتُم، فَقَدْ غَفَرتُ لَكُم»[1]. وَبِأَنَّهُ لَا يَدخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ؛ بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ، وَكَانُوا أَكثَرَ مِنْ أَلفٍ وَأَربَعِ مِئَةٍ.

وَيَشهَدُونَ بِالجَنَّة لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كَالعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيسِ ابْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ، وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقلُ عَن أَمِيرِ المُؤمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَغَيرِهِ مِنْ أَنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَيُثَلِّثُونَ بِعُثمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنهم؛ كَمَا دَلَّت عَلَيهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ تَقدِيمِ عُثمَانَ فِي البَيعَةِ، مَعَ أَنَّ بَعضَ أَهلِ السُّنَّة كَانُوا قَدِ اختَلَفُوا فِي عُثمَانَ وَعَلِيٍّ رضي الله عنهما بَعدَ اتِّفَاقِهِم عَلَىٰ تَقدِيمِ أَبِي بَكرٍ وَعُمَرَ أَيُّهُمَا أَفضَلُ؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي رضي الله عنه.

فَقَدَّمَ قَومٌ عُثمَانَ، وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَومٌ عَلِيًّا، وَقَومٌ تَوَقَّفُوا، لَكنِ استقَرَّ أَمرُ أَهلِ السُّنَّة عَلَىٰ تَقدِيمِ عُثمَانَ، ثمَّ عَلِيٍّ.

التعليق

أقول: قَدْ تقدَّم لنا في الفصل قبل هذا بيانُ فضائل الصَّحابة، والآياتُ والأحاديثُ الدَّالَّةُ علىٰ ذلك، وأنَّ أَهْلَ السُّنَّة والجَمَاعة يعرفون للصَّحَابة فَضْلَهم علىٰ مراتبهم، ويشهدون لمَنْ شهد له النَّبيُّ ﷺ بالجنَّة، وأنَّ أهل بدرٍ قال لهم رَبُّهم: «**اعملوا ما شئتم فَقَدْ غفرتُ لكم**»، كَمَا صحَّ ذلك عن رسول الله ﷺ، وأنَّه قَدْ صحَّ عنه -صلوات الله وسلامه عليه- أنَّه قال: «**لا يدخلُ النَّارَ أحدٌ بايعَ تحت الشَّجَرة**»(١).

وكان عددهم ما بين ألفٍ وأربعِ مئةٍ، وألفٍ وخمسِ مئةٍ؛ وهي الشَّجرة الَّتي بايع النَّبيُّ ﷺ أَصْحابَه تحتها في الحديبية، ويشهدون لمَنْ شهد له النَّبيُّ ﷺ أنَّه من أهل الجنَّة؛ كالعشرة المُبشَّرين بالجنَّة(٢)، وثابت بن قَيْس بن

(١) أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (١١٤٤٤)، وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الطحاوية» (٥٣٠).

(٢) أخرج الترمذي (٣٧٤٧) عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبو بكر في الجَنَّة، وعُمر في الجَنَّة، وعثمان في الجَنَّة، وعَلي في الجَنَّة، وطَلْحَة في الجَنَّة، والزُّبير في الجَنَّة، وعبد الرحمن بن عوف في الجَنَّة، وسَعْدٌ في الجَنَّة، وسَعيد في الجَنَّة، وأبو عُبيدة بن الجَرَّاح في الجَنَّة**»، وصححه الألباني (٢٩٤٦) في «صحيح الترمذي».

شَمَّاس[1]، والمرأة الَّتي كانت تُصرَع؛ فقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ قوله في كلٍّ منهما أنَّه من أهل الجنَّة.

ويؤمنون بما تواتر به النَّقْل عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه من أنَّ خير هذه الأُمَّة بعد نَبيِّها: أبو بكرٍ، ثمَّ عمرُ، ثمَّ عثمانُ، ويجعلون الرَّابع عليَّ ابنَ أبي طالبٍ.

وأمَّا تَرْتيبُهُم علىٰ الأفضليَّة بالنِّسْبة للعموم، فأفضلُ الصَّحابة الَّذين أسلموا قبل بيعة العقبة، وهاجروا إلىٰ الحبشة، ثمَّ مَنْ هاجر بعد الحبشة إلىٰ المدينة، ثمَّ أصحاب بيعة العقبة وهم من الأنصار خاصَّةً، ثمَّ أهل بدرٍ، ثمَّ أهل بيعة الرضوان (يعني: بيعة الحديبية)، ثمَّ مَنْ أسلم من قبل الفتح وقاتل، ثمَّ مَنْ أسلم من بعد الفتح وقاتل، ثمَّ صغار الصَّحَابة؛ هذا تَرْتيبُهُم في الأفضليَّة.

وقَدِ اخْتلَفَ السَّلف قديمًا فيمَنْ يكون هو الأفضل بعد أبي بكرٍ، وعمر، هل هو عثمان أو عليٌّ؟ جاء حديث عبد الله بن عمر: «كُنَّا نَعُدُّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرج مسلم (١١٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «لَمَّا نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات:٢] إلىٰ آخر الآية- جَلَسَ ثابت بن قيس في بيته، وقال: أَنَا مِن أهل النَّار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبيُّ ﷺ سعد بن معاذ، فقال: «يا أبا عمرو، ما شَأْنُ ثَابت؟ اشْتَكَىٰ؟» قال سَعْدٌ: إنه لَجَاري، وما علمت له بشكوىٰ، قال: فأتاه سعدٌ، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أُنزلت هذه الآيةُ، ولقد علمتم أني مِن أرفعِكم صوتًا علىٰ رسول الله ﷺ، فأنا مِن أهل النَّار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل هُو مِن أهل الجَنَّة».

حَيٌّ وَأَصْحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ: أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ وَعُثمَانُ، ثمَّ نَسكُتُ»[١].

وقَدِ اتَّفقَ أهل السُّنَّة والجماعة علىٰ تقديم عثمان علىٰ عليٍّ، والتَّربيع بعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وهذا مذهب أهل السُّنَّة الَّذي استقرَّ عليه رأيهم، وبالله التَّوْفيق.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٢/ ١٤) (٤٦٢٦)، وصَحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «ظلال الجنة» (١١٩٧).

حكم تقديم علي رضي الله عنه على غيره من الخلفاء الأربعة في الخلافة

وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ المَسأَلَةُ مَسأَلَةُ عُثمَانَ وَعَلِيٍّ لَيسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِندَ جُمهُورِ أَهلِ السُّنَّة، لَكِنِ الَّتي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسأَلَةُ الخِلَافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُم يُؤمِنُونَ أَنَّ الخَلِيفَةَ بَعدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ، وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِن هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهلِهِ.

التعليق

أقول: خلافة الأربعة مُتَّفقٌ عليها عند أهل السُّنَّة والجماعة، وهم الخلفاء الرَّاشدون الَّذين نَوَّه بهم النَّبيُّ ﷺ في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «**عليكم بسُنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين المَهْديِّين؛ عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ**»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصَحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح ابن ماجة» (٤٠).

إذًا؛ فالخلفاء الرَّاشدون هم أبو بكرٍ، ثمَّ عمرُ، ثمَّ عثمانُ، ثمَّ عليٌّ، وقَدْ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَنْ طعن في خلافة أَحَدٍ من هؤلاء؛ فهو أضلُّ من حمار أهله»؛ أي: لمخالفته النُّصُوص، واتِّفاق الصَّحابة علىٰ ذلك، وعدم بيعتهم لعليِّ بْنِ أبي طالبٍ بعد قَتْل عثمان، فليس ذلك من أجل أنَّه يدَّعي الخلافة لنفسه، وإنَّما كان ذلك من أجل أنَّه كان يطالب بِدَمِ ابْنِ عمِّه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

وأمَّا مَنْ قدَّم عليَّ بن أبي طالبٍ علىٰ أبي بكرٍ، وعمر، فهو رافضيٌّ ممقوتٌ ضالٌّ.

ومَنْ قدَّم عليًّا علىٰ عثمان، فَقَدْ خالف ما استقرَّ عليه رأي أهل السُّنَّة، ومَنْ خالف إجماع الصَّحابة، فقَدْ أَزْرَىٰ عليهم، وهو ضالٌّ بالنِّسْبة للخلافة.

أمَّا تقديمُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنِّسْبة للفضل: هل هو أفضل أو عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّ مَنْ قَدَّم عليًّا علىٰ عثمان في الفضل فقَدْ أخطأ، وجانبَ الصَّوابَ، وخالفَ حديثَ عبد الله بن عمر: «كُنَّا نَعُدُّ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ وَأَصحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ: أَبُو بَكرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثمَانُ، ثمَّ نَسكُتُ»[2].

إذًا، فعلينا أن نأخذ بهذا الحديث، وأنَّ نُقدِّم عثمان علىٰ عليٍّ في الفضل أيضًا؛ ونتيجةً لذلك فَقَدْ قَدَّموه عليه في الخلافة، وبالله التَّوْفيقُ.

---

(١) أما معارضة معاوية، فليس من أَجْل أنَّه يطلب الثأر من قَتَلة عثمان، فكانَ عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بايع حتَّىٰ تجتمع الكلمة؛ فإذا اجتمعت الكلمة أَخَذْناهُمْ واحدًا واحدًا»، ومعاوية يقول: «لا أُبايعُ إلَّا بعد قَتْل قَتَلة عثمان»، ثم كان ما كان بينهما.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

مكانة أهل بيت النبي ﷺ عند أهل السنة والجماعة

وَيُحِبُّونَ آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّونَهُم، وَيَحفَظُونَ فِيهِم وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيثُ قَالَ يَومَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيتِي»(١)، وَقَالَ أَيضًا لِلعَبَّاسِ عَمِّهِ وَقَدِ اشْتَكَىٰ إِلَيهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيشٍ يَجفُو بَنِي هَاشِمٍ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤمِنُونَ حَتَّىٰ يُحِبُّوكُم لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي»(٢). وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ كِنَانَةَ قُرَيشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) أخرج أحمد في «مسنده» (١/ ٢٠٧) (١٧٧٧) عن عبد المطلب بن ربيعة قال: دخل العباس علىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّا لنخرج فنرىٰ قريشًا تحدث، فإذا رأونا سكتوا! فغضب رسول الله ﷺ ودَرَّ عِرْق بين عينيه، ثمَّ قال: «والله، لا يدخل قلبَ امرئ إيمانٌ حتىٰ يحبكم لله ولقرابتي». قال الأرنؤوط: «إسناده ضعيف».

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

التعليق

أقول: إنَّ الواجب علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يحبَّ قرابةَ النَّبيِّ ﷺ نتيجةً لحبِّه ﷺ، والله ﷻ يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورىٰ:٢٣]؛ أي: إلَّا أن تَودُّوا قرابتي؛ وقرابتُهُ ﷺ هم آلُ عليٍّ، وآلُ جَعْفرٍ، وآلُ عقيلٍ، وآلُ العَبَّاس، وبنو الحارث بني عبد المُطَّلب، وأزواجُ النَّبيِّ ﷺ من أهلِ بيتِهِ، ويشمل هؤلاء قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

فالواجب أن نحبَّ ونتولَّىٰ أهل بيته السَّابقين، وأَنْ نَتولَّىٰ من اللَّاحقين مَنْ يكون علىٰ الحقِّ والسُّنَّة من أهل بيته ﷺ.

فقول النَّبيِّ ﷺ: «**أُذكِّركُمُ الله في أهل بيتي**»؛ يعني: أهل بيته الَّذين كانوا معه علىٰ الدِّين والاستقامة، وكذلك مَنْ كان منهم علىٰ الدِّينِ والاستقامة من اللَّاحقين من أهل بيته، والنَّبيُّ ﷺ قَدْ تَبرَّأ من غير المُتَّقين في قوله: «**أَلا إِنَّ آلَ أَبِي -يَعني فُلَانًا- لَيسُوا لِي بِأَولِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ المُؤمِنِينَ**»[1].

وَلَا شكَّ في خطأ مَنْ يجعل الآية شاملةً لأهل بيت النَّبيِّ ﷺ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأنَّهم جميعًا معصومون مُطهَّرون كما يقوله الشِّيعة أو بعضهم، فأمَّا العصمة فإنَّها ليست لأحدٍ بعد النَّبيِّ ﷺ بنصِّ الوحي، وبإجماع سَلَف الأُمَّة علىٰ ذلك، فالله ﷻ قال عن نَبيِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣، ٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وَعَنْ عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنتُ أَكتُبُ كُلَّ شَيءٍ أَسمَعُهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفظَهُ، فَنَهتنِي قُرَيشٌ، وَقَالُوا: أَتَكتُبُ كُلَّ شَيءٍ تَسمَعُهُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكلَّمُ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمسَكتُ عَن الكِتَابِ، فَذَكَرتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَومَأَ بِأُصبُعِهِ إِلَىٰ فِيهِ، فَقَالَ: «**اكتُبْ، فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، مَا يَخرُجُ مِنهُ إِلَّا حَقٌّ**»(١).

وقَدْ أَشَارَ إلىٰ ذَلك شَيخُنا حَافظ بن أحمد الحَكَمي رَحِمَهُ اللهُ في «الميمية» فقال عن الحديث:

خَيْرُ الكَلَام وَمِنْ خَيْر الأَنَام بَدَا مِنْ خَير قَلبٍ بِه قَد فَاهَ خَيْر فَم

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الآيةَ(٢) دَالَّةٌ علىٰ عِصْمةِ آل البيت جميعًا؛ فإنَّه قَدْ كَذَب في زعمه ذلك، وحَمَّل الآية ما لا تحتمله؛ فإنَّ معنىٰ قول الله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣]؛ أي: أنَّ الله يريد تطهيركم -يا أهل بيت النَّبيِّ ﷺ- من الرِّجْس بالتَّعاليم الَّتي أوحاها إلىٰ النَّبيِّ ﷺ، وأنتم بِامْتِثالِكُمْ لذلك وجميع المؤمنين تكونون قد عملتم بأسباب التَّطْهير من الرِّجس، وليس معنىٰ ذلك أنَّهم معصومون من الخطأ؛ فهذا القولُ قولُ ضلالٍ، وقولٌ باطلٌ.

والواجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ: الرُّجُوع إلىٰ الحقِّ، وأَنْ نتابع المؤمنين

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (١٥٣٢).

(٢) سيأتي ذكرُها السَّطر التالي.

الأوَّلين في مَحبَّتهم لأهل بيت النَّبيِّ ﷺ مَحبَّةً لا تخرج عن نطاق الحقِّ، نحبُّ الصَّالح منهم لإسلامه، ولقرابته من النَّبيِّ ﷺ، ومَنْ عدا ذلك فلم يُوجِب الله سبحانه علينا مَحبَّته؛ لقوله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقول النَّبيِّ ﷺ: «**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بي المُتَّقُونَ؛ مَنْ كَانُوا، أَو حَيثُ كَانُوا**»[١]، وبالله التَّوفيق.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٣٥) (٢٢١٠٥) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وصَحَّحه الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٠١٢).

مكانة أزواج النبي ﷺ عند أهل السنة والجماعة

وَيَتَوَلَّونَ أَزوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ المُؤمِنِينَ، وَيُؤمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ رضي الله عنها أُمَّ أَكثَرِ أَولَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنهُ المَنزِلَةُ العَالِيَةُ، وَالصِّدِّيقَةَ بِنتَ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما، الَّتي قَالَ فِيهَا النَّبيُّ ﷺ: «فَضلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

التعليق

أقول: أزواج النَّبيِّ ﷺ الإحدىٰ عشرة، وهنَّ: خديجة بنت خويلد، وسودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكرٍ، وأمُّ سلمة، وأمُّ حبيبة، وجويرية بنت الحارث، وحفصة بنت عمر، وزينب بنت جحش، وصفية بنت حيي، وزينب بنت خزيمة الَّتي ماتت في حياته، وميمونة بنت الحارث الهلاليَّة،

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

هؤلاء زوجاته الإحدىٰ عشرة، والسُّرِّيَّتين، وهما: ريحانة القرضية، وأمُّ إبراهيم ماريَّة القبطيَّة.

نؤمن بأنَّ هؤلاء زوجاته في الدُّنيا، وهنَّ زوجاتُهُ في الآخرة، وهنَّ أُمَّهات المؤمنين، ولهنَّ من المنزلة العالية ما لا يُوصَف؛ فخديجة بنت خويلدٍ هي أوَّل امرأةٍ تَزوَّجها، وهي أمُّ أولاده: القاسم، والطَّيِّب، وزينب، وأمُّ كلثوم، وفاطمة، وهي أوَّل مَنْ ناصره، وعاضده، وأعانه؛ إذْ كان لها مالٌ، وكانت ترسل مَنْ يُتاجِر لها في مالها بنسبةٍ مُعيَّنةٍ.

وكان ﷺ يثني عليها، وكان يذبح الذَّبيحة، ويُوزِّعها بين صديقاتها، وكانت عائشة رضي الله عنها أحبَّهنَّ إليه، ولم يَتزوَّج بِكْرًا غيرها، كان ينزل عليه الوحي في لِحَافِها، وإنَّ الله بَرَّأها مِمَّا رماها به أهل الإفك، وكانت أفقهَ نسائِهِ، حفظت من الحديث الشَّيءَ الكثير، وهي معدودةٌ من المُكْثِرين من الحديث من أصحابه ﷺ، وهُمْ سَبْعةٌ: أنسُ بن مالكٍ، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيدٍ الخدري، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة رضي الله عنهم.

فيجب علينا أن نعرف لأزواج النَّبيِّ ﷺ حقهنَّ ومكانتهنَّ؛ إذ إنَّهنَّ بمكانتهنَّ من النَّبيِّ ﷺ يَنَلْنَ أعلىٰ درجةٍ في الجنَّة، وبالله التَّوفيق.

تبرؤ أهل السنة والجماعة مما يقوله المبتدعة في حق الصحابة وأهل البيت

وَيَتَبَرَّؤونَ مِن طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذين يُبغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُم، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذين يُؤذُونَ أَهلَ البَيتِ بِقَولٍ أَو عَمَلٍ، وَيُمسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَينَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ المَروِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِم، مِنهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنهُ هُمْ فِيهِ مَعذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجتَهِدُونَ مُخطِؤونَ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعصُومٌ عَن كَبَائِرِ الإِثمِ وَصَغَائِرِهِ، بَل يَجُوزُ عَلَيهِمُ الذُّنُوبُ فِي الجُملَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغفِرَةَ مَا يَصدُرُ مِنهُم إِنْ صَدَرَ، حتَّىٰ إِنَّهُم يُغفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغفَرُ لِمَنْ بَعدَهُم؛ لِأَنَّ لَهُم مِنَ الحَسَنَاتِ الَّتي تَمحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيسَ لِمَنْ بَعدَهُم.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيرُ القُرُونِ، وَأَنَّ المُدَّ مِنْ أَحَدِهِم إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعدَهُم. ثمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِم ذَنبٌ، فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنهُ، أَوْ أَتَىٰ بِحَسَنَاتٍ تَمحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ، بِفَضلِ سَابِقَتِهِ، أَو بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوِ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ

فِي الدُّنيا كُفِّرَ بِهِ عَنهُ، فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ، فَكَيفَ الأُمُورُ الَّتي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ:

إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجرَانِ، وَإِنْ أَخطَؤوا؛ فَلَهُم أَجرٌ وَاحِدٌ، وَالخَطَأُ مَغفُورٌ، ثُمَّ إِنَّ القَدرَ الَّذي يُنكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعضِهِمْ قَلِيلٌ نَزرٌ مَغفُورٌ فِي جَنبِ فَضَائِلِ القَومِ وَمَحَاسِنِهِم؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالهِجرَةِ، وَالنُّصرَةِ، وَالعِلمِ النَّافِعِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَومِ بِعِلمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيهِمْ بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُم خَيرُ الخَلْقِ بَعدَ الأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثلُهُم، وَأَنَّهُمُ الصَّفوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتي هِيَ خَيرُ الأُمَمِ وَأَكرَمُهَا عَلَىٰ اللهِ.

التعليق

أقول: مذهبُ أهلِ السُّنَّة والجماعة وسط بين مذهب الرَّوَافض والنَّوَاصب؛ فهم يعرفون للصَّحَابة حقَّهم، ويعتبرونهم أفضل الخَلْق بعد الأنبياء مع أنَّهم لا يعتقدون عِصْمَتهم من الذُّنُوب، وكذلك أيضًا هم يعرفون لأهل البيت حقَّهم، ولا يعتقدون عِصْمَتهم من الذُّنُوب؛ سواءٌ كانت صغائر أو كبائر، ويَتبرَّؤون مِمَّا يقوله الرَّوَافض في الصَّحَابة، ومِمَّا يقوله الخوارج فيهم، ويَتبرَّؤون مِمَّا يقوله النَّوَاصب في أهل البيت، ويعتقدون ضلالَ هذه

الثَّلاث الفئات، ويُمْسِكون عمَّا شَجَرَ بين الصَّحَابة من الحروب وغيرها، ويقولون: إنَّ هذه الآثار تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسامٍ:

١- منها ما هو كذبٌ علىٰ الصَّحَابة رضوان الله عليهم.

٢- ومنها ما لأصله حقيقةٌ، ولكنَّه قَدْ زِيدَ فيه ونقص، وغُيِّر عن وجهه.

٣- وهو الصَّحيح مِمَّا يُنْسَب إليهم، وهُمْ فيه معذورون؛ إمَّا مجتهدون مصيبون، وللمجتهد المصيب أجران، وإمَّا مجتهدون مخطؤون، وللمجتهد المخطئ أجرٌ واحدٌ.

ثمَّ إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة لا يعتقدون عِصْمة الصَّحَابة، ولا لأهل البيت؛ وأهلُ البيتِ هم قرابةُ الرَّسول ﷺ؛ لا يعتقدون عِصْمتهم من الذُّنُوب، بل يعتقدون أنَّهم كغيرهم، وقَدْ تَصْدُر من أحدهم الذُّنوب؛ سواء كانت كبائر أو صغائر، ولكن ذنوبهم مغفورةٌ عنهم بسبب ما قَدَّموه لنصرة نَبيِّه، والصَّبْر علىٰ متابعته في ذلك الزَّمن مع الحاجة واللَّأْواءِ والبؤس، صَبَروا علىٰ ذلك إيقانًا منهم بأنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ، لذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**لَوْ أنفقَ أَحدُكُمْ مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصِيفَه**»[1]؛ أي: أنَّ مُدَّ أَحَدِهم إذا تصدَّق به في ذلك الوقت لا يعدله مثل جبل أُحُدٍ ذهبًا يَتصدَّق به غيرهم؛ لذلك فإنَّ الله يغفر لهم ما لا يغفر لغيرهم، وقَدْ قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله نَظَرَ إلىٰ أهلِ بَدْرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم، فَقَدْ غفرتُ لكم**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري، واللفظ له (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي رضي الله عنه.

فحَسَناتُهُم مضاعفةٌ إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ فوق ما يَخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وسَيِّئاتُهُم مغفورةٌ، ومعفوٌّ عنها، ثمَّ إنَّ ما جرىٰ بينهم هم فيه مجتهدون كما تقدَّم، والقَدْر الَّذي يُنْكَر من أفعالهم قليلٌ، وللنَّظَر كيف كان صَبْرُهُمْ علىٰ الفقر واللَّأْواءِ، والتَّضحية في سبيل الله، وهُمْ خير القرون بعد الأنبياء بشهادة خير الرُّسُل، حيث يقول ﷺ: «**خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي، ثمَّ الَّذين يَلُونهم، ثمَّ الَّذين يَلُونَهم**»(١).

ولْنُفكِّر كيف فتح الله بهم الممالكَ كلَّها، فصبروا علىٰ الجهاد، وثابروا فيه حتَّىٰ دخل النَّاس جميعًا في دين الله، فهم الصَّفْوة بعد الأنبياء، وهم خير القرون من الأمم الماضية واللَّاحقة، فتبًّا وسُحْقًا، ثمَّ تبًّا وسُحْقًا لمَنْ يَتكلَّم فيهم أو يَزْدرِيهم؛ فهذِهِ عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة فيهم، رضوان الله عليهم، وبالله التَّوْفيق.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

مذهب أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّة: التَّصدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَولِيَاءِ وَمَا يُجرِي اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِم مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ فِي أَنوَاعِ العُلُومِ وَالمُكَاشَفَاتِ وَأَنوَاعِ القُدرَةِ وَالتَّأثِيرَاتِ، كَالمَأثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الكَهفِ وَغَيرِهَا، وَعَن صَدرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَومِ القِيَامَةِ.

التعليق

أقول: الكرامات الَّتي هي كرامات الأولياء شيءٌ من خوارق العادات يُجْرِيها اللهُ علىٰ أيدي بعض عباده الصَّالحين، كما أنَّ المعجزات تُجْرىٰ علىٰ أيدي الأنبياء إلَّا أنَّ المعجزاتِ مقرونةٌ بالتَّحدِّي، والكرامات غير مقرونةٍ بالتَّحدِّي، ومن الفروق أيضًا أنَّ المعجزات ينبغي أن تُنْشَر؛ لأنَّ نَشْرَها يكون سببًا للإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ الَّذي وقعت علىٰ يديه.

أمَّا كرامات الأولياء فإنَّها ليست مقرونةً بالتَّحدِّي، ولا يلزم نَشْرها، فَمِنْ كرامات الأولياء: ما حصل لمريم عليها السلام حينما ولدت نبيَّ الله عيسىٰ تحت

نخلةٍ يابسةٍ، فأَمَرها جبريلُ أَنْ تهزَّ النَّخلةَ، فَهزَّتها، فتساقطت عليها رطبًا جنيًّا، ومنها ما وَرَدَ: عَنْ أُسَيدِ بْنِ حُضَيرٍ قَالَ: بَينَمَا هُوَ يَقرَأُ مِنَ اللَّيلِ سُورَةَ البَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَربُوطَةٌ عِندَهُ، إِذ جَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ، فَسَكَتَتْ، فَقَرأَ، فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثمَّ قَرَأَ، فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَانصَرَفَ، وَكَانَ ابنُهُ يَحيَىٰ قَرِيبًا مِنهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ.

فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأسَهُ إِلَىٰ السَّماءِ حتَّىٰ مَا يَراهَا، فَلَمَّا أَصبَحَ، حَدَّثَ النَّبيَّ ﷺ؛ فَقَالَ: «اقرَأْ يَابنَ حُضَيرٍ، اقرَأْ يَابنَ حُضَيرٍ»، قَالَ: فَأَشفَقتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَن تَطَأَ يَحيَىٰ، وَكَانَ مِنهَا قَرِيبًا، فَرَفَعتُ رَأسِي، فَانصَرَفتُ إِلَيهِ، فَرَفَعتُ رَأسِي إِلَىٰ السَّماء، فَإِذَا مِثلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرجَتْ حتَّىٰ لَا أَرَاهَا.

قَالَ: «وَتَدرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لَا. قَالَ: «تِلكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوتِكَ، وَلَو قَرَأتَ لَأَصبَحَتْ يَنظُرُ النَّاسُ إِلَيهَا لَا تَتَوَارَىٰ مِنهُم»[1].

وفي روايةٍ عن البَراءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما: قَرَأَ رَجُلٌ الكَهفَ، وَفِي الدَّارِ الدَّابَّةُ، فَجَعَلَتْ تَنفِرُ، فَسَلَّمَ، فَإِذَا ضَبَابَةٌ أَو سَحَابَةٌ غَشِيَتهُ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «اقرَأْ فُلَانُ؛ فَإِنَّهَا السَّكِينَةُ نَزَلَتْ لِلقُرآنِ أَو: تَنَزَّلَتْ لِلقُرآنِ»[2].

ومنها: طعام أبي بكرٍ رضي الله عنه حيث أَكَل منه الضَّيْف، وأَكَل منه أهلُ البيت كأنَّه لم ينقص منه شيءٌ، ثمَّ أصبحوا، وذهبوا بذلك الأكل إلىٰ بيت النَّبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٨)، ومسلم (٧٩٦) من حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

ومنها: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلتُ مِنهُ حتَّىٰ طَالَ عَلَيَّ، فَكِلتُهُ (أي: بالمكيال)، فَفَنِيَ»[1].

ومنها: ما حصل للعلاء بن الحضرميّ فيما روىٰ عَنه أَبُو هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ العَلاءَ بْنَ الحَضرَمِيَّ إِلَىٰ البَحرَينِ، تَبِعتُهُ، فَرَأَيتُ مِنهُ ثَلاثَ خِصَالٍ لا أَدرِي أَيَّتَهُنَّ أَعجَبُ: انْتَهينَا إِلَىٰ شَاطِئِ البَحرِ، فَقَالَ: سَمُّوا اللهَ، وَاقْتَحِمُوا، فَسَمَّينَا، وَاقْتَحَمنَا، فَعَبَرنَا، فَمَا بَلَّ المَاءُ إِلَّا أَسَافِلَ خُفَافِ إِبِلِنَا، فَلَمَّا قَفَلنَا، صِرنَا مَعَهُ بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ، وَلَيسَ مَعَنَا مَاءٌ، فَشَكَونَا إِلَيهِ،... فَصَلَّىٰ رَكْعَتَينِ، ثُمَّ دَعَا اللهَ، فَإِذَا سَحَابَةٌ مِثلُ التُّرسِ، ثُمَّ أَرْخَتْ عَزَالِيهَا، فَشَرِبنَا، وَأَسْقَينَا، وَمَاتَ، فَدَفَنَّاهُ فِي الرَّملِ، فَلَمَّا سِرنَا غَيرَ بَعِيدٍ قُلنَا: يَجِيءُ السَّبُعُ فَيَأكُلُهُ، فَرَجَعنَا، فَلَم نَرَهُ[2].

ومثل ذلك ما حَصَلَ لِسَعد بن أبي وقَّاص حين خَاضَ دِجْلَة إلىٰ المَدَائن بالخيل والجمال والحمير[3]، إلىٰ غير ذلك من الكَرَامات المَأثورة في سَلَف الأُمَّة؛ وبالله التَّوفيق.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٧)، ومسلم (٢٩٧٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٤/ ١٥) حديث رقم (٣٤٩٥)، و«الصغير» له (١/ ٢٤٥) رقم (٤٠٠)، و«الكبير» (١٨/ ٩٥)، رقم (١٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرج نحوه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٤٤٩) رقم الحديث (٣٣٧٣٨) من حديث جرير ابن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و«الزهد» لأبي داود (١/ ٣٧٨) برقم الحديث (٤٧٩) من حديث أبي مسلم الخولاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صفات أهل السنة والجماعة ولم سموا بذلك

فصل

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ مِنْ بَعدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١)، وَيَعلَمُونَ أَنَّ أَصدَقَ الكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُؤثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَىٰ غَيرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَديَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَىٰ هَدي كُلِّ أَحَدٍ.

وَلِهَذَا سُمُّوا أَهلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّة، وَسُمُّوا أَهلَ الجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الِاجتِمَاعُ، وَضِدُّها الفُرقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفظُ الجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفسِ القَومِ المُجتَمِعِينَ، وَالإِجمَاعُ هُوَ الأَصلُ الثَّالِثُ الَّذي يُعتَمَدُ عَلَيهِ فِي العِلمِ وَالدِّينِ، وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيهِ النَّاسُ مِنْ أَقوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) من حديث العرباض بن سارية، وصَحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٢٧٣٥).

أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ، وَالإِجمَاعُ الَّذي يَنْضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذ بَعدَهُم كَثُرَ الِاختِلَافُ، وَانْتشَرَ فِي الأُمَّةِ.

التعليق

أقول: إنَّ أهل السُّنَّة والجماعة هم المُتَّبعون لكتاب الله، ولسُنَّة رسول الله ﷺ؛ فهذان الأصلان اللَّذان أَوْحَاهما الله ﷻ إلىٰ رسوله ﷺ قَدْ أمر الله باتِّباعهما في غير ما آيةٍ من كتابه، منها قول الله ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

وقوله جلَّ من قائل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الجاثية:١٨، ١٩].

وقَدْ أَمَرَ الله بِاتِّباع رسوله في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر:٧].

ويقول تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٣٦].

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ [الحجرات:١].

ويقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن العظيم، الآمرة بِاتِّباع الكتاب المُنزَّل، ويتلو ذلك اتِّباع سُنَّة رسول الله ﷺ الَّتي هي المصدر الثَّاني لشريعة الله ﷻ، وهما يُصدِّق بعضهما بعضًا.

ومن هذه الأدلَّة نعلم أنَّ المصدرين الأساسيين للشَّريعة الإسلاميَّة لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فالكتابُ هو الأساسُ الأوَّل، والسُّنَّة مُبيِّنةٌ له، ومن هنا ينبغي أن نعلمَ الخطأَ الفادحَ الَّذي ارْتَكَبه الخوارج في رَدِّهم لسُنَّة الرَّسول ﷺ، وأيضًا الخطأ الفادح الَّذي ارتكبه المعتزلة، حيث حَكَّموا العقل في سُنَّة رسول الله ﷺ، ولم يقبلوا منها إلَّا ما تواتر، إذ كلٌّ من الكتاب والسُّنَّة يُكمِّل الآخر.

فالسُّنَّة بَيَّنت المعنىٰ المراد من الكتاب، وَوَضَّحَته، ولا يتمُّ العمل بالكتاب إلَّا بالعمل بالسُّنَّة، فمَنْ ترك السُّنَّة فَقَدْ ترك الكتاب، ولذلك فإنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يسيرون علىٰ الهدي النَّبويِّ الَّذي ترك النَّبيُّ ﷺ أُمَّته عليه، لا يُفرِّطون في شيءٍ من السُّنَّة لعلمهم بموقعها ومنزلتها من الكتاب، والمقصود بذلك ما صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ علىٰ القواعد الاصطلاحيَّة الَّتي أسَّسها خيارُ أُمَّته ﷺ، ومَشَوْا عليها، واسْتَبعدُوا الدَّخِيلَ في السُّنَّة.

وقَدْ قال نبيُّ الهدىٰ صلوات الله وسلامه عليه: «**تَرَكْتُكُمْ علىٰ البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالكٌ**»(١)، ثمَّ يتلو ذلك سُنَّة الخلفاء الرَّاشدين

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٣) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وصحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٩).

عملًا بقول النَّبيِّ ﷺ: «**فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الرَّاشدين المَهْديِّين، عَضُّوا عليها بالنَّوَاجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**»(١).

وقال ﷺ في حديث الافتراق: «**وستفترق أُمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كلُّها في النَّار إلَّا واحدةً**»، قالوا: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «**هُم الَّذين علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(٢).

والخلفاء الرَّاشدون، هم: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، رضوان الله عليهم؛ فأبو بكرٍ سَنَّ مقاتلة مَنْ مَنَع الزَّكاة، وعمرُ سَنَّ سُننًا كثيرةً؛ منها كتابة الدَّواوين، وتنظيم بيت المسلمين، وغير ذلك من الأعمال، وعثمانُ سَنَّ الأذان قبل أذان الجمعة لتنبيه الغافل، وتذكير النَّاسي؛ وعليُّ بن أبي طالبٍ أوَّل مَنْ نَقَل مركز الخلافة من المدينة إلىٰ الكوفة رغبةً منه في توسيط عاصمة الدَّولة الإسلاميَّة بين الولايات لسرعة الاتِّصَال بها.

وَقَدْ ظهرت فرقة الخوارج في وقته، فحاول إقناعهم، فَاقْتَنَعَ فريقٌ منهم، لكنَّ فريقًا آخر استمرَّ علىٰ موقفِهِ، فاضطرَّ عليٌّ إلىٰ مقاتلتهم؛ لغُلوِّهم وقتلهم العُزَّل من المُسْلمينَ، فهَؤُلَاءِ كلٌّ مِنْهم سَنَّ سُنَّةً أو سُنَنًا يجب الأخذ بها إذا لم تعارض شيئًا من سُنَّة رسول الله ﷺ؛ فإنْ عارضت شيئًا، وحاشاهم

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه الترمذي بدون قوله: «**اليوم**» (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٤٨)، وأخرجه الطبراني به في «المعجم الأوسط» (٨/ ٢٢) (٧٨٤٠).

أن تحصل منهم المعارضة قصدًا، ولكن قَدْ يأتي اجتهادهم معارضًا لما ثبت عن رسول الله ﷺ، وهنا يُتْرَك قولُهم، ويُؤخَذ بقول رسول الله ﷺ أو فعله، مثال ذلك: نَهْيُ عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه عن مُتعة الحجِّ حيث تَأَوَّل قول الله ﷻ: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]، وحمل أمر النَّبيِّ ﷺ بالتَّمتُّع أمرًا إلزاميًّا في حَجَّته؛ هدمًا لما كانت الجاهليَّة تعتقده من تحريم عمل المتعة في أشهر الحجِّ.

وبعد ذلك ما لم نجد في كتاب الله، ولا في سُنَّةِ رسول الله ﷺ، ولا أحدًا من الخلفاء الرَّاشدين، ووجدنا قولًا لبعضِ أصحابِ رسول الله ﷺ ولا يعارضه قولُ صحابيٍّ آخر، فينبغي أن نأخذه، وإنْ عارضه قول صحابيٍّ آخر أخذنا بما هو أقرب إلىٰ الحقِّ، هذه هي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة.

وما وقع عليه الإجماعُ (أي: إجماع أُمَّة مُحمَّدٍ ﷺ)، فَهُو مُعْتَبَرٌ، والأخذُ به واجبٌ ما لم يكن معارضًا لهدي أحدٍ من الخلفاء الرَّاشدين؛ لأنَّ إجماعَ الأُمَّة معصومٌ بشهادة رسول الله ﷺ حيث يقول: «**إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلَافًا، فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعظَمِ**»(١).

وفي روايةٍ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي -أَو قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ- عَلَىٰ ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ، شَذَّ إِلَىٰ النَّارِ**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٩٥٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال الألباني رحمه الله في «ضعيف ابن ماجة» (٨٥٦): «ضعيف جدًّا دون الجملة الأولىٰ، فهي صحيحة».

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الألباني رحمه الله في «المشكاة» (١٧٣): «صحيح، دون: «ومَنْ شَذَّ»».

وفي روايةٍ: «**عَلَيكم بِتَقْوَىٰ اللهِ والجَمَاعَة؛ فإنَّ اللهَ لا يَجمع أُمَّة مُحمَّدٍ علىٰ ضلالةٍ**»، قال: فأعادوا عليه، فقال: «**عليكم بتقوىٰ الله والجماعة! فإنَّما يستريح برٌّ أو يُسْتَراح من فاجرٍ**»(١).

والمقصود بأُمَّته: حَمَلة العلم والهدىٰ من الصَّحابة والتَّابعين وأتباع الأتباع في القرون الثَّلاثة المُفضَّلة؛ هذه هي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة.

وما وُجِدَ مِمَّا أُحْدِثَ في هذا الزَّمن يجب أن يَجْتَهِدَ فيه علماء السُّنَّة - وهُمْ علماء الحديث والأثر- ويقولوا فيه قولهم الَّذي يكون قُدْوةً لمَنْ بعدهم، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أهل الاتِّباع، وأن يُعِيذَنا من طريقة أهل الابتداع، إنَّه سميعٌ قريبٌ، وبالله التَّوْفيق.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٥١٦) (٣٧٦٧٠) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

في بيان مكملات العقيدة من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال

فصل

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالمَعرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ المُنكَرِ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرَونَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ؛ أَبرَارًا كَانُوا أَو فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الجَمَاعَاتِ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعتَقِدُونَ مَعنَىٰ قَولِهِ ﷺ: «المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كَالبُنيَانِ المَرصُوصِ، يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا»، وَشَبَّكَ بَينَ أَصَابِعِهِ(١).

وَقَولِه ﷺ: «مَثَلُ المُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم مَثَلِ الجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنهُ عُضوٌ، تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّىٰ»(٢).

وَيَأمُرُونَ بِالصَّبرِ عِندَ البَلَاءِ، وَالشُّكرِ عِندَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ، وَيَدْعُونَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعنَىٰ قَولِهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

«أَكْمَلُ المُؤمِنِينَ إِيمَانًا أَحسَنُهُم خُلُقًا»[١]، وَيَندُبُونَ إِلَىٰ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

وَيَأمُرُونَ بِبِرِّ الوَالِدَينِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسنِ الجِوَارِ، وَالإِحسَانِ إِلَىٰ اليَتَامَىٰ وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفقِ بِالمَملُوكِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الفَخرِ وَالخُيَلَاءِ، وَالبَغيِ وَالِاستِطَالَةِ عَلَىٰ الخَلْقِ بِحَقٍّ أَو بِغَيرِ حَقٍّ.

وَيَأمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخلَاقِ، وَيَنهَونَ عَن سَفسَافِهَا، وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّة، وَطَرِيقَتُهُم هِيَ دِينُ الإِسلَامِ الَّذي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، لَكِن لَمَّا أَخبَرَ النَّبيُّ ﷺ «أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ»[٢].

وَفِي حَدِيثٍ عَنهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثلِ مَا أَنَا عَلَيهِ اليَومَ وَأَصْحَابِي»[٣]، صَارَ المُتَمَسِّكُونَ بِالإِسلَامِ المَحضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٢٣).

(٢) أخرج ابن ماجة (٣٩٩٢) عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار ، وافترقت النصارىٰ علىٰ ثنتين وسبعين فرقة، فإحدىٰ وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة وسبعون في النار». قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: «الجماعة»، وصَحَّحه الألبانيُّ رحمه الله في «الصحيحة» (١٤٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي بدون قوله: «اليوم» (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٤٨)، وأخرجه الطبراني به في «المعجم الأوسط» (٨/ ٢٢) (٧٨٤٠).

أَهلُ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ، وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنهُم أَعْلَامُ الهُدَىٰ، وَمَصَابِيحُ الدُّجَىٰ، أُولُو المَنَاقِبِ المَأْثُورَةِ، وَالفَضَائِلِ المَذكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَفِيهِم أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذين أَجْمَعَ المُسلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم وَدِرَايَتِهِم، وَهُمُ الطَّائِفَةُ المَنصُورَةُ الَّذين قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ مَنصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُم، وَلَا مَنْ خَذَلَهُم حتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»(١).

نَسأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلنَا مِنهُمْ، وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحمَةً، إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيمًا كَثِيرًا.

التعليق

أقول: إنَّ ما سَبَره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هو مِمَّا يتحلَّىٰ به المؤمنون؛ امتثالًا لأوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

١- الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أَمَرَ الله به، حيث قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٣١١) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والنَّبيُّ ﷺ يقول: «مَنْ رأىٰ منكم منكرًا فليُغيِّره بيده، فإنْ لم يَستطِعْ فبلسانه، فإنْ لَمْ يَستطِعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمانِ»(١).

ويقول ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقصُ عَلَىٰ بَنِي إِسرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلقَىٰ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ، وَدَعْ مَا تَصنَعُ، فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ، ثمَّ يَلقَاهُ مِنَ الغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَن يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ، ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعضِهِم بِبَعضٍ»، ثمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة:٧٨]. إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٨١].

ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا، وَاللهِ لَتأمُرُنَّ بِالمَعرُوفِ، وَلَتنهَوُنَّ عَنِ المُنكَرِ، وَلَتأخُذُنَّ عَلَىٰ يَدَي الظَّالِمِ، وَلَتَأطُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ أَطرًا، وَلَتَقصُرُنَّهُ عَلَىٰ الحَقِّ قَصرًا»(٢).

وَبِنَحوِهِ زَادَ: «أَوْ لَيَضرِبَنَّ اللهُ بِقُلُوبِ بَعضِكُم عَلَىٰ بَعضٍ، ثمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُم»(٣).

وفي روايةٍ: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَتأمُرُنَّ بِالمَعرُوفِ، وَلَتنهَوُنَّ عَنِ المُنكَرِ، أَو لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَن يَبْعَثَ عَلَيكُم عِقَابًا مِنهُ، ثمَّ تَدعُونَهُ فَلَا يُستَجَابُ لَكُم».

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني رحمه الله في «ضعيف أبي داود» (٩٣٢). وأصل الأطر: العَطْف والثَّني، أي: لَتَرُدُّنَّه إلىٰ الحَقِّ، ولَتَعْطِفَنَّه عليه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (٥١٤٨).

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ التِّرمذيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ»(١).

٢- وأهل السُّنَّة والجماعة يَرَوْن إقامة الحجِّ، والجُمَع، والأعياد، والجهاد مع الأمراء؛ أبرارًا كانوا أو فجَّارًا، طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ، وامتثالًا لأمره، وحرصًا علىٰ جَمْع الكلمة، ومنعًا للفوضىٰ الَّتي تُؤدِّي بالمسلمين إلىٰ الضَّعْف، وطمع الأعداء، هذا مِمَّا أَوْجبَه الله عَزَّوَجَلَّ.

والأدلَّةُ علىٰ ذلك معروفةٌ، وقَدْ سَبَرنَاها في غير ما موضعٍ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**مَنْ رأىٰ من أميره شيئًا يكرهه، فليصبر عليه؛ فإنَّه مَنْ فَارقَ الجماعةَ شبرًا فمات إلَّا مات ميتةً جاهليَّةً**»(٢).

وفي روايةٍ: «**فَقَدْ خلع رِبْقة الإسلامِ من عُنُقه**»(٣).

وفي «الصَّحيحين» من حديث عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دَعَانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أَنْ بايعنا علىٰ السَّمْع والطَّاعة في مَنْشطنا ومَكْرهنا، وعُسْرنا ويُسْرنا، وألَّا ننازع الأمر أهله إلَّا أن تَرَوْا كفرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهانٌ(٤)، وغير ذلك من الأحاديث الَّتي تدلُّ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسَّنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «المشكاة» (٥١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٥٨) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ظلال الجنة» (٨٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، واللفظ له، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجوب السَّمْع والطَّاعة لوليِّ الأمر بالمعروف، وأنَّه يجاهد معه، ويُصلَّىٰ وراءه، وتُسلَّم له الزَّكاة، وعلىٰ وليِّ الأمر أن ينصر المظلوم، ويمنع الظَّالم، ويردَّ عن المسلمين العادية؛ سواءً أكان هؤلاء الأعداء الطَّامعين من أهل دين الإسلام، أو من غيرهم»(١).

٣- وأهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون أنَّ كلمة المؤمنين واحدةٌ، وأنَّهم ينصر بعضهم بعضًا، ويُعِين بعضهم بعضًا علىٰ الحقِّ، ويقفون جميعًا في وجه الظَّالِم المعتدي، ويَتَقوَّىٰ بهم المظلوم المستضعف، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**المُؤْمِنُ للمُؤْمن كَالبُنْيَان يَشُدُّ بَعْضَه بَعْضًا**»(٢).

ويقول: «**مَثَلُ المُؤمنين في تَوادِّهم وتَرَاحُمِهم وتَعَاطُفِهم مَثَلُ الجَسَد الوَاحِد، إذا اشْتَكَىٰ منه عُضْوٌ تَدَاعَىٰ له سَائر الجَسَدِ بالسَّهَر والحُمَّىٰ**»(٣).

٤- ومن صفات أهل السُّنَّة والجماعة أنَّهم يأمرون بالصَّبْر عند البلاء، والشُّكْر عند الرَّخاء، والرِّضا بمُرِّ القضاء؛ هذه صفات المؤمنين، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «**عَجَبًا لِأَمرِ المُؤمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ؛ فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ؛ فَكَانَ خَيرًا لَهُ**»(٤).

---

(١) انظر شرح شيخنا النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ «العقيدة الواسطية».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- وأهل السُّنَّة والجماعة يَدْعون إلىٰ مكارم الأخلاق الَّتي أَمَر الله ﷻ بها، فهم يأمرون بالكرم والجود في حدود المُسْتَطاع، ويأمرون بالشَّجاعة علىٰ قول الحقِّ، وإِنْ أغضبَ ذلك المخلوقين، والشَّجاعة علىٰ نَصْر المظلوم إِنْ كان في المُسْتَطاع.

٦- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بمحاسن الأعمال من العِفَّة والصَّبْر والإحسان إلىٰ المخلوقين.

٧- وأهل السُّنَّة والجماعة يعتقدون معنىٰ قوله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا**»(١).

وقوله: «**فَمَنْ أَحَبَّ أَن يُزَحزحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدخَلَ الجنَّة، فَلْتَأتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَليَأتِ إِلَىٰ النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَن يُؤتَىٰ إِلَيهِ**»(٢). وتبذل إليهم مَعْرُوفَك بقَدْر استطاعتك.

٨- وأهل السُّنَّة والجماعة يَرَوْن من فضائل الأعمال أن تصلَ مَنْ قَطَعك وإِنْ كان ظالمًا، وأَنْ تعطي مَنْ حَرَمك، وتَعْفُو عمَّن ظَلَمك مع أنَّ الله ﷻ أباح لعباده الانتصار من الظَّالِم، ولكنَّه نَدَب إلىٰ العفو؛ فقال: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورىٰ:٤١-٤٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

٩- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون برٍّ الوالدين تنفيذًا لأمر الله بذلك في آياتٍ مُتعدِّدةٍ في سورة الإسراء وغيرها.

١٠- وأهل السُّنَّة والجماعة كذلك يأمرون بصِلَةِ الأرحام، كَمَا أمر الله ﷻ بذلك، وتَوعَّد عليه في قوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد:٢٢، ٢٣].

١١- وأهلُ السُّنَّة والجماعة يأمرون بحُسْنِ الجوارِ؛ امتثالًا لأمر الله ﷻ في قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء:٣٦].

١٢- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بالإحسان إلىٰ اليتامىٰ والمساكين وابن السَّبِيل كما أمر الله ﷻ بذلك، وأَمَر به رسول الله ﷺ.

١٣- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بالرِّفْق بالمملوك؛ سواءً أكان من بني آدم أو من الحيوانات، وفي الحديث: «**حُسْنُ المَلَكَةِ يُمْنٌ، وَسُوءُ الخُلُقِ شُؤْمٌ**»(١).

وفي روايةٍ: «**حُسْنُ المَلَكة نَماءٌ، وسُوءُ الخُلُق شُؤْمٌ، والبرُّ زيادةٌ في العُمُر، والصَّدقةُ تمنع ميتةَ السُّوءِ**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٦٢) من حديث رافع بن مكيث رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني رحمه الله في «ضعيف أبي داود» (١١٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٠٢) (١٦١٤٣) من حديث رافع بن مكيث رضي الله عنه، وضعَّفه الألباني رحمه الله في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٥٢٥).

وفي روايةٍ: «لَا يَدخُلُ الجنَّةَ سَيِّئُ المَلَكَةِ».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيسَ أَخبَرتَنَا أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ أَكثَرُ الأُمَمِ مَملُوكِينَ وَيَتَامَىٰ؛ قَالَ: «نَعَمْ، فَأَكرِمُوهُم كَكَرَامَةِ أَولَادِكُم، وَأَطعِمُوهُم مِمَّا تَأكُلُونَ».

قَالُوا: فَمَا يَنفَعُنَا فِي الدُّنيا؟ قَالَ: «فَرَسٌ تَرتَبِطُهُ تُقَاتِلُ عَلَيهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَملُوكُكَ يَكفِيكَ؛ فَإِذَا صَلَّىٰ فَهُوَ أَخُوكَ»(١).

١٤- وأهل السُّنَّة والجماعة يَنْهَون عن الفخر والخُيَلاء، فالمؤمنون لا يَرَوْن لأنفسهم مِنَّةً ولا فَضْلًا حتَّىٰ وإِنْ أَحْسَنوا، ولا يفخرون علىٰ غيرهم وإِنْ كان لهم الفضل، وقَدْ أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه يكره المرح، ولا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ فقال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٣٧، ٣٨].

وقال جلَّ من قائل: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر:٧٥، ٧٦].

١٥- وأهل السُّنَّة والجماعة يَنْهَون عن البغي، ويمنعونه، ويَذمُّونه امتثالًا لأمر الله تعالىٰ في قوله جلَّ من قائل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٣٦٩١)، وضعَّفه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «ضعيف ابن ماجة» (٨٠٦).

١٦- وأهل السُّنَّة والجماعة يَنْهون عن الاستطالة، ومعناها مدحٌ للنَّفْس، وذمٌّ لآخرين، وهي من الفخر؛ سواءٌ أكانت بحقٍّ أو بغير حقٍّ.

١٧- وأهل السُّنَّة والجماعة يأمرون بمعالي الأخلاق، ويَنْهون عن سفاسفها؛ أي أنَّ المؤمنين يأمرون بمعالي الأخلاق امتثالًا لأمر الله ﷻ بذلك، ويَنْهون عن سفاسفها من مُحقَّرات الأخلاق والأعمال، وهي من الأمور الدَّنيئة، وينبغي للمسلم أن يَترفَّع عنها.

وقول المُؤلِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّة، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإِسلَامِ الَّذي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، لَكِنْ لَمَّا أَخبرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ: «**سَتَفتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الجَمَاعَةُ**»[1].

وَفِي حَدِيثٍ عَنهُ أَنَّهُ قَالَ: «**هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيهِ اليَومَ وَأَصْحَابِي**»[2].

صَارَ المُتَمسِّكُونَ بِالإِسلَامِ المَحضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوبِ هُمْ أَهلُ السُّنَّة وَالجَمَاعَةِ».

أقول: إنَّه لا يَسْلم من الإثْم مَنْ شَوَّبَ الإسلام بغيره، وخَلَطه بما ليس

---

(١) أخرج ابن ماجة (٣٩٩٢) عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصَحَّحه الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١٤٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي بدون قوله: «اليوم» (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١٣٤٨)، وأخرجه الطبراني به في «المعجم الأوسط» (٨/ ٢٢) (٧٨٤٠).

منه إلَّا أهل الحديث وأتباع الأثر، فَاسْتَمْسكوا أيُّها القوم بطريقة أهل الحديث، وطريقة أتباع الأثر.

أمَّا قوله: «ومنهم أعلام الهدىٰ، ومصابيح الدُّجىٰ»:

والمقصود بأعلام الهدي، ومصابيح الدُّجىٰ: أهل العلم والإيمان الَّذين يَدُلُّون المسلمين علىٰ الخير، ويصرفونهم عن الشَّرِّ.

قوله: «وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذين أَجْمَعَ المُسلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم»:

وأقول: كلمة الأبدال والأقطاب، وما أشبه ذلك، جاءت في أحاديثَ ضعيفةٍ.

وقوله: «وَفِيهِم أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذين أَجْمَعَ المُسلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم»:

أقول: لقَدْ قَسَّم الله ﷻ أهل الإسلام إلىٰ ثلاثةِ أقسام كما في سورة فاطر، فقال جلَّ من قائل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [فاطر:٣٢]، وكانت هذه القسمة علىٰ سبيل التَّرقِّي، فبدأ بالظَّالمين لأنفسهم، ثمَّ المقتصدين، ثمَّ السَّابقين بالخيرات.

وأمَّا في سورة الواقعة، فذكر الخُلَّص من المؤمنين، فقال تعالىٰ: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة:٧-١٢].

فأَدْخَل الفُجَّار من المِليِّين في أصحاب الشِّمال، وهم الَّذين يُعذَّبون، ثمَّ يَخْرجون من النَّار، وقَسَّم المؤمنين إلىٰ سابقين، وأصحاب يمينٍ، فالصِّدِّيقون والشُّهَداء، والصَّالحون، هذه مزايا لأصحاب الإيمان الكامل، والخُلُق الرَّفيع.

وقوله: «**وفيهم أَئمَّة الدِّين الَّذين أَجْمَع المسلمون علىٰ هدايتهم**»:

فيمثل لذلك بمَنْ مضىٰ من أهل الحديث كأحمد بن حنبل، والشَّافعيِّ، وابن المبارك، وأمثال هؤلاء، ويدلُّ علىٰ ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «**لا تزال طائفةٌ من أُمَّتي قائمةً بأمر الله، لا يَضرُّهُمْ مَنْ خَذلَهم أَوْ خالفهم حتَّىٰ يَأْتي أَمْرُ الله، وهم ظَاهِرُون علىٰ النَّاس**»[1]، وهذِهِ الطَّائفة قَدْ قال بعضُ السَّلَف: هم أهل الحديث[2].

فأهلُ الحديثِ والأثرِ هُمُ الَّذين أصابوا كلَّ خيرٍ، وجُنِّبوا كلَّ شرٍّ.

نسألُ الله أَنْ يَجعلنا منهم، وألَّا يزيغ قلوبنا بعد إِذْ هدانا، وأن يهبَ لنا من لدنه رحمةً، إنَّه هو الوَهَّاب.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه

تم بحمد الله

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٢) قال النَّوَويُّ رحمه الله: «وأمَّا هذه الطَّائفة، فقال البُخاري: هُم أهلُ العلم. وقال أحمد بن حنبل: إنْ لم يكونوا أهلَ الحديث، فلا أَدْري مَن هُم؟ وقال القاضي عِياض: إِنَّما أَرَاد أحمد أهل السُّنَّة والجَمَاعة، ومَن يَعتقد مَذهبَ أَهْلِ الحَديث». «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٣/ ٦٦، ٦٧).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

- مقدمة الناشر ٥
- ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ١١
  - اسمه ونسبه: ١١
  - مولده ونشأته: ١٢
  - والده وجده: ١٢
  - شيوخه: ١٢
  - تلاميذه: ١٣
  - علمه: ١٣
  - جهاده: ١٥
  - قيامه بالأمر بالمعروف ونهيه عن المنكر: ١٦
  - زهده في المناصب: ١٧
  - حاله وعبادته: ١٧
  - صبره على المحن: ١٩
  - ثناء العلماء عليه: ١٩
  - مؤلفاته: ٢٠
  - وفاته ٢٣
  - مصادر ترجمته: ٢٤

○ مقدمة ٤٣

○ الإيمان بصفات الله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ٤٨

○ الله أعلم بنفسه وبخلقه ٥٤

○ الله تعالى جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات ٥٧

○ الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم ٥٩

١- الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى: ٥٩

٢- الجمع بين علوه وقربه، وأزليته وأبديته ٦٧

٣-إحاطة علمه بجميع مخلوقاته ٧٢

٤- إثبات السمع والبصر لله تعالى ٧٥

٥- إثبات المشيئة والإرادة لله ٧٧

٦- إثبات محبة الله ومودته لأوليائه على ما يليق بجلاله ٨٢

٧- إثبات اتصافه ﷻ بالرحمة والمغفرة ٨٥

٨- ذكر رضا الله، وغضبه، وسخطه، وكراهيته في القرآن الكريم؛ وأنه متصف بذلك ٨٧

٩- ذكر مجيء الله سبحانه لفصل القضاء بين عباده على ما يليق بجلاله..... ٩٠

١٠- إثبات الوجه لله تعالى..... ٩٤

١١- إثبات اليدين لله..... ٩٦

١٢- إثبات العينين لله تعالى ٩٨

١٣- إثبات السمع والبصر لله تعالى..... ١٠٠

١٤- إثبات المكر والكيد على ما يليق بجلاله ١٠٢

١٥- وصف الله بالعفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة ١٠٦

١٦- إثبات الاسم لله ونفي المثل عنه ١١٠

١٧- نفي الشريك عن الله تعالى..... ١١٣
١٨-إثبات استواء الله على عرشه..... ١٢٠
١٩-إثبات علو الله على مخلوقاته..... ١٢٤
٢٠-إثبات معية الله لخلقه..... ١٢٩
٢١- إثبات الكلام لله تعالى..... ١٣٢
٢٢-إثبات تنزيل القرآن من الله تعالى..... ١٣٩
٢٣- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة..... ١٤٥

○ الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السنة ١٤٨

فصل..... ١٤٨
١- ثبوت النزول الإلهي على ما يليق بجلال الله..... ١٥٢
٢-إثبات أن الله يفرح ويضحك..... ١٥٤
٣- إثبات أن الله يعجب ويضحك..... ١٥٦
٤-إثبات الرجل (القدم) لله..... ١٥٧
٥- إثبات النداء والصوت والكلام لله تعالى..... ١٦١
٦-إثبات علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه..... ١٦٣
٧-إثبات معية الله لخلقه وأنها لا تنافي علوه فوق عرشه..... ١٦٦
٨-إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة..... ١٧٢

○ موقف أهل السنة من هذه الأحاديث التي فيها إثبات الصفات الربانية ... ١٧٥

○ مكانة أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة..... ١٧٨

○ وجوب الإيمان باستواء الله على عرشه ١٨٢

فصل..... ١٨٢

○ وجوب الإيمان بقربه من خلقه، وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيته ١٨٧

- فصل ١٨٧
- وجوب الإيمان بأن القرآن كلام الله حقيقة ١٨٩
- فصل ١٨٩
- وجوب الإيمان برؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية ١٩٣
- فصل ١٩٣
- ما يدخل في الإيمان باليوم الآخر ١٩٦
- فصل ....
- ١- ما يكون في القبر ١٩٦
- ٢-القيامة الكبرى، وما يجري فيها ٢٠٥
- ما يجري في يوم القيامة ٢١١
- حوض النبي ﷺ ٢١٤
- الصراط: معناه، ومكانه، وصفة مرور الناس عليه ٢١٧
- القنطرة بين الجنة والنار ٢٢٠
- إخراج الله لبعض العصاة من النار برحمته من غير شفاعة ٢٢٦
- الإيمان بالقدر وبيان ما يتضمنه ٢٢٨
- تفصيل مراتب القدر ٢٣٢
- الدرجة الأولى: العلم ٢٣٢
- الدرجة الثانية: المشيئة ٢٣٥

- الفرق بين القدر الكوني والأمر الشرعي ٢٣٦
- الدرجة الثالثة والرابعة: العباد فاعلون لأعمالهم وقادرون عليها ٢٣٨

○ حقيقة الإيمان، وحكم مرتكب الكبيرة ٢٤٢

- فصل ٢٤٢

○ فصل الواجب نحو أصحاب رسول الله ٢٤٩

○ فضل الصحابة وموقف أهل السنة والجماعة منهم ٢٥٢

○ حكم تقديم علي رضي الله عنه ٢٥٦

○ مكانة أهل بيت النبي ﷺ ٢٥٨

○ مكانة أزواج النبي ﷺ ٢٦٢

○ تبرؤ أهل السنة والجماعة مما يقوله المبتدعة في حق الصحابة وأهل البيت ٢٦٤

○ مذهب أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء ٢٦٨

○ صفات أهل السنة والجماعة ولم سموا بذلك ٢٧١

- فصل ٢٧١

○ في بيان مكملات العقيدة من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ٢٧٧

- فصل ٢٧٧

فهرس الموضوعات ٢٩١

المورد العذب الزلال

فيما انتقد على بعض المناهج الدعوية من العقائد والأعمال

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

أحمد بن يحيى النجمي

بتقديم

فضيلة الشيخ العلامة

صالح بن فوزان الفوزان

فضيلة الشيخ العلامة

ربيع بن هادي المدخلي

راجعه وعلق عليه في مواضع تأييد المؤلف

فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن هادي المدخلي

دار المنهاج